عِبَاراتٌ أثَّرَتْ عَلَيَّ وغَيَّرَتْ فِيْ حَيَاتِي

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

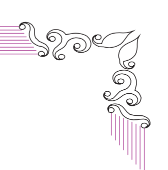
عِبَاراتٌ أثَّرَتْ عَلَيَّ وغَيَّرَتْ فِيْ حَيَاتِي

مَعَ التَّعْلِيْقِ عَلَيْهَا وَتَذْيِيلِ كُلِّ عِبَارَةٍ بِلَطِيفَةٍ

إعداد

أحمد بن ناصر الطيار


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، **أما بعد:**

لقد مررتُ أثناءَ قراءتي خلال السنوات الماضية على العديد من العبارات النافعة المفيدة، ومن بينها عباراتٌ لامَسَتْ قلبي وأثّرت في حياتي، وغيّرت مِن طباعي، وصوَّبتْ كثيرًا من تصوّراتي، وأزالت كثيرًا مِن العادات الخاطئة والأمراض القلبية، ودفعتني نحو الأمام مسافات طويلة، وزادتْ مِن همتي ـ على ضعفها ـ وقوَّت من عزيمتي ـ على خورها ـ.

وهي إلى يومي هذا لا تزال تخطر على بالي، ولم تُمح من ذاكرتي؛ لِمَا لها علي من الأثر البالغ، والتغييرِ النافع، فقررت أن أدونها دون عناء كبيرٍ في جلبها، فغالب هذه العبارات راسخةٌ في قلبي، ومستولية على ذهني، ومُحفزةٌ لهمتي، وتحجزني عن كثير مما لا يُحمد، وتُؤنبني إذا خارت العزيمة، أو وجد الشيطان سبيلًا إليّ، فهي لا تُفارقني أبدًا، وأسأل الله تعالى الثبات والإعانة.

وما أمتع الذكريات حين أكتُبها، وما أجمل المشاعر حين أنثرُها، ويزيدها جمالًا ومتعةً إذا لاقتْ آذانًا صاغية، وقلوبًا مُحبّة، تقبل ما فيها من الصواب شاكرة، وتردّ ما فيها مِن الخطأ عاذرة.

وقد كان كثيرٌ منها أيام النَّهَم وبدايةَ الطلب، حيث دخلت عالم

طلب العلم بأخلاقٍ وطباعٍ يعتريها النقصُ ويتسلّل إليها القصورُ، وكان حالي كمن دخل البحر الخضم ولم يتجهّز بعدّة الغوص والسباحة، وغَرَّهُ في ذلك جمالُ البحر وركودُه، فما إنْ ولج فيه، وذاق حلاوة الغوصِ، واستمتع بجمال البحر وما فيه من الأسماك الجميلة، والصدف الْمُتأَلِّقة، والكائنات الغريبة، وبينما يسبح في غفلة عن المسافة التي قطعها، إذ به يشعر بالأمواج تأخذ به يمنةً ويسرة، وبأسماك القرش ترقُبُه، وبالشُّعب المرجانيّة تكاد تُحيط بأقدامِه وتحتجزُه، فلاحت له سفينةٌ من بعيد، فتوقف عن السباحة وبدأ بالنداء والاستغاثة، فاقتربتْ منه وانتشلَتْه بعد طول عناء، وشدة تعبٍ وبلاء، فأيقنَ بعد ذلك أنّ الغوص في البحر والتمادي فيه بدون خبرةٍ سابقة، وبدون لباسِه الخاص به مهلكةٌ مُحقّقة.

فهكذا كانت حالي، حين دخلت بحر العلم العظيم الجميل، وترددت إلى دروس العلماء والمشايخ، وانهمكت في القراءة والمطالعة في كتب الفقه والعقيدة والحديث والتفسير وغيرها، ولم يكن ضمن دروسي وقراءاتي: آداب الطلب، وعلم السلوك والأخلاق، وكيفية التعامل مع الشبه والآراء المخالفة للمُفتى به، فواجهتني العديدُ مِن الإشكالات، والكثيرُ من التناقضات، وتسللت أمراضٌ خطيرة إلى القلب، ولم أكن أعلم أنها مرضٌ أصلًا.

فعزمت على التوقف عن قراءة الكتب العلمية برهةً من الزمن، وانكببت على كتب السلوك والأخلاق وآداب طالب العلم، التي بيّن الله تعالى بمنّه وكرمِه لي بسببها أمراضًا مُخْتَبِئَةً في قلبي لم أعلم بها، وعرفت الطُّرق الصحيحةَ في التعامل مع العلماء ومع كتبهم وأقوالهم واختلافاتهم، ورسمتُ منهجًا لي في الطلب، ووضعت خطةً أسير عليها، ومن أعظم وأول ثمارها: كتابي حياة السلف بين القول والعمل، الذي

هو ثمرة هذه الكتب السلوكية وغيرِها التي انكببت عليها والحمد لله ربِّ العالمين.

وكما أني انتقيت لك ـ أخي القارئ الكريم ـ أفضل العبارات التي نفعني الله بها، وأثّرتْ عليّ: انتقيتُ لك كذلك أفضل الخواطر وأحسن اللطائف التي كنت قد دوَّنت أكثرها على مدى سنوات مضت، ولم يكن بحسباني أنْ أُخرجها؛ لأنها كانت مبعثرة غير مرتبة، ولكن شاء العليم الخبير أنْ تخرج وأنْ ترى النور.

وإنما دوَّنتها ـ والله يشهد ـ لمحبتي لإخواني كما أحبُّ لنفسي ـ قدر الإمكان ـ بأن يستفيدوا منها كما استفدت، لعلها تُغيرهم إلى الأحسن، وتقودهم إلى الخلق الأكمل.

وقد حرصت أن أرجع إلى مظانّ هذه العبارات لأوثق مصادرها، ولم أدون في كلّ عبارة مدى تأثيرها عليّ؛ بل أكتفي بإبرازها وأهميتها ونفعها.

وأما سبب تأليفي هذا الكتاب: فهو أنّ أحد الأصدقاء جزاه الله خيرًا أرسل لي مقطعًا لفضلية الشيخ الداعيةِ الكبير: سعيد بن مسفر القحطاني حفظه الله وبارك فيه[١]، فأثر عليّ، وجعلت أردده، فقلت في نفسي: كم عبارة مرّت علي منذ طلبي للعلم!

فجعلت أستذكرها، وأجلُبُها من مواضعها ومظانّها، فإذا هي كثيرةٌ، فعزمتُ على جمع هذه العبارات التي أثّرت علي منذ بداية طلبي للعلم إلى ساعتي هذه، ولعل الله أنْ يُيسر إهداء نسخةٍ من الكتاب للشيخ، الذي ما خرج هذا الكتاب لولا توفيق الله تعالى ثم بسبب هذه العبارة

---

(١) ستأتي عبارته بإذن الله تعالى.

المجتزأة من إحدى مُحاضراتِه التي عمّ نفعها القاصي والداني، فجزاه الله خيرًا.

وما أعظم بركة مواقع التواصل إذا اسْتُغلّت كما ينبغي، وأَحْسَنَ الناسُ استخدامَها.

والمؤمن ينصح بقدر ما يستطيع، ولا يدري ما الأثر الذي تُحدثه نصيحته.

أسْأل الله تعالى أنْ ينفعَ بِمَا كتبتُ وأنْ يغفر لي ما أخطأت، وأنْ يُضاعف الأجر، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد.

أحمد بن ناصر الطيار
خطيب جامع
عبد الله بن نوفل بالزلفي
وداعية في وزارة الشؤون الإسلامية
البريد الإلكتروني:
ahmed0411@gmail.com
رقم الجوال: ٠٥٠٣٤٢١٨٦٦







عبارات كانت سببًا في إخفاقي ونجاحي

قبل الشروع في مقصود الكتاب: أحببت أنْ أدوّن بعض العبارات التي لها أثرٌ سلبيٌّ أو إيجابيّ عليّ، التي صدرتْ ممن عاصرتهم من أقارب وشيوخ وأساتذة، ولكونها تخصّني لم أجعلها من ضمن لبّ الكتاب.






بداية دراستي في الابتدائية، وما لاقيتُه من القسوة والشدّة

تلقيت تعليمي في المرحلة الابتدائية في مدرسة صلاح الدين بمحافظة الزلفي، وكنت خلالها ضعيفًا في الدراسة، تخرجت منها بأقل الدرجات، ودائمًا ما أُوصف بالبلادة والإهمال بل والغباء! حتى ترسَّخ في ذهني أني كذلك، وهذه مشكلة كان كثيرٌ منْ أبناءِ جيلي يُعاني منها، وهي التَّثبيط وعدم التشجيع.






دراستي في الْمتوسطة،
والشدّةُ التي كانت سببًا في إخفاقي

ثم التحقت بإحدى المدارس ذات النظام الصارم، والتعامل الحازم، فوجدت فيها المشقة والتعب، وعانيت الشدَّة والنَّصَب، فكانت النتيجةُ الرسوبُ والعطَب!، وكان الأساتذة في تلك الأيام يتميزون بالجد والحزم، وكان كثيرٌ منهم يعامل الطلاب الْمُهملين ـ وأنا واحدٌ منهم ـ بالقسوةِ والضرب، ولم أسمع في حياتي كلمات التشجيع والثناء إلا نادرًا، لا في المرحلة الابتدائية ولا المرحلة المتوسطة في تلك المدرسة، فرسبت سنتين متواليتين، أخفقت في السنة الأولى في كلِّ المواد ـ سوى مادّتين!! ـ، وفي السنة الثانية رسبت في ثمان مواد، فكرهت الدراسة في تلك المدرسة.

حتى يأس إخوتي وأهلي من نجاحي، وقد قال لي أحد إخوتي: سألني أحدُ أصدقائي: هل نجح أحمد من أول متوسط؟ فقلت: احسب عشر سنين، ثم اسألني بعدها؛ لأنه لن يتجاوز هذه المرحلة خلالها!






تغير المدرسة، الذي كان سببًا في تغيّر حياتي

وحينما رأى أخي الأكبر[١] جزاه الله عني خيرًا هذا الوضع الْمزري، وأنّ الشدّة والقسوة لم تعُدْ تُجدِي، قرّر أنْ أنْتَقِلَ إلى مدرسةٍ أُخرى، فانتقلت إليها بالفعل، وهي مدرسة الملك خالد، وكان مديرها أستاذًا صاحب أخلاق عالية، وتعاملٍ حسن[٢]، وكان هو السبب بعد الله تعالى في حماسي للدراسة، وحرصي ونشاطي، حيث كان يُشجعني دومًا، ويُثْنِي عليّ ويشكرني، وقال لي عبارته التي لم أنسها إلى يومي هذا، وهي التي أخْرَجَني الله تعالى بسببها من حضيض الإهمال والإحباط: ما رأيك بالأمر الفلانيّ؟

طلب رأيي في أمر يتعلّق بالمدرسة والتعليم!

فقلت في نفسي: من أنا حتى يسألني عن هذا الأمر الكبير؟ أَوَ مثلي يُستشار؟

فعقدت العزم على الجدّ والمذاكرة، لا لشيءٍ إلَّا لئلَّا أسقط من عينه، وأخسر ما أراه من تشجيعِه وثنائه.

فنجحت تلك السنة بتقدير ممتاز، وكنت الثالث على دفعتي والحمد لله.

(١) وهو أخي الكبير سنًّا وعقلًا: صالح.
(٢) وهو الأستاذ سعود بن صالح السيف جزاه الله عني خير الجزاء.

وأكملت دراستي المتوسطة والثانوية فيها، وكانت النتائج ما بين الممتاز والجيد جدًّا، ثم التحقت بجامعة الإمام بالقصيم، ودخلت قسم اللغة الإنجليزية، فدرستُ سنةً نجحت فيها بمُعدَّلٍ مرتفع.





العبارات المُثبّطة تعود مرةً أخرى



رأيت فيما يرى النائم أنَّ الإمام العلَّامة ابن باز عليه رحمة الله كأنّ سكنه في الزلفي، في بيت أحد جيراننا، وقد أعلن أنه يريد رجلًا كُفْأً لابنته، فتقدم الناس لخطبتِها، وكلّ أب قد أحضر ابنه، وكنت خارج البيت أنظر بحسرة إلى الناس، وأنا حينها لم أكن قد تزوجت، فخرج الناس صُحْبَةَ أبنائهم، وقد ردّهم ولم يوافق على أحد منهم.

فذهبت إليه لوحدي ودخلت عليه، وقبلت رأسه وقلت: يا شيخ أريد أن أتزوج ابنتك، ثم شرحت له حاجتي للزواج، ثم قال: لعل، فألححت عليه فقال: تمّ، رحمه الله رحمةً واسعة.

وكانت هذه الرؤيا وأنا دون سنّ العشرين، ولم أكن أعرف الشيخ ولم أره، فطرتُ فرحًا بها، فذهبت إلى أحد طلاب العلم، وكنت أراه في نظري العالم القدوة، الذي يُمثل الدين والإسلام، وله هيبةٌ كبيرةٌ في نفسي، ولأول مرَّةٍ أذهب إليه وأُقابله، وأنا فرحٌ مسرورٌ لا تحملني الأرض، فجئتُ إليه في المسجد الذي يصلي فيه بعد الفراغ من صلاة العصر فإذا هو يقرأ القرآن، فسلمت عليه وقلت: يا شيخ عندي سؤالٌ مهمّ، فقال: مُتأكِّدٌ بأنه مهم؟ فقلت ـ وأنا عاميٌّ وأرى أنَّ رؤياي أهم من فتح القدس! ـ: نعم، فأغلق المصحف وقام معي إلى خارج المسجد وقال: اسأل.

فما إنْ بدأت أسرد الرؤيا، حتى كادت دقَّات قلبي تخترق جسمي لِمَا داخلَه من الهيبة والسرور، وانتظار البشارة من هذا الشيخ الكبير،

وإذا به يقطع حديثي بصراخٍ كاد يقتلع قلبي، فنظرتُ في وجهه وإذا هو ليس بالوجه الذي رأيته قبلَ قليل، مما علاه من الغضب والحَنَقِ، وقال: هذا هو السؤال المهم!!، ألا تستحي أن تُخرجني من المسجد وأنا أقرأ القرآن لتطلب مني تعبير رُؤْيا!! فما زال يلومني ويصرخ في وجهي حتى وددتُ أنّ الأرض تنشق من تحت قدمي من الهمّ الذي علاني، والحزن الذي ألَمّ بي، فلمَّا هدأ قال لي: اتصل عليّ وقت كذا لأسمع رُؤْياك!!

ثم ولَّى عني وتركني كسير الخاطر، ضائق الصدر، مُنكسف البال.

فذهبت للسيارة وأنا لا أشعر بنفسي، فما إن جلست على مقعد السيارة حتى أحسست بنفسي وإذا بها تلتهبُ في جسدي، فجلستُ أبكي بُكاءً شديدًا حارًّا.

وبعد أن هدأتُ قلت في نفسي: يا الله!! أهذا الذي يُمثّل الإسلام والدين! فأنا لا أعرفه إلا من هذا الشيخ! وجعلت أسأل نفسي: ماذا فعلت! هل كفرت لأسمع هذا الكمّ الهائل من اللوم والسبّ!

وقد أحدث لي هذا الموقف ردَّةَ فعلٍ سلبيّة، فتركت التفكير بالرؤيا وبشارتها، وكرهتُ أيَّ شيءٍ يتصل بالمشايخ؛ بل إني أسْبلت ثوبي ولم أكن أُسبله قبل، وأخذت من لحيتي ولم أكن آخذ منها قبل.

وهنا أقف وقفة مع أهميّة الرفق واللينِ في التعامل، قال ﷺ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيءٍ إِلَّا شَانَهُ**». رواه مسلم[١].

فالرفق في كلِّ شيءٍ يَزينُه ويُصلحه، حتَّى في حال الغضب

(١) (٦٧٦٧).

والعتاب، واللومِ والعقاب، وهذا يدل على أنه من أفضل ما تحلَّى به العبد، واسْتعمله في أموره كلِّها.

والرِّفق: لين الجانب بالقول والفعل، والأَخذُ بالأَسهل، وهو ضد العنف، وهو الشدة والقسوة، فصاحب الرفق يدرك حاجته أَو بعضها، وصاحب العنف لا يدركها، وإِن أَدركها فبمشقة، وحريٌّ ألا تتم.

ومن أعظم الرفق: القول الليّن الحسن، وخاصةً مع المستفتين وعوام الناس، الذين قد لا يُدركون إلا أهميّة حاجاتهم فقط، ويفتقدون للأسلوب الأمثل في التعامل مع المشايخ وطلبة العلم.






عبارات التشجيع تعود للمرة الثانية، وتجبر القلب الكسير

لقد تناسيتُ هذا الموقف الْمُؤْلم، ومرَّت الشهور والأيام، وتزوجتُ وأنا على هذه الحالة، فزارني أحد الدعاة جزاه الله خيرًا، ودار الحديث بيني وبينه، وعزم عليّ أنْ أذهب معه لِمَجموعة من الدعاة، فرفضتُ وتذكرت قصتي مع الشيخ، فألَحَّ عليّ فذهبت باستحياء.

فلما دخلنا على أصحابه بشُّوا في وجهي، ورحبوا بي أشد الترحيب، وأكرموني غاية الإكرام، فاطْمأنَّت نفسي، وهدأت أعصابي، وطاب خاطري، وقلت في نفسي: لما لا أُخبرهم بالرُؤْيا؟ فطلبت منهم أن أذكرها لهم لعلهم يُعبرونها، فرحبوا بذلك، فلما قصصتها عليهم بشروني بأنها علامةُ خيرٍ، وأنها تُوحي بأنني سأكون من أهل العلم والاستقامة!!

ففرحت فرحًا شديدًا ببشارتهم.

وعادت إليّ روح محبة العلم والاستقامة، ولكن كيف؟

مرت الأيام وسمعت بأنّ فلانًا مُتخصصٌ بتعبير الرُؤى، فذهبتُ إليه وقصصتها عليه، فأخبرني بأنها بشارة لي بطلب العلم، وبنت الشيخ كنايةٌ عن علمه وهديه، ففرحت كثيرًا، فللّه الحمد والمنة.

ثم مضت الأيام، وحينما كنت أدرس الجامعة في المستوى الأول، في اللغة الإنجليزية، كنت أتردد مع زملاء لي من طلاب العلم الشرعي، وكنت أرى كتبهم العلمية، فأُعجبت بها وتمنيت قراءتها، لكنني لا أعرف

شيئًا عن العلم، وكيف أقرأ فيه، وكنت أدعو الله تعالى بإلحاح أن يفقهني في الدين، واستمرت حالي هكذا حتى حصل موقف أثار في نفسي الخيبة والأسى، على عدم معرفتي بالعلم، وعلى الجهل الذي أنا فيه، كنت مسافرًا ومعنا في الرحلة امرأة عندها علمٌ ومعرفةٌ واطلاع ـ وفقها الله وسددها ـ، وكانت تصغرني سنًّا، فحصل نقاش في مسألة القصر والجمع، فكلنا لا نعرف شيئًا عن الحكم الشرعي، فلما عَلِمَتْ بذلك أخبرتنا بالحكم الشرعي، فحزّ في خاطري، وأنَّبني ضميري، وقلت في نفسي: كيف لفتاة أصغر مني تعرف أكثر منَّا جميعًا معاشر الرجال!، فلما عدت من رحلتي ألححت بالدعاء والتضرع لله ﷻ بأن يفتح لي من العلم والفقه في الدين.

فعزمت على الانتقال إلى كليّة الشريعة، والْتحقتُ بدروس العلماء وطلاب العلم جزاهم الله خيرًا ونفع بهم.

* * *

ولقد سمعت عبارات إيجابيّةً كثيرةً أثرتْ عليّ مِن والِدَيَّ ـ جزاهما الله عني خيرًا، وأمدّ في عمرهما على طاعته ـ ومِن الكثير من أصدقائي وأساتذتي ومشايخي وأقاربي ـ جزاهم الله عني خيرًا ـ، وكان لهم ـ بعد الله تعالى ـ الأثرُ الكبير في تقوية عزيمتي، ونهوض همّتي، وسيلان قلمي.

جعل الله ذلك في ميزان حسناتِهم، وبارك فيهم وفي أهلِهم، وجمعنا بهم في الفردوس الأعلى من الجنة.

وأتركك ـ أخي القارئ ـ مع هذه العبارات، التي أسأل الله تعالى أن تنتفع بها كما انتفعتُ بها، وأنْ تكون سببًا في صلاح قلبِك وعملِك.

١ ـ [شتان بين أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم، وبين أقوام أحياء تموت القلوب بمخالطتهم][١].

إنّ العاقل لا يُؤثر مُجالسة من يُميتون قلبه، ويُثبطون همّته، وهذه هي أغلب مجالس الأحياء، ولو كانوا من أهل الخير والصلاح، فقد كثر اللهو في هذا الزمان، خاصة مع انتشار مواقع التواصل الاجتماعي.

واللبيب العاقل إنما يُؤْثر مُجالسة من يحيا قلبُه عندهم، وتعلو همته بسماع أخبارهم، وهذه المجالس هي مجالس السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان، الذين ماتت أبدانهم وحيت سيرهم وعلومهم.

وصدق القائل:

رُبَّ مَيِّتٍ قَدْ صَارَ بِالْعِلْمِ حَيًّا ... وَمُبَقًّى قَدْ مَاتَ جَهْلًا وَغَيًّا
فَاقْتَنُوا الْعِلْمَ كَيْ تَنَالُوا خُلُودًا ... لَا تَعُدُّوا الْحَيَاةَ فِي الْجَهْلِ شيًّا

ولقد جربت مجالسة هؤلاء وهؤلاء، فلم أجد مقارنة بينهما، فآثرت مجالسة الكتب النافعة وصحبتها والمكث الطويل معها، فلا أملها ولا تملني، ولم أجد يومًا منها عيبًا، ولم أسمع منها لومًا ولا عتابًا.

إن كرهت مجالسة كتاب فارقته بلا سباب، وإن أقبلت على آخر لم يلحقني ممن هجرت لومٌ ولا عتاب.

إن خرجت من عندها أمنت من غيبة ونميمة، وإن أطلت الفراق ضمنت الغنيمة.

(١) مجموع الرسائل لابن القيِّم (ص٨٦)، وقد نقله عن بعض السلف.

إن أطلت مُجالستها فلا أخشى الملال، وإن أخذت في النقاش والبحث معها أمنت من سوء الجدال.

آخذ منها ولا أعطيها، تجود عليّ ولا أكافئها.

آخذ دررها وآمن مِن كدرها، أُعاملها في بعض الأحيان بجفاء، وتُعاملني بكرم وسخاء.

يسود الصمت المطبق أثناء مجالستي معها، والقلب يصول ويجول، ويطرب ويضحك، ويتكلم ولا يسكت.

فيا لَلَّه كم للعلم النافعِ من فضائل ومنافع دينية ودنيوية! فبه عرفت نفسي التي كنت أعاني منها ومن تناقضاتها واعوجاجِها وسوء خلقها.

وبه عرفت حقيقة الدنيا التي غرَّت الأُمم مِن الناس، وغرَّت عقلاءَ كنت أراهم بدورًا في السماء.

وبه عرفت الدين الصحيح، وأعززت نفسي بعد أنْ كانت مُنقادةً تقلد قول فلان وفلان، وتحتار بين أقوال فلان وفلان.

وبالعلم عرفت قدر الوقت ومكانته، بعد أن كنت ألهث وراء من يُعينني على قتله والتخلص منه.

وبه وجدت الحياة، به ذقت طعم العبادة، به عرفت أسرارَ الدِّين وعظمَتَه، به تلذذت بالوحدةِ والخلوة، بعد أن كانت جحيمًا تُحرقني.

وبه استطعت أن أقود نفسي بعد أن كانت تقودني.

وبه استطعت تمرين نفسي على الأخلاق الفاضلة، والآداب الجمة.

۞ ۞ ۞

لطيفة

ترجم الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللهُ لنفسه فقال: «الذَّهَبِيُّ: الْمُصَنِّفُ، مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ قَايِمَازَ الشَّافِعِيُّ الْمُقْرِئُ الْمُحَدِّثُ، مُخَرِّجُ هَذَا الْمُعْجَمِ.

وُلِدَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ.

وَجَمَعَ تَوَالِيفَ، يُقَالُ مُفِيدَةٌ، وَالْجَمَاعَةُ يَتَفَضَّلُونَ وَيُثْنُونَ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَخْبرُ بِنَفْسِهِ فِي الْعِلْمِ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ، وَإِذَا سَلِمَ لِي إِيمَانِي فَيَا فَوْزِي»[١].

وقال عن نفسه في «ذيل ديوان الضعفاء»[٢] «سيئ الحفظ، ليس بالمتقن ولا بالمتقي، سامحه الله تعالى».

ولم يترجم لنفسه في كتابه الكبير: «سير أعلام النبلاء»، مع أنه ذكر فيه كثيرًا من أقرانه ومعاصريه بالتراجم المليئة بالثناء والإطراء.

فانظر إلى هذا التواضع الجمّ، والازدراء للنفس، من هذا البحر والحبر الذي خدم السُّنَّة خدمةً عظيمة جليلة، لا يكاد يُوجد لها نظير.



(١) المعجم المختص بالمحدثين (١/ ٢٧).
(٢) (ص٥٦).

٢ ـ [الحياة الدنيا ميدان ابتلاء، ليست مجال تمتع، وبعض الناس يتصور أنها فرصة لأن يدرس، ويتخرج، ويمتلك سيارة، ويعمل في وظيفة، ويتزوج، ويبني بيتًا، ويذهب ويسافر! هذا كلّ همّه، وهذه اهتمامات دنيئة، اهتمامات الكفار، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمَّد: ١٢]][1].

مثل هذه العبارة مرت عليّ وعلى غيري كثيرًا، ولكن لم أجد تأثّرًا لعبارة في هذا الشأن مثل هذه العبارة.

فكم تُراود أحدَنا نفسُه أنْ يستمتع في حياته، ويُفكر في مستقبله الدنيوي، حتى إنه مع هذا التفكير والأمل ينسى السعي إلى الآخرة، والعمل الدؤوب لأجلها، وهنا تكمن المشكلة، فنحن ما خُلقنا للمتعة الدنيوية؛ بل خلقنا لغاية شريفة نبيلة عظيمة، وهي توحيد الله وعبادته، فلماذا تركنا هذا المقصد الأعظم، المقصودَ لذاته، وتوجهنا إلى المقصد الدنيء، المقصودِ لغيره؟

والله تعالى إنما خلقك ـ أخي الموفق ـ له ولعبادته وتوحيده، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذّاريَات: ٥٦]، وخلق ما في الأرض لأجلك وسخّرها لك، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البَقَرَة: ٢٩].

فلا تنشغل بما خَلَقَهُ الله لك عمَّا خَلَقَك له.

والانشغال بالله حُبًّا وتعظيمًا وعبادةً: يجلب صلاح البال، وانشراح النفس، ونور القلب، والسعادة والطمأنينة.

---

(١) «الداعية سعيد بن مسفر حفظه الله» في إحدى محاضراتِه.

وأما الانشغال بغيرِه: فإنه يجلب الهمّ والقلق والكَدَر.

قال بعض السلف: ذهب المحبُّون لله بشرف الدنيا والآخرة، إنَّ النبي ﷺ قال: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»(١)، فهم مع الله في الدنيا والآخرة.

«ومن عرف الله: صفَا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كلُّ شيء، وذهب عنه خوفُ المخلوقين، وأَنِس بالله، واستوحش من الناس، وأورثتْه المعرفة الحياءَ مِن الله، والتعظيم له، والإجلال، والمراقبة، والمحبة، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والرضا به، والتسليم لأمره.

فحياة القلب مع الله، لا حياةَ له بدون ذلك أبدًا»(٢).

وكم يحزن المسلم الغيورُ الحريصُ على أمّتِه مِنْ ضعفِ هممِ كثيرٍ من المسلمين في شأن العبادة، ومظاهرُ ذلك تكمنُ في التَّثَاقلِ عن أداء الواجبات، والزهدِ بالنوافل، بينما تجدهم يُثْرون مجالسهم ويتواصون ويتعاونون في شؤون الدنيا، والتزوّد منها.

فينشأ الصغيرُ على ذلك، ويشِبُّ ويشيب وهو في لهثٍ خلف سراب المستقبل الدنيوي؛ طلبًا للمتعة والسعادة الوهميّة والوقتيّة.

وما أقصر وأَتْفَهَ الحياة الدنيا مقارنةً بالحياة الآخرة، وسوف نمرّ على هذه الأخطار والأهوال الفظيعة:

١ ـ أهوال القبر.

٢ ـ أهوال نَفْخَةِ الْفَزَع. ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [النَّمل: ٨٧].

---

(١) رواه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠).
(٢) روضة المحبين لابن القيِّم (ص٤٠٩ ـ ٤١١).

٣ ـ أهوال نَفْخَةِ الصَّعْقِ. ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: ٦٨].

٤ ـ أهوال قيام الساعة، والبعث من القبور. ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٨].

٥ ـ أهوال الحشر.

٦ ـ أهوال يوم تدنو الشمس قدر ميل.

٧ ـ أهوال الحساب والعرض على الله تعالى.

٨ ـ أهوال تطاير الصحف، فلا تدري: هل تأخذها بيمينك أم بشمالك؟

٩ ـ أهوال العرض على الميزان، فلا تدري: هل ترجح حسناتُك أم سيّئاتُك؟

١٠ ـ الوقوف بين يدي الله تعالى، ومُخاطبته بلا تُرجمان. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»(١).

١١ ـ أهوال العبورِ على الصراطِ، والنارُ تضطرم تحتك، والكلاليب تتخطف مَن حولَك.

١٢ ـ أهوال القصاصِ في المظالم على القَنْطَرَةِ التي بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦).

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا**»(١).

فكم نحن منشغلون في هذه الحياة ـ التي هي في الأصل مزرعة للآخرة ـ عن أهوال يوم القيامة، التي ستواجهنا أمورٌ نتمنى حينها أن نرجع إلى الدنيا لنعمل صالحًا.

إنَّ كلَّ عاقل يعلم أنه سيُبعث بعد الموت ثم لا يجِدُّ في الاستعداد لذلك لهو مسكينٌ ظالم لنفسِه.

وهذه الحياة الدنيا كساعةٍ بالنسبة للحياة الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، وكما قال سبحانه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فالعاقل يستغلّ هذه الساعة القصيرة، ولا يُضيعها فتضيع عليه آخرته الباقية التي لا نهاية لها.

إِذَا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْم اليَقِين بِأَنَّ جَمِيعَ حَيَاتِي كَسَاعَةٍ
فَلِمْ لَا أَكُونُ ضَنِينًا بِهَا وَأَجْعَلُهَا فِي صَلَاحٍ وَطَاعَةٍ؟

ولو قارن العاقل حياته الدنيويّة بالحياة الأخروية لعلم أنه مغبونٌ ظالمٌ لنفسِه إن سخَّر اهتماماته في تحصيل لذائذه الدنيويّة فحسب.

وحياته الدنيويّة الحقيقية ليست هي كلّ عمره، فلو فرضنا رجلًا عُمِّر ثمانين سنة، فإن معدل عمرِه الحقيقي ما بين (١٥ ـ ٢٠) سنةً،

(١) رواه البخاري (٦٥٣٥).

وتفصيل ذلك: أننا لن نحسب (١٥) عامًا من عمره؛ لأنه زمن لا يُكلّف فيه غالبًا، والناس كلهم متشابهون في قضاء أوقات هذا العمر.

وسيقضي ثلث عمره نائمًا، إضافة إلى جزء من يومه يخلد فيه إلى الراحة بعد عناء التعب والإرهاق من العمل؛ أي: حوالي (٢٥) سنة، وهذه الأوقات لا تُحسب من عمره ـ في الأغلب الأعم ـ؛ لأنّ النوم أخو الموت، ويشترك الناس فيها.

فبقي من عمره (٤٠) عامًا.

وسيقضي أكثر من نصف عمره المتبقي في العمل، والسفر، والتنقل، وفي أكله وشربه، وقضاء حاجته.

فغالب الناس يعملون من الصباح إلى الظهر، وفترة الظهر يقضونها في الأكل والراحةِ والنوم.

فبقي من عمره الحقيقي في أعلى تقدير: (٢٠) عامًا.

فهل يليق بعاقلٍ أن يُفني هذا العمر القصير في اللهو واللعب، وفعلِ الحرام، وهو يعلم أنّ ضياعه يعني: خسارته في الآخرةِ وندامته الشديدة؟

وهل يُقدِّم التمتع في هذا العمر القصير، ويخسر الحياة الباقية التي لا حدّ لها ولا عدّ؟

قال بعض السلف: الدُّنيا كلها قليلٌ، والذي بقي منها قليلٌ، والذي لكَ من الباقي قليلٌ، ولم يبقَ من قليلِك إلا قليل، فاشترِ نَفسك لعلَّك تنجو.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [فَاطِر: ٥].

هذا؛ وإنّ مَن أحسن استغلال أوقاتِ عمره فعَمَرها بطاعة ربه: فإنه سيحصل على امتيازات عظيمة لا يحصل عليها غيرُه، **ومنها**:

أولًا: أنّ جميع ساعات أيامه سيُكتب له بها أجرٌ، وتكون في ميزان حسناته، حتى إنّ نومه يكون له فيه أجر.

ثانيًا: أنه سيقضي جميع أيامه في سعادة وراحة قلبية عجيبة، وراحة نفسيّة وذهنيّة، حتى إنه يجد سعادة في عملِه وتعبِه.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النّحل: ٩٧].

ولو لم يجعل الله تعالى للإيمان والعمل الصالح لذةً وسعادةً: لكان وعده للعامل بالجنة كاف وزيادة، كحال أهل الدنيا، فهم لا يأخذون المناصب والشهادات إلا بعد تعب ومشقة، ولا يجدون في ذلك لذة، وإنما تحملوا التعب لأجل ما بعده.

والتاجر يشقى ويتعب في البداية؛ رجاء الحصول على المال الوفير في النهاية.

والطلاب يتعبون ويشقون في المذاكرة والحضور إلى المدارس، ويُشاركهم آباؤهم وأمهاتهم الكثير من الشقاء، وإنما تحملوا ذلك لأجل العاقبة الحميدة في النهاية، مع أنها غيرُ مُؤكّدة.

ولكن مِن كرم ربنا أنه أعطى العامل له لذةً لا يجدها غيرُه، وَوَعَدَه بالجنة.

ولو لم يكن هناك جنة ولا نار، لكان العاقل لا يختار إلا القيام بالأعمال الصالحة والتمسك بالشريعة؛ رجاء ما ينتج عنها من الأنس وانشراح الصدر واللذة وحلاوة مُناجاتِه، فكيف إذا انضاف إلى ذلك تلك المنافع والفوائد العظيمة للفرد والمجمتع، من ناحية تنظيم الحياة

البشريّة، والمنع من الفوضى الأخلاقية، وجلب المنافع ودفع المضارّ.

أمَّا إذا انضاف إلى ذلك ضمان جنة عرضها السموات والأرض خالدًا فيها، وهُدّد إذا لم يعمل الصالحات بنار جهنم: فلن يترك الشريعة والأعمال الصالحة إلا شقيّ عنيدٌ جاهل ضالّ.

وإنّ غاية كلّ إنسان مهما بلغ غناه وملكه أن يصل إلى اللذة وانشراح الصدر الذي يعيشها أهل الطاعات والإيمان.

وإنّ الإنسان يخشى أنْ تكون لذة العبادة وحلاوة الطاعةِ هي السائق له، والحاثَّة لطاعته.

فلْيجتهد المؤمن أنْ يعمل لله ويُجدد الإخلاص، ويسأل الله القبول، وأنْ يعمل كلّ ما يُرضي الله، انشرحت نفسُه لذلك أم لا، فإن كان لا يقوم بالطاعة إلا إذا وجد لها انشراحًا فهنا تكمن المشكلة، ويكون الدافع لأعمالِه ما يجده من لذةٍ وانشراح، لا لأنَّ العمل يُرضي الله.

قال بعضهم: «تَأَمَّلْ أَيُّهَا الْمِسْكِينُ، فَإِنَّهُ تَعَالَى مَا أَعْطَى إِلَّا الْقَلِيلَ مِنَ الْعِلْمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥] وَسَمَّى الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا قَلِيلًا، فَقَالَ: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النّساء: ٧٧] وَانْظُرْ كَمْ مِقْدَار هَذَا الْقَلِيلِ حَتَّى تَعْرِفَ عَظَمَةَ ذَلِكَ الْكَثِيرِ!».

وقال ابن السماك رَحِمَهُ اللهُ: «الدنيا كلها قليل، والذي بقي منها قليل، والذي لك من الباقي قليل، ولم يبق من قليلك إلا قليل».اهـ(١).

فكيف لعاقل أنْ يجعل هَمَّهُ وجهده في هذا القليل الحقير الفاني! ويغفل عن الكثير الجليل الباقي!

وصدق الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ [النّحل: ٩٦] فقد

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٣٠).

«بَيَّنَ الْفَرْقَ بَيْنَ حَالِ الدُّنْيَا وَحَالِ الْآخِرَةِ بِأَنَّ هَذِهِ تَنْفَدُ وَتُحَوَّلُ، وَمَا عِنْدَ اللهِ مِنْ مَوَاهِبِ فَضْلِهِ وَنَعِيمِ جَنَّتِهِ ثَابِتٌ لَا يَزُولُ لِمَنْ وَفَّى بِالْعَهْدِ وَثَبَتَ عَلَى الْعَقْدِ.

وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى انْتِقَالِ؟
وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلُ فَيْءٍ أَظَلَّكَ ثُمَّ آذَنَ بِالزَّوَالِ»[1]

❁ ❁ ❁

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ١٧٣).

لطيفة

ما وجدت أضيعَ للوقت، وأضيق للصدر، وأسرع في تشويش الفكر والخاطر، وأشد في التحريش والعداوة بين الناس من متابعة الأخبار.

وقد مضى عليّ زمنٌ كنت أُطالع فيه عدة صفحات يوميًّا من الأخبار! حتى أُصبتُ بالإدمان عليها، ومن شدة تعلقي بها أني حينما أصل إلى مكتبتي أو أستيقظ من نومي أبدأ بها قبل الصلاة وقبل القراءة والعلم!

فقررت مقاطعتها كلّها، فوجدت الراحة النفسية العجيبة، حيث كنت لا أجد منها إلا القلق والهمَّ والتناقض، والألم والحزن، والضيق والنكد، حتى إني في أحيان كثيرةٍ أمضي أيامًا في حزن وهمٍّ، مما يؤثر على صفاء ذهني، وقراءتي وبحثي وتأليفي.

وأنا أدعو للإسلام والمسلمين كل يوم ولم ولن أنساهم، دون حاجتي لقراءة أخبار تُحزنني، وتُضَيِّع كثيرًا من أوقاتي.

وليس في وسعي أدنى تأثيرٍ فضلًا عن التغيير!

إذن؛ فلماذا أُطوِّق نفسِي بطوقٍ يضيقُ خناقُه كلَّ يوم؟

وإنّي أنصحُ كلّ أخٍ ليس صاحب قرار ولا مُؤثّرًا أن يهجر تفاصيل الأخبار لمدّةٍ مُعيّنة، ثم يُقارن بين حالتِه من قبلُ ومن بعدُ، ثم يقرر الاختيار.

❁ ❁ ❁

٣ ـ [مَنْ نظر في استدلالِ السَّلَفِ الصَّالِحِ عَلَى إِثْبَاتِ الْأَحْكَامِ التَّكْلِيفِيَّةِ؛ عَلِمَ أَنَّهُمْ قَصَدُوا أَيْسَرَ الطُّرُقِ وَأَقْرَبَهَا إِلَى عُقُولِ الطَّالِبِينَ، لَكِنْ مِنْ غَيْرِ تَرْتِيبٍ متكلَّف، وَلَا نَظْمٍ مُؤَلَّفٍ؛ بَلْ كَانُوا يَرْمُونَ بِالْكَلَامِ عَلَى عَوَاهِنِهِ، وَلَا يُبالون كيف وقع فِي تَرْتِيبِهِ، إِذَا كَانَ قَرِيبَ الْمَأْخَذِ، سَهْلَ الْمُلْتَمَسِ][(١)].

هذه العبارة لها أعظم الأثر عليّ في ترك التكلف في إعداد خطبي، وتحضير دروسي، وتأليف كتبي، وإلقاء كلماتي، وقد رأيت التكلف في كلّ شيء ضارًّا وشاقًّا، ويؤول بصاحبه إلى الانقطاع أو الملل والفتور غالبًا.

ومعنى: رَمَى الكلامَ على عَواهِنِه؛ أَي: لم يتكلف في اختياره وأسلوبه.

قال بعضهم: يقال: هو يُلقِي الكلامَ على عواهنه، إذا لم يبال كيف تكلَّم.

قال ابن فارس رَحِمَهُ اللهُ في مقاييس اللغة[(٢)]: وهذا قياسٌ صحيح؛ لأنَّه لا يقوله بتحفُّظ وتثبُّت.اهـ.

هذا فيه ردٌّ على من يتكلّف المصطلحات العسيرة ونحوها.

والتكلف: معالجة الكلفة، وهي ما يشق على المرء عمله والتزامه لكونه يحرجه أو يشق عليه، ومادة التفعل تدل على معالجة ما ليس بسهل.

---

(١) الموافقات للشاطبي (١/ ٧٠).
(٢) (٤/ ١٧٦).

فالتكلف: هو كلُّ فعلٍ أو قولٍ لا مصلحةَ فيه، يكون بمشقةٍ أو بتصنع أو بتشبع، أو على خِلافِ العادةِ[(١)]، وهو مضرٌّ بالعقل أو بالبدن أو بالدِّين.

أما إذا كان فيه مصلحةٌ، كمُجاهدةِ النفْسِ على فعلِ الطاعات والقربات، فالتكلُّف الْمُعتادُ ليس مذمومًا، كمن يتكلَّف قيامَ الليل، وصيامَ النافلة، وحفظَ القرآن، وتعلمَ العلمِ وشرائعَ الإسلام.

وأُخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ [صٓ: ٨٦] أنَّ ما جاء به من الدين لا تكلف فيه؛ أي: لا مشقة في تكاليفه، وهو معنى سماحة الإسلام[(٢)].

والتكلُّف مذمومٌ في كلِّ شيء، في الدين والدنيا، في العادات والعبادات، في الظاهر والباطن.

وهو التعمّق المذموم شرعًا وعقلًا، قال أَنس بن مالك رضي الله عنه: وَاصَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَوَّلِ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَوَاصَلَ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «**لَوْ مُدَّ لَنَا الشَّهْرُ لَوَاصَلْنَا وِصَالًا، يَدَعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ**»[(٣)].

«والتعمق: الانتهاء إلى عمق الشيء وغايته، مأخوذ من عمق البئر، وهو أقصى قعرها»[(٤)].

قال الخليل رحمه الله: «الْمُتَعَمِّقُ: الْمُبالِغُ في الأمرِ المنشُودِ فيه، الذي يطلب أقْصَى غايته»[(٥)].

---

(١) تاج العروس (٢٤/ ٣٣٢)، التوقيف على مهمات التعاريف (١/ ٦٠٨).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٩٦).
(٣) رواه البخاري (٧٢٤١)، ومسلم (١١٠٤).
(٤) المفهم (٣/ ١٦٢).
(٥) العين (١/ ١٨٧).

والكلام غيرُ الْمُتكلّف: يصل للقلب، ويستفيد منه العامي وطالب العلم.

وأما التكلف في اختيارِ العبارات، وسردِ الأقوال، وتنقيح الألفاظ: فإنه يُصيب صاحبه بالْمشقَّةِ والتعب، الذي يؤول إلى انقطاعِه غالبًا، ويُصيب السامع أو القارئ بالملل والسآمة، وقلة الاستيعاب والفهم، وربما نفّره من الاستماع لمواعظ الواعظين، ونصائح الدعاة والعلماء، والقراءة والمطالعة.

ومن التكلف: التكلف في السجع، وانتقاء الألفاظ بدقة، وطلب الكمال في إخراج وطباعة الكتب وإعداد المقالاتِ والخطب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّمَا الْبَلَاغَةُ الْمَأْمُورُ بِهَا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، هِيَ عِلْمُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ، فَيُذْكَرُ مِنَ الْمَعَانِي مَا هُوَ أَكْمَلُ مُنَاسَبَةً لِلْمَطْلُوبِ، وَيُذْكَرُ مِنَ الْأَلْفَاظِ مَا هُوَ أَكْمَلُ فِي بَيَانِ تِلْكَ الْمَعَانِي.

فَالْبَلَاغَةُ بُلُوغُ غَايَةِ الْمَطْلُوبِ، أَوْ غَايَةِ الْمُمْكِنِ، مِنَ الْمَعَانِي بِأَتَمِّ مَا يَكُونُ مِنَ الْبَيَانِ، فَيَجْمَعُ صَاحِبُهَا بَيْنَ تَكْمِيلِ الْمَعَانِي الْمَقْصُودَةِ، وَبَيْنَ تَبْيِينِهَا بِأَحْسَنِ وَجْهٍ.

وَأَمَّا تَكَلُّفُ الْأَسْجَاعِ وَالْأَوْزَانِ، وَالْجِنَاسِ وَالتَّطْبِيقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا تَكَلَّفَهُ مُتَأَخِّرُو الشُّعَرَاءِ وَالْخُطَبَاءِ، وَالْمُتَرَسِّلِينَ وَالْوُعَّاظِ، فَهَذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ دَأْبِ خُطَبَاءِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَالْفُصَحَاءِ مِنْهُمْ، وَلَا كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَهْتَمُّ بِهِ الْعَرَبُ.

وَغَالِبُ مَنْ يَعْتَمِدُ ذَلِكَ يُزَخْرِفُ اللَّفْظَ بِغَيْرِ فَائِدَةٍ مَطْلُوبَةٍ مِنَ الْمَعَانِي، كَالْمُجَاهِدِ الَّذِي يُزَخْرِفُ السِّلَاحَ وَهُوَ جَبَانٌ. اهـ(١).

(١) منهاج السنة النبوية (٨/ ٥٤ ـ ٥٥).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلَيْسَتِ الْفَصَاحَةُ التَّشَدُّقَ فِي الْكَلَامِ، وَالتَّقْعِيرَ فِي الْكَلَامِ، وَلَا سَجْعَ الْكَلَامِ، وَلَا كَانَ فِي خُطْبَةِ عَلِيٍّ وَلَا سَائِرِ خُطَبَاءِ الْعَرَبِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ تَكَلُّفُ الْأَسْجَاعِ، وَلَا تَكَلُّفُ التَّحْسِينِ الَّذِي يَعُودُ إِلَى مُجَرَّدِ اللَّفْظِ، الَّذِي يُسَمَّى عِلْمَ الْبَدِيعِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْخُطَبِ وَالرَّسَائِلِ وَالشِّعْرِ. اهـ[1].

ومن جميل ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧]: قول ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: ««الضّر» بضم الضاد سوء الحال في الجسم وغيره، «والضّر» بفتح الضاد ضد النفع، وناب الضر في هذه الآية مناب الشر وإن كان الشر أعم منه فقابل الخير، وهذا من الفصاحة، عدول عن قانون التكلف والصنعة؛ فإن باب التكلف وترصيع الكلام أن يكون الشيء مقترنًا بالذي يختص به بنوع من أنواع الاختصاص موافقة أو مضادة». اهـ[2].

❁ ❁ ❁

(١) منهاج السنة النبوية (٨/ ٥٣).
(٢) التحرير الوجيز (٢/ ٢٧٤).

لطيفة

إذا استعجلت في صلاتك رغبةً في تدارك الوقت للقيام بعمل ما: فتذكَّر أنَّ كلّ ما تُريد لِحاقه، وجميع ما تخشى فواته، بِيَد مَن وقفت أمامه! سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وبقدر خشوعك في صلاتك، وطمأنينتك بها، وصدقِ توجّهك إلى من وقفت بين يديه: يزول همّك، وتُقضى حاجتك.

وصلاتُك رأس مالك ومكسبُك، فكن على إقامتِها حريصًا، ولا تُشغل بالك أثناء صلاتك في أيّ أمر دُنيوي مهما كبر وعظم شأنُه، فالله أعظم وأكبر، ولذلك تقول في كلِّ رفعٍ وخفض: الله أكبر.



٤ ـ [كثير من الناس مثل شاحنة النفايات، تدور في الأحياء مُحَمَّلةً بأكوام النفايات: المشاكل بأنواعها، الإحباط، الغضب، الفشل، وخيبة الأمل، وعندما تتراكم هذه النفايات داخلهم، يحتاجون إلى إفراغها في أي مكان قريب، فلا تجعل من نفسك مكبًّا للنفايات!](١).

كم أثرت عليّ هذه العبارة الجميلة، والحكمة البليغة، وغيرت من سلوكي تجاه حماقات بعض الناس، وقلة أدبهم، وذلك بألَّا أكون مكانًا لتفريغ نفاياتهم، وأوساخ أخلاقهم، وقذارة تصرفاتهم، وأفضل طريقة لذلك: التغافل، وعدم الاكتراث لذلك، ومقابلة السيئة بالحسنة.

وأكثر الناس يرون أنّ النعم التي تستحق الشكر والحمد: هي التي فيها نفعٌ وخيرٌ عاجل، ويرون كذلك أنّ المصائبَ التي يُقَدِّرها الله تعالى على العبد، مِمَّا ليس لبشرٍ فيها سببٌ، هي التي يُصبر عليها، ويُرضى بتقدير الله لها، ولا تَجْزَعُ النفوسُ بها؛ لأنها ممَّا قدره الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢].

ويبقى السؤال الكبير: هل استشعرنا أنّ المصائب والمحن التي تأتينا من الناس كالأقارب والأصدقاء وغيرهم، هي مِمَّا يُؤْجر عليه المسلم بقدرِ صبرِه وعفوِه؟ وهي مثلُ التي يُقدرها الله تعالى علينا، مما ليس لبشر فيه سببٌ، كالجوع والمرض ونحوها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: الصبر على ما يُصِيبُ الإنسان بغير اختيارِه من المصائب **نوعان**:

(١) «سائق سيارة أُجرة» نقلها عنه الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ في إحدى مقالاتِه.

نوع: لا اختيارَ للناس فيه، كالأمراضِ وغيرِها من المصائب السماوية، فهذه يسهل الصبر فيها؛ لأن العبْدَ يشهدُ فيها قضاءَ اللهِ وقدرَه، وأنه لا مدخلَ للناس فيها، فيصبر إمّا اضطرارًا وإمّا اختيارًا.

النوع الثاني: ما يحصل له بفعل الناس في ماله أو عِرضِه أو نفسِه، فهذا النوع يَصعُب الصبرُ عليه جدًّا؛ لأنّ النفس تستشعِرُ الْمُؤذيَ لها، وهي تكره الغلبة، فتَطلبُ الانتقام.

فلا يَصبِر على هذا النوع إلّا الأنبياء والصدّيقون.اهـ[(١)].

اللّهُمَّ اجعلنا منهم يا ربّ العالمين.

فالمصائب التي يقدرها الله تعالى علينا، قد يُجريها على أيدي الناس، وقد يُجريها على غيرهم، فلماذا لا نصبر على جميع هذه المصائب؟

وهناك عدّةُ أشياءَ تُعِينُك على الصبر على أذى الناس وجنايتِهم عليك، منها:

أحدُها: مشهد القَدَر، وأن الذي جرى عليك بمشيئة الله وقضائه وقدره، فاجعل ذلك كالتأذي بالحر والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرياح، وانقطاع الأمطار؛ فإنَّ الكلَّ أوجبته مشيئة الله، فما شاء الله كان ووجب وجودُه، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده.

وإذا شهد هذا: استراح، وعلم أنه كائنٌ لا محالة، فما لِلْجزع منه وجْهٌ، وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

المشهد الثاني: مشهد الصبر، فيشهده ويشهد وجوبَه، وحسنَ عاقبته، وجزاءَ أهله، وما يترتب عليه من الغِبطة والسرور.

---

(١) جامع المسائل (١/ ١٦٦ ـ ١٦٧).

ويكفي في فضل صبرك على أذى الناس: أنّ الله تعالى يُوَفِّيك الأجر الوفير يوم القيامة بغير حساب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزُّمَر: ١٠].

وأنك تفوز بمحبة الله لك، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦﴾ [آل عِمرَان: ١٤٦].

وأنّه تعالى معك حين صبرِك، يحفظك، وينصرك، ويُؤيِّدك، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦].

المشهد الثالث: مشهد العفو والصفح والحلم، وما فيه من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرفِ النفس وعزها ورفعتها عن تشَفِّيها بالانتقام.

وما انتقم أحدٌ قَطُّ لنفسه إلّا أورثَه ذلك ذُلًّا يجده في نفسه، فإذا عَفا أعزَّه الله تعالى، وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق حيث يقول: «**ما زاد الله عبدًا بعَفْوٍ إلّا عزًّا**»(١).

فالعزّ الحاصل له بالعفو أحبّ إليه وأنفع له من العزّ الحاصل له بالانتقام، فإنّ هذا عِزٌّ في الظاهر، وهو يُورِث في الباطن ذُلًّا، والعفوُ ذُلٌّ في الباطن، وهو يورث العزَّ باطنًا وظاهرًا.

المشهد الرابع: مشهد الرضا، وهو فوق مشهد العفو والصفح، وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، لا سيما إنْ كان ما أصيبتْ به سببُه القيامَ لله، ومن لم يرض بما يصيبه في سبيل محبوبه فلينزل عن درجة المحبة، وليتأخر فليس من ذا الشأن.

المشهد الخامس: مشهد الإحسان، وهو أرفع مما قبله، وهو أن تُقابل إساءة المسيء إليك بالإحسان، فتُحسن إليه كلَّما أساء هو إليك.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة.

فيا من آذاك أحدٌ من الناس، إنك قد ربحت عليه؛ لأنه قد أهدى إليك حسناتِه، ومحاها من صحيفتِه، فينبغي لك أن تشكره وتحسن إليه.

واعلم أنَّ الجزاءَ مِن جنس العمل، فإنْ عفوت عمَّن أساء إليك وأحسنت إليه، فسيعفو اللهُ تعالى عنك، في يومٍ أنت أحوجُ ما تكون فيه إلى العفو والمغفرة.

المشهد السادس: مشهد السلامة وبَرْد القلب، فلا تُشغل قلبَك وخاطرك بما نالك من الأذى وطلبِ الثأر، وشفاءِ نفسِك؛ بل فرِّغْ قلبك من ذلك، وسترى أنَّ سلامتك وصفاء ذهنِك أنفع لك وألذُّ وأطيب.

المشهد السابع: مشهد الأمن، فإنك إذا تركتَ المقابلة والانتقام: أمِنت ما هو شرٌّ من ذلك، ولا بد أنَّ عفوَك وحلمَك وصفحَك، سيُخفف حقدَ عدوك، ويكف من غيظِه، بعكس الانتقام، فإنه يزيد الشرّ والحقد والعداوةَ والفرقة.

المشهد الثامن: مشهدُ النعمة، فأنت في نعمةٍ عظيمةٍ حينما يصلك الأذى من الناس، وذلك من **وجوه**:

أحدها: أن تشهد نعمة الله عليك في أن جعلك مظلومًا تترقب النصر، ولم يجعلك ظالمًا تترقب الْعقابَ والأَخْذ، فلو خُيِّر العاقل بين الحالتين ولا بد من إحداهما، لاختار أن يكون مظلومًا.

ومنها: أنْ تشهدَ نعمةَ اللهِ في التكفيرِ بذلك مِن خطاياك، فإنه ما أصاب المؤمنَ همٌّ ولا غمٌّ ولا أذى إلا كفَّر الله به من خطاياه، فلذلك في الحقيقة دواء يُستخرج به منك داءُ الخطايا والذنوب.

ومنها: أن تشهد كون تلك البليِّة أهونَ وأسهلَ من غيرها، فإنه ما من مِحنة إلا وفوقَها ما هو أقوى منها وأمَرّ.

ومنها: توفيةُ أجرِها وثوابِها يوم الفقر والفاقة.

وفي بعض الآثار: أنه يتمنى أناس يوم القيامة لو أن جلودهم كانت تُقرَض بالمقاريض؛ لِمَا يرون من ثواب أهل البلاء.

وإن العبد ليشتدُّ فرحه يوم القيامة، بما له على الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض، فالعاقل يَعُدُّ هذا ذُخرًا ليوم الفقر والحاجة، ولا يُبطله بالانتقام الذي لا يُجدي عليه شيئًا.

المشهد التاسع: مشهد الأُسْوة، وهو مشهد شريف لطيف جدًّا، فإن العاقل اللَّبيب، يرضى أنْ يكون له أسوةٌ برُسُل الله وأنبيائه وأوليائه، وخاصته من خلقه؛ فإنهم أشد الخلق امتحانًا بالناس، وأعظمهم صبرًا على أذاهم.

فيا من آذاك أحد إخوتك، أما ترضى أن يكون يوسفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُسوتك وقدوتك، وهو الذي صبر على أعظم الأذى من إخوتِه؟

ويا من آذاك أحد أصدقائك أو أقاربِك، أما ترضى أن يكون أُسوتك وقدوتك، ذاك النَّبِيُّ الذي ضَرَبَهُ قَوْمُهُ حتى خرج منه الدم، فجعل يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»(١).

أفلا ترضى أن يكون لك أسوةٌ بخيارِ خلق الله، وخواصِّ عباده وأوليائِه؟

«وإذا كان هذا خيرَ خلق الله وأكرمَهم على الله لم يَنتقِمْ لنفسِه قَطُّ، مع أنَّ أَذَاه أَذَى الله، ويتعلّقُ به حقوق الدين، ونفسُه أشرفُ الأنفُس وأزكاها وأبرُّها، وأبعدُها من كلّ خُلُقٍ مذمومٍ، وأحقُّها بكل خُلُقٍ جميلٍ، ومع هذا فلم يكن يَنتقِم لها، فكيف يَنتقِمُ أحدنا لنفسِه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب؟

(١) رواه البخاري (٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢).

بل الرجل العارف لا تُساوِي نفسُه عنده أنْ ينتقم لها، ولا قدرَ لها عنده يُوجِبُ عليه انتصارَه لها»[(١)].

المشهد العاشر: أن تشْهَد ذُنُوبَك، وأنّ الله إنما سلَّطهم عليك بذنبك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشّورىٰ: ٣٠].

فإذا شهد العبدُ أن جميع ما يناله من المكروه فسببُه ذنوبُه: اشتغلَ بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلَّطهم عليه بسببها عن ذَمِّهم ولَومِهم والوقيعةِ فيهم.

وإذا رأيتَ العبدَ يقع في الناس إذا آذَوْه، ولا يَرجع إلى نفسِه باللوم والاستغفار: فاعلمْ أنَّ مصيبتَه مصيبةٌ حقيقية، وإذا تاب واستغفر وقال: هذا بذنوبي، صارتْ في حقّهِ نعمةً[(٢)].

فهنيئًا لكلِّ من أُوذي فعفى وغفر، هنيئًا لكل من سمع من غيرِه كلامًا جارحًا فكتم غيظه وصبر، هنيئًا لكل من اختار المسامحة على المقاطعة، واختار الحلم على الجهل، واختار الرفق على العنف، واختار البشاشة على العُبوس، وقدّم التآلف على التدابر، وقدم مصلحة الجماعةِ على مصلحة نفسِه.

هنيئًا لهم هذه الفضائل العظيمة، التي يخسرها من لا يحتمل أذى الآخرين، فينتقم لنفسه ويرى ذلك عزةً وحفظًا للكرامة، وكأن الأنبياء والصالحين لا كرامة لهم، حينما عفوا وصفحوا وتركوا الانتقام لأنفسهم.

---

(١) جامع المسائل (١/ ١٧١).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٣ ـ ٣٠٧)، جامع المسائل (١/ ١٦٨ ـ ١٧٤)، بتصرّف.

وأقول لكلِّ قاطع لأحدٍ مِن أقاربِه أو أرحامِه، بسببِ خصامٍ عارض، أو تشاجرٍ على حطامِ الدنيا: إنك مع ما تتجرعه في الدنيا مِن المرارة، فإني أخشى عليك من يومٍ قد تذوق فيه الأسى والألم على قبيح فعلك، وتجبرك وقسوة قلبك إن لم يتداركك الله برحمتِه.

وأقول لكلِّ قاسٍ على مَن خاصمه، ولكلِّ منتقمٍ لنفسِه، ولكلِّ رادٍّ بغلظة على من أساء إليه: يا أخي أعد النَّظر في هذا السلوك؛ فإنّ من شؤمِه خسران الرتب العالية، والفضائل العظيمة، التي لا ينالها مَن ينتقم لنفسِه في كلّ صغيرة وكبيرة، ولم يذق طعم العفو والحلم والصبر.

وأخيرًا: يا من تجرعت مرارة الأذى من فلان أو فلان: تسلح بالصبر، واحتسب الأجر عند الله تعالى، وقل بصدق: اللَّهُمَّ لك الحمد على أن عافيتني مما ابتليته به، ربِّ سامحه وعافه من سوء خلقه، ولا تجعل في قلبي عليه شيئًا.

فإنك ستجد راحةً عظيمةً وبردًا على قلبك.

لطيفة

غرّدت مرّةً في موقع التواصل الاجتماعي (تويتر) بهذه العبارة: نصَّ علماؤنا على تحريم البلوت كأعضاء اللجنة الدائمة، وابن باز، والألباني وابن عثيمين وغيرهم؛ لأنها تهدر الوقت، ولاعتمادِها على التخمين، وغير ذلك.

فردّ عليّ أحدهم: «ما رأي سماحتك في قول المفتي؟»

ثم أرسل لي رابطًا فيه فتوى للشيخ عبد العزيز آل شيخ يُجيز هذه اللعبة.

فأرسل بعدها بدقائق: «والله إني أعلم أنك لن تردّ، لكن إذا أردتَ أنْ أرسل لك فتوى تُحَرِّم جوال الكاميرة الذي في جيبِك، أو تُحَرِّم المكان الذي أنت فيه وتبثّ فيه!».

فأجبته بقولي: «أشكرك على ما أفدتني به، جزاك الله خيرًا».

فرد علي بقوله: «جُوزيت خيرًا يا شيخ، ورفع الله قدرك على تواضعك الجمّ».

ثم قام مِن فوره بمتابعتي!

إنّ الإعراض عن الجدال، والرفق في الرد، والإحسان إلى المسيء: هو أعظم أسباب اكتسابِ محبة الناس، والسلامة من شرهم وحقدهم وعداوتهم.

فانظر كيف جعلتُه ـ بفضل الله تعالى ـ صديقًا مُحبًّا لي، بكلمة حسنة، ودعاء يسير.

وماذا لو أني جادلته فقلت: أنا لم أُفْتِ، إنما نقلت فتوى علمائنا، أو قلت: تأدَّب في الرد والنقاش، ونحو ذلك: لاستمر على عداوته وعنادِه؛ بل سيزداد عداوةً وكراهةً.

وطالب العلم والمستقيم إذا لم يكن حليمًا رفيقًا مع المسيئين: فإنّ اللوم عليه يشتدّ، فيجب عليه أنْ يُوطّن نفسَه ويدعو ربّه أن يرزقه حسن الخلق.

وما فائدةُ طَلَبِ العلم إذا لم يغرسِ العلمُ في صاحبِه الأخلاق الحسنة؟



٥ ـ [من انقطع إلى شيء أتقنه][١].

كم يشكو كثيرٌ من طلاب العلم وغيرهم من عدم التمكن من العلم الذي يقرؤون فيه، وعدم رؤية النتيجة المرضية التي يطمحون إليها، وذلك بسبب عدم الانقطاع التام للفن الذي يرغب التمكن فيه.

فلذا: خصِّص كلَّ زمنٍ بفنٍّ مُعَيَّنٍ، واحذر من القراءة غيرِ الْمُنضبطة والْمُنظمة، كحالِ مَنْ يَخْبِطُ خَبْط عَشْوَاء[٢]، فهي تجعلك مثقَّفًا لا متمكنًا، عارفًا لا عالِمًا.

فمثلًا: تخصص الإجازة الصيفية بالقراءة في كتب الأصول، وقُبيل رمضان تقرأ في باب الزكاة والصيام، ويكون رمضان للقرآن وتفسيره.

وليست هذه القاعدة مُقتصرةً على العلم؛ بل تشمل كلّ شيء.

حدّثني أحدُ طلاب العلم أنه كان كثيرًا ما يشكو من الغش في طيب دهنِ العود والبخور ونحوها من الأطياب، قال: فقررت أن أنقطع عن العلم مدةً من الزمن حتى أعرف كلّ ما يتعلق بها، وكيف تُصنع.

قال: فمكثت قرابة شهرين أقرأ عنها، وخالطت أهلها، وسافرت إلى بعض المدن لمقابلة أهل الخبرة والتجربة والأمانة، فسمعت منهم، وعرفت النقيّ من المغشوش، ثم رجعت بعدها إلى العلم.

ومن أراد إتقانَ مهارة الإلقاء والحديث فلْينقطع برهةً من الزمن يقرأ

(١) الطناحي رَحِمَهُ اللَّهُ، كما في اللغة والأدب (١/ ١٨٢).
(٢) مثلٌ يُضْرب لمن يمضي في أَمْرِه وعملِه عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ.

في هذا الفن، ويتدرّب على الإلقاء مرارًا وتكرارًا، وسوف يُتقنه وتزول عنه الرهبة والخوف من مواجهة الناس والحديث إليهم.

وهكذا يُقال في كلِّ مجال.

وكثيرٌ من الأمور يراها بعض الناس صعبة ومعقّدة؛ كالعلم، وإلقاء الكلمات والمحاضرات والخطب الارتجاليّة، والتأليف، والحفظ، وجَرْد الكتب الطويلة، إنما سببها: أنهم لم يتفرَّغوا لها ويأتوها من أبوابها.

ولهذا يجد بعضُ أهلِ القرى والمدنِ الصغيرةِ صعوبةً في معرفةِ طرقِ المدن الكبيرة وأحيائِها، وكلّما دخلها خرج منها متذمرًا محبطًا، وازدادت قناعته بصعوبتها، فإذا طلب من أحدِ أهل المدينة العاقل الخبير أنْ يُعطيه شيئًا من وقتِه، فيشرح له الطرق وكيفية ضبطها، ويذهب معه ويريه كيفية عبور الدَّوَّارات الضخمة، والشوارع المتشابهة، وصبر على ذلك عدة أيام وعزم على فهم الطرق وضبطِها ولم يستصعب ذلك: فسوف يُتقن الطرق ويعرف التعامل معها، وستزول عنه كراهة المدينة، والتسخط منها.

وإن لم يفعل ذلك: فسيظل كارهًا للمدينة، وكلما قدم إليها لحاجة خرج منها ذامًّا لها، كارهًا الرجوع إليها، مع شدة حاجته إليها.

۞ ۞ ۞

لطيفة

كثيرًا ما يشكو الناس ما يرونه من بعض أصدقائهم وأقارِبهم من تغيُّرٍ في أمزجتِهم وأخلاقِهم حينما يتقلّدون منصبًا وظيفيًّا، أو حينما تُقبل الدنيا عليهم بعد فقرٍ وعِوَز، فتراهم يترفّعون ولا يتواضعون، ويعبسون ولا يبتسمون، وتسوء أخلاقُهم!

فيا للعجب! ما الذي حصل؟

إنه سؤالٌ مُحيرٌ قد أجاب عنه العلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: كثير من الناس يطلب من صاحبه بعد نيله درجة الرياسة الأخلاق التي كان يعامله بها قبل الرياسة فلا يصادفها فينتقض ما بينهما من المودة، وهذا من جهل الصاحب الطالب للعادة، وهو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق الصاحي، وذلك غلط؛ فإن للرياسة سكرة كسكرة الخمر أو أشد، ولو لم يكن للرياسة سكرة لما اختارها صاحبها على الآخرة الدائمة الباقية، فسكرتها فوق سكرة القهوة[(١)] بكثير، ومحال أن يرى من السكران أخلاق الصاحي وطبعه، ولهذا أمر الله تعالى أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعًا وعقلًا وعرفًا، ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه، وهكذا كان النبي ﷺ يخاطب رؤساء العشائر والقبائل. اهـ[(٢)].

وبعد هذا الجواب المفصّل، والرأي المؤصّل: يجدر بنا أنْ نُهوِّن

---

(١) أي: الخمر.

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٢).

على أنفُسِنا ونُوطِّنها على تقبُّلِ ما يحصل من تغيُّرٍ ممن يتقلّد منصبًا رفيعًا، وأن نكون عونًا لأخينا على الشيطان، ولا نكون عونًا للشيطان عليه.



٦ ـ [عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَخَافَ اللهَ وَحْدَهُ وَلَا يَخَافَ أَحَدًا؛ فَإِنَّ مَنْ لَا يَخَافُ اللهَ أَذَلُّ مِنْ أَنْ يُخَافَ، فَإِنَّهُ ظَالِمٌ وَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، فَالْخَوْفُ مِنْهُ قَدْ نَهَى اللهُ عَنْهُ.

وَإِذَا قِيلَ: قَدْ يُؤْذِينِي؟

قِيلَ: إِنَّمَا يُؤْذِيك بِتَسْلِيطِ اللهِ لَهُ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ دَفْعَ شَرِّهِ عَنْك دَفَعَهُ، فَالْأَمْرُ لِلَّهِ، وَإِنَّمَا يُسَلَّطُ عَلَى الْعَبْدِ بِذُنُوبِهِ، وَأَنْتَ إذَا خِفْتَ اللهَ فَاتَّقَيْتَهُ وَتَوَكَّلْتَ عَلَيْهِ كَفَاكَ شَرَّ كُلِّ شَرٍّ وَلَمْ يُسَلِّطْهُ عَلَيْك، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق: ٣]، وَتَسْلِيطُهُ يَكُونُ بِسَبَبِ ذُنُوبِك وَخَوْفِك مِنْهُ، فَإِذَا خِفْتَ اللهَ وَتُبْتَ مِنْ ذُنُوبِك وَاسْتَغْفَرْتَهُ لَمْ يُسَلَّطْ عَلَيْك كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣]][١].

كم تأثَّرت بهذه العبارة تأثُّرًا بالغًا، وأمدَّتْ قلبي بقوَّةٍ عجيبةٍ تجاه أمور كثيرة كنتُ أخَافُ منها، وتُقْلقني وتزرع الرهبة في قلبي، وما إنْ وقفت على هذه العبارة وأكثرت من إعادتها وتكرارها حتى قلَّ عندي الخوف من المخلوقين، وعظم توكلي على ربِّ العالمين.

ومن عوّد نفسه ألا يخاف إلا الله تعالى، ولا يرجو إلا إيَّاه: حصلت عنده طمأنينةٌ عظيمة، وتوكلٌ عليه، واعتمادٌ عليه، وثقةٌ مطلقة به، ولا يتزعزع عند المصائب، ولا يخور عند الفتن والنوائب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِن الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَغَيْرِهَا، وَيُخْلِصُونَ دِينَهُم لِلَّهِ، فَلَا يَدْعُونَ

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١/ ٥٦ ـ ٥٧).

إِلَّا اللهَ، وَلَا يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، وَلَا يُنْذِرُونَ إِلَّا لِلَّهِ، وَيُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَهَؤُلَاءِ جُنْدُ اللهِ الْغَالِبُونَ، وَحِزْبُ اللهِ الْمُفْلِحُونَ، فَإِنَّهُ يُؤَيِّدُهُم وَيَنْصُرُهُمْ، وَهَؤُلَاءِ يَهْزِمُونَ شَيَاطِينَ أُولَئِكَ الضَّالِّينَ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ مَعَ شُهُودِ هَؤُلَاءِ وَاسْتِغَاثَتِهِمْ بِاَللهِ أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئًا مِن تِلْكَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ؛ بَل تَهْرُبُ مِنْهُم تِلْكَ الشَّيَاطِينُ.

وَهَؤُلَاءِ مُعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ، يَقُولُونَ: أَحْوَالُنَا مَا تَنْفُذُ قُدَّامَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا تَنْفُذُ قُدَّامَ مَنْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ مِن الْأَعْرَابِ وَالتُّرْكِ وَالْعَامَّةِ وَغَيْرِهِمْ..

وَلَا يَجُوزُ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَخَافَهُم فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥]. اهـ[(١)].

فلا يجوز للمؤمن أن يخاف من العائنين والساحرين والشياطين، وكلما عظم خوفه منهم تسلطوا عليه، وقلّت حماية الله له.

ومن لجأ إلى الله تعالى كفاه الله شرّ كلِّ ذي شرّ.

وإذا دجا ليل الخطوب وأظلمت ... سبل الخلاص وخاب فيها الآمل
وأيست من وجه النجاة فما لها ... سبب ولا يدنو لها متناول
يأتيك من ألطافه الفرج الذي ... لم تحتسبه وأنت عنه غافل

❁ ❁ ❁

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/٦٦٨ ـ ٦٦٩).

لطيفة

لن تبلغ ـ أخي ـ كمال الإيمان ولن تَنْعم بسلامة القلب حتى تحبَّ الرفعةَ لأقرانك وطلابك وأصحابك في العلم والدين والدنيا والقبول والذكر الحسن.

قال النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**».

ومعنى الحديث: «أنَّ الموصوفَ بالإيمانِ الكامل: مَنْ كان في معاملته للناس ناصحًا لهم، مريدًا لهم ما يريده لنفسه، وكارهًا لهم ما يكرهه لنفسه، ويتضمَّنُ أن يفضِّلهم على نفسه؛ لأنَّ كلَّ أحد يُحِبُّ أن يكونَ أفضَلَ من غيره، فإذا أحَبَّ لغيره ما يحبُّ لنفسه، فقد أَحَبَّ أن يكونَ غيره أفضَلَ منه»[1].

والدَّعوى لا بدَّ لها من بيّنة، وأكبر دليلٍ على أنك تُحب للناس ما تُحب لنفسك: أنْ تمدحَ من صدر منه ما يستحق المدح، وتشكره وتذكر عمَله في المجالس، وتُحبَّ أنْ تسمع من يمدحه ويُثني عليه، وتفعلَ الأسباب التي يكون بها طلابُك وأقرانُك وأصحابُك مثلك أو أفضلَ منك، بأنْ تساعدهم، ولا تكتمَ عنهم أيّ طريق وسبيل يُؤدي إلى تفوقهم ونجاحهم ورفعتهم.

وإذا حصلت على خيرٍ دنيويٍّ أو دينيٍّ وجدتَ الرغبةَ في إخبارهم بأسبابِ تحصيل هذا الخير؛ لكي ينالوا مثل ما نِلْت أو أحسن.



(١) المفهم للقرطبي (١/ ٢٢٧).

٧ ـ [كَمَا أَنَّ اللهَ نَهَى نَبِيَّهُ أَنْ يُصِيبَهُ حَزَنٌ أَوْ ضِيقٌ مِمَّنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ: فَكَذَلِكَ فِي آخِرِهِ، فَالْمُؤْمِنُ مَنْهِيٌّ أَنْ يَحْزَنَ عَلَيْهِمْ، أَوْ يَكُونَ فِي ضَيْقٍ مِنْ مَكْرِهِمْ.

وكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ إذَا رَأَى الْمُنْكَرَ أَوْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْ أَحْوَالِ الْإِسْلَامِ: جَزِعَ وَكَلَّ وَنَاحَ كَمَا يَنُوحُ أَهْلُ الْمَصَائِبِ، وَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْ هَذَا؛ بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ بِالصَّبْرِ وَالتَّوَكُّلِ وَالثَّبَاتِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ يُؤْمِنَ بِاَللهِ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَاَلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ، وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى، وَأَنَّ مَا يُصِيبُهُ فَهُوَ بِذُنُوبِهِ فَلْيَصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، وَلْيَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِهِ وَلْيُسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّهِ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ][١].

يا لها من كلمات أزالت عني الكثير من الآلام والأحزان التي نزلت على قلبي تجاه الأخبار التي أسمعها عن النَّوائب والمصائب التي تحلّ بإخواننا المسلمين، وعن المنكرات التي تُرتكب، والمخالفات الشرعية التي تجرأ عليها أهل الغيّ والفجور.

ولقد أكْثَرَ الله تعالى في كتابه من النهي عن الحزن على إعراض الكفار، وعلى المصائب، فمرة يقول للنبيّ ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨]، ومرة يقول: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦]، ومرة يقول: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ [الشُّعَراء: ٣ ـ ٤]، ومرة يقول: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٨/ ٢٩٥).

ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٣٥].

قال العلَّامة الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: كان النّبي ﷺ يَكْبُرُ عَلَيْهِ إِعْرَاضُ قَوْمِهِ وَيَتَعَاظَمُهُ وَيَحْزَنُ لَهُ، فَبَيَّنَ لَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذَا الَّذِي وَقَعَ مِنْهُمْ مِنْ تَوَلِّيهِمْ عَنِ الْإِجَابَةِ لَهُ، وَالْإِعْرَاضِ عَمَّا دَعَا إِلَيْهِ هُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ؛ لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَيْسَ فِي اسْتِطَاعَتِهِ وَقُدْرَتِهِ إِصْلَاحُهُمْ وَإِجَابَتُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ بِذَلِكَ، ثُمَّ عَلَّقَ ذَلِكَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ، فَقَالَ: فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ مِنْهُ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ مِنْهَا فَافْعَلْ، وَلَكِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فدع الحزن، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾ [فاطر: ٨]، و﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢٢].

وَلِهَذَا قَالَ: «﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ﴾ جَمْعُ إِلْجَاءٍ وَقَسْرٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ، وَلِلَّهِ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ؛ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِرْصِ وَالْحُزْنَ لِإِعْرَاضِ الْكُفَّارِ عَنِ الْإِجَابَةِ قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ بِذَلِكَ هُوَ صَنِيعُ أَهْلِ الْجَهْلِ وَلَسْتَ مِنْهُمْ، فَدَعِ الْأُمُورَ مُفَوَّضَةً إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ». اهـ[1].

ولقد امتثل النبي ﷺ نهي الله عن الحزن، فأصبح عظيم التفاؤل، قليل الشكاية للخلق، وقد كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ: «**بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا**». متفق عليه.

فإذا تبيّن لنا أمرُ الله تعالى وتوجيهُه لنبيِّه ﷺ، واتّضح لنا منهج نبيّنا ﷺ وهو قدوتنا وأُسوتنا، فمن هذا المنطلق أُحذر إخواني المسلمين

(١) فتح القدير (٢/ ١٢٨).

من مجالسة المتشائمين والْمُحْبَطين، حتى لا تنتقلَ هذه العدوى وتسري إليه، فهي داء عُضال، تصيب المرء بالشّلل النفسي، والتخبطِ الذهني، وإنَّ هذا الدِّينَ العظيمَ موعودٌ أهلُه بنصرِ الله، والتَّمكينِ في الأرض إن قاموا به حقّ القيام.

وإنَّ تفاؤل المسلم ليس جهلًا بالواقع، ولا رضىً بتسلّطِ أهل الشرّ على أهلِ الخير، ولكنه عقيدة راسخة يؤمن بها، ويعمل في إطارها، سندها كتاب الله ﷻ، ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يُوسُف: ٨٧]، ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحِجر: ٥٦]، واليأس حيلةُ العاجز الكسول، البطّالِ الخمول.

ثم تأمل كيف أن الله تعالى جعل بحكمته لكل نبيّ عدوًّا لدودًا من المجرمين، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا جَعَلْنَا لَكَ ـ يَا مُحَمَّدُ ـ أَعْدَاءً يُخَالِفُونَكَ وَيُعَادُونَكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَيْضًا أَعْدَاءً فَلَا يحزنك ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٤].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾؛ أَيْ: وَذَلِكَ كُلُّهُ بِقَدَرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ نَبيّ عَدُوٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ.

﴿فَذَرْهُمْ﴾؛ أَيْ: فَدَعْهُمْ، ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾؛ أَيْ: يَكْذِبُونَ؛ أَيْ: دَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فِي عَدَاوَتِهِمْ، فَإِنَّ اللهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ

عَلَيْهِمْ. اهـ[(١)].

أفتظن ألا يجعل لأتباعهم ـ وهم أقل منهم منزلةً عند الله تعالى ـ أعداءً يتسلطون عليهم؟

وتأمل كيف أمره الله تعالى بترك أذى هؤلاء المجرمين، وعدم الانتقام لنفسه، والانشغال بالردود عليهم، وعدم الألم على قبيح أفعالهم وأقوالهم.

إنّ كرهك لمن يتهجم على الإسلام والعلماء وأهل الخير، وسعيك في دحر باطلهم، ونصرة الحق وأهله بالطرق المشروعةِ: هو الواجب والمحمود، ولكن المذموم أن يكون حزنًا وهمًّا يعتصر قلبك، ويُثبطك عن العمل النافع، ويجعلك كثير التشكي قليل العمل.

وإليك هذه العبرة العظيمة، التي سأقدم بين يديها هذا المثال: لو أنّ أحدَ المعلمين وُجه لإحدى المدارس المشهورة بسوء أخلاق أكثرِ طلابِها وقسوة تعاملهم، فذهب إلى المدينة وقبل الدخول إلى المدرسة التي عُيّن فيها معلّمًا، اجتمع به مدير المدرسة وبعض المعلمين القدامى وبعض المسؤولين في البلد، ممن لا يُشك في نصحهم، فذكروا للمعلم سوء أخلاق طلاب هذه المدرسة، وذكروا أمثلة في قبح تعاملهم مع الكثير من المعلمين الذين سبقوه، وذكروا له اعْتداءهم على أحد المعلمين، واستهتارهم بمعلمٍ آخر، وتخريبهم لسيارة المعلم الفلاني، وجعلوا يسردون عليه العديد من المواقف التي تنم عن شراستهم ووقاحتهم.

فما الظن بهذا المعلم؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٨ ـ ٣٢١).

سينتظر من هؤلاء الناصحين المجربين التوجيه الصحيح في التعامل مع الطلاب، وسيعمل بما يُوجهونه به.

وبعد هذا المثال ولله المثل الأعلى: تأمل إلى سرد الله تعالى للنبي ﷺ في سورة المؤمنون قصص الأنبياء قبله مع أقوامهم، فقد ذكر تعالى نوحًا عليه السلام، وصبره على دعوتهم بالحسنى، فجاء رد قومه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٥ ـ ٢٦].

ثم ذكر هُودًا عليه السلام، ونصحه لقومه ودعوته لهم بالتي هي أحسن، فجاء ردهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المؤمنون: ٣٨ ـ ٣٩].

ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: ٤٤].

ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٨].

كلّ هذا تأكيدٌ على كفر وضلال هؤلاء المذكورين لأنبيائهم.

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧٥ ـ ٧٦].

ثم ذكر موقف قوم محمد ﷺ فقال: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٠].

وبعد كلّ هذه الحكايات الكثيرة عن تكذيب الناس لأنبيائهم،

وإعراضهم وضلالهم، وعدم جدوى النصح لهم: ذكر الله تعالى التعامل المطلوب والنافع مع أمثال هؤلاء فقال: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ۝٩٨﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨].

«أي: إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة.

وقوله: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦﴾؛ أي: نَحْنُ على علمٍ بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك، وقد حلمنا عنهم وأمهلناهم وصبرنا عليهم والحق لنا، وتكذيبهم لنا، فأنت ـ يا رسول الله ـ ينبغي لك أن تصبر على ما يقولون وتقابلهم بالإحسان.

هذه وظيفة العبد في مقابلة المسيء من البشر.

وأما المسيء من الشياطين فإنه لا يفيد فيه الإحسان ولا يدعو حزبه إلا ليكونوا من أصحاب السعير فالوظيفة في مقابلته أن يسترشد بما أرشد الله إليه رسوله فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾؛ أي: اعتصم بحولك وقوتك متبرئًا من حولي وقوتي ﴿مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ۝٩٨﴾؛ أي: أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومسهم ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم»(١).

وهذا التوجيه ليس خاصًّا للرسول ﷺ؛ بل لكل من اتبعه وآمن به، فالذي ينبغي له أنْ يُقابل إساءة المسيئين له بالحسنى، والعفو والصفح، ولو بلغ بهم ذلك إلى أن تطاولوا على الدين وأهل العلم، فإذا لم تكن

(١) تفسير السعدي (ص٥٥٨).

لك سلطة عليهم فلا تحزن ولا تجزع؛ بل كِل أمرهم إلى الله، فقد قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦﴾ [المؤمنون: ٩٦]، فما يكون من الشر وتسلط الكافرين فهو بعلم الله وإرادته الكونية، فهو جعل الدنيا دار ابتلاء وامتحان، ولا راحة للمؤمن إلا بالجنة.

والآية تُرشدنا إلى ألا نتسخط مما نراه من أحداث تمر على المسلمين، وألا نجزعَ من تسلط المنافقين والكافرين.



لطيفة

قيمتك بروحك لا بجسدك، فالجسد يفنى وتبقى الروح، إما أن تُنعّم في دار النعيم، وإما أن تُعذّب في دار الجحيم.

والموت ليس عدمًا ولا فناءً، وإنما هو انقطاعُ تعلُّقِ الروحِ بالبدن ومفارقتُه، ثم تُردّ الروح للبدن في القبر ويوم القيامة.

ولو نُزعت منك الروح لاستوحش أقرب الناس منك، ولم يُطق أن يبيت عندك ليلة واحدة، ولَدخله الفزع من جسدك.

قال بعض السلف: «ابن آدم، إنما أنت جيفة منتنة، طيَّبَ نسيمَك ما رُكِّب فيك من روح الحياة، فلو قد نزع منك روحُك أُلقِيْتَ جثةً ملقاة، وجيفةً منتنة، وجسدًا خاويًا، وقد جَيَّف بعد طيبِ ريحه، واستُوحش منه بعد الأنس بقربه، فأيُّ الخليقة ابن آدم منك أجهل؟ وأي الخليقة منك أعجب؟ إذا كنت تعلم أنَّ هذا مصيرك، وأن التراب مقيلك، ثم أنت بعد هذا لطول جهلك تَقَرُّ بالدنيا عينًا»[1].

واسأل نفسك: هل علاقتك مع روحك أم مع جسدك؟

سؤال كبير عظيم.

إن كانت علاقتك مع جسدك أكبر وأهمّ: فأنت أعظم الخاسرين، فالعلاقةُ بينكما ستنقطع خلال سنوات قليلة في هذه الحياة، ثم يشتعل جسدك نارًا في دار الجحيم، وتشتعل روحك أسىً وحسرة وندامة على ما فرّطت.

(١) موسوعة ابن أبي الدنيا (٥/ ٥٤٧).

وإن كانت علاقتك بروحك أكبر وأهم، وأقبلت على إصلاحها وتهذيبها: فأنت أعظم الفائزين، فالعلاقةُ بينكما ستدوم أبد الآبدين، وستتمتع في هذه الحياة بروحك وجسدك، فإنّ الجسد ينعم إذا تنعّمت الروح، ثم تعيش في دار النعيم عيشةً هنيّة رضيّة بروحك وبدنك.

وصدق القائل:

يا خادم الجسم كم تشقى بِخِدْمَته   أتعبتَ نفسَك فيما فيه خسران؟
أَقْبِلْ على الرُّوحِ فاسْتَكْمِلْ فضائِلَها   فأنت بالرُّوحِ لا بالجسم إنسان

وجسدك كالصندوق من الحديد، وروحُك كالجوهرة الثمينة فيه، فهل من العقل أنْ تعتني بالصندوق وتترك الجوهرة الثمينة!

ولا سبيل إلى غذاء الروح إلا مِن جهةٍ واحدة فقط، وهي جهة خالقِها وبارئِها ﷻ، وقد جعل الله تعالى غذاءها في الكتاب الذي أنزله، والنبي الذي أرسله، فمن الْتمس غذاء روحِه وسعادتها بغير ذلك شقي في الدنيا والآخرة.



٨ ـ [مَن ضاقت بهم دائرةُ الجِدِّ: ما وسعهم إلا فضاءُ الهزل][١].

دائرةُ الجدّ والحزم والإتقان ضيقة، لا يستطيع التقيُّد بها إلا الكُمَّلُ من الناس، فإنّ النفس تملّ وتكره وتنفر من القيود، فلذلك يلجأ أكثر الناس إلى فضاء الهزل واللعب، فهو مرتع البَطَّالين، ومسرح الكسالى، وملجأ أصحاب الهمم الدنيّة.

فشمر عن ساعد الجد، وأكره نفسك على طلب المعالي ولو كانت شاقة صعبة، فما تُنال المعالي إلا بالجد وسهر الليالي، وما يصل أحدٌ للقمة إلا بقوة العزيمة والهمة.

تحمل ضيق الجد في البدايات، لتحصل على فضاءِ النعيم والمكانة والسعادة في النهايات.

وقل في نفسك: ما بعد الضيق إلا الفرج، وما بعد التعب إلا الراحة، وإنما هو صبر ساعة، فاصبر وصابر، لتعلوا المنابر، وتصدحَ بالدعوةِ بين كلّ واردٍ وصادر، وصدق الله ومن أصدق من الله قيلًا: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].



(١) النبأ العظيم: (ص٩٤)، للعلامة محمد بن عبد الله دراز المتوفى (١٣٧٧هـ)، مع تصرف يسير في أول الجملة.

لطيفة

خمس لا يَكْمُلْن إلا بخمس:

١ ـ العلم مع العقل.

٢ ـ والمعروفُ مع نسيانِه.

٣ ـ والدّيانة مع الظَّرافة.

٤ ـ والحزم مع الرفق.

٥ ـ والإمارة مع المشاورة.

٩ ـ [حُبُّ الرَّاحةِ يَجْلِبُ التَّعبَ](١).

إنّ الذي تعوّد على حبّ الراحة، والخلود إلى الخمول: يعتاد على الكسل والخور، فلا يكاد يعمل شيئًا إلا بمشقة عظيمة، ولا يكاد يصرف نفسه عن أمر محظور شرعًا أو عرفًا أو طبًّا إلا بصعوبة بالغة.

ويجد نفسه تتثاقل عن فعلِ الطاعات والأعمال الفاضلة والنافعة الدينية والدنيوية، حتى ولو تيقن نفعها ومصالحها، والمفاسد التي ستواجهه إن تكاسل عنها.

فهذا شيء من التعب الذي يُواجهُه كلّ من أحب الراحة، وقدّمها على الحزم والعمل.

وقد «أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يُدْرَك بالنعيم، وأن من رافق الراحة فارق الراحة، فإنه على قدر التعب تكون الراحة»(٢).

وصدق أبو تمام حين قال(٣):

بَصُرتَ بِالراحَةِ الكُبرى فَلَم تَرَها   تُنالُ إِلّا عَلى جِسرٍ مِنَ التَعَبِ



---

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤١٣).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٦٦).

(٣) من قصيدته في مدح المعتصم بعد فتح عمورية التي مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

«الديوان (١/ ٤٥).

لطيفة

عزُّ المؤمن اسْتغناؤُه عن الناس، وافْتقارُه إلى الله ﷻ، وصدق القائل: أحْسِنْ إلى مَنْ شِئْتَ تكُنْ أميرَهُ، واسْتَغنِ عمَّنْ شِئتَ تكُنْ نَظيرَه، واحْتجْ إلى منْ شِئتَ تكُنْ أسيرَهُ.

وقال طاووس رَحِمَهُ اللهُ لرجلٍ: إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، وجعل دونك حجابًا، وعليك بطلب حوائجك إلى من بابه مفتوح لك إلى يوم القيامة، طلب منك أن تدعوه ووعدك الإجابة[1].

وصدق القائل:

لا تسألنّ من ابن آدم حاجة ... وسَلِ الذي أبوابه لا تُحجب
اللَّه يغضب إنْ تركت سؤاله ... وبُنَيَّ آدمَ حين يُسْأل يغضب

وصدق الآخر:

شاد الملوك قصورهم وتحصَّنوا ... من كل طالب حاجة أو راغب
فارغب إلى ملك الملوك ولا تكن ... يا ذا الضراعة طالبًا من طالب

«وأَعْظَمُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ قَدْرًا وَحُرْمَةً عِنْدَ الْخَلْقِ: إذَا لَمْ يَحْتَجْ إلَيْهِمْ بِوَجْه مِن الْوُجُوهِ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ إلَيْهِمْ مَعَ الِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُمْ: كُنْتَ أَعْظَمَ مَا يَكُونُ عِنْدَهُمْ، وَمَتَى احْتَجْتَ إلَيْهِمْ ـ وَلَوْ فِي شَرْبَةِ مَاءٍ ـ نَقَصَ قَدْرُكَ عِنْدَهُمْ بِقَدْرِ حَاجَتِكَ إلَيْهِمْ، وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَلَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ..

(١) حلية الأولياء: (٤/ ١١).

فَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ أَكْرَمُ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ: أَحْوَجُ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ، وَأَفْقَرُ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ.

وَالْخَلْقُ أَهْوَنُ مَا يَكُونُ عَلَيْهِمْ: أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَيْهِمْ»[١].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١/ ٣٩ ـ ٤٠).

١٠ ـ [الْأَدَبُ مَعَ أَقْوَالِ النبيّ ﷺ بَعْدَهُ كَالْأَدَبِ مَعَهُ فِي حَيَاتِهِ لَوْ سَمِعَهُ يَتَكَلَّمُ][(١)].

لو استحضر كلٌّ واحد منا هذا الأدب العظيم لتغيرت نظرته وقبوله وتعظيمه لأَقْوَالِ النبيّ ﷺ إذا سمعها.

إنّ من يُوفق لامتلاك هذا الأدب والشعور: لا أظنُّه سيخرج من المسجد ـ إلا لعذر شرعيّ ـ إذا سمع واعظًا يقول: قال رسول ﷺ.

ولن يُقدّم على قوله ﷺ قولَ أيّ أحدٍ مهما كان.

ولن يتردّد في اتباعِ هديه ﷺ، حتى ولو خالف هواه وذوقه وعادة قومه.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾ [الحُجرَات: ١] «أي: لا تقولوا حتى يقول ولا تأمروا حتى يأمر ولا تفتوا حتى يفتي ولا تقطعوا أمرًا حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويمضيه.. والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحُجرَات: ٢] فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوط أعمالهم فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياستهم

---

(١) طرح التثريب في شرح التقريب، للعراقي (المتوفى: ٨٠٦هـ).

ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه؟! أليس هذا أولى أن يكون محبطا لأعمالهم؟!»[1].



(١) أعلام الموقعين (١/ ٥٤).

لطيفة

لم يخاطب الله تعالى أحدًا من المرسلين ولا من الأنبياء بالرسالة، سوى أشرف خلقه محمد ﷺ، فإن الله تعالى نادى أبا البشر: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البَقَرَة: ٣٥].

و﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ [هُود: ٤٨].

و﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ [هُود: ٧٦].

و﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [صٓ: ٢٦].

و﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي﴾ [المَائدة: ١١٠].

وقال لنبيّنا محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المَائدة: ٦٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفَال: ٦٤].

وما ناداه باسمه «يا محمد» كغيره، لكن ذكر اسْمه مُجرّدًا في أربعةِ مواضع، اقتضت الحكمة أنْ يذكره باسمه محمد ﷺ.

قال العلَّامة محمد رشيد رضا ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [المَائدة: ٤١]: الْخِطَابُ بِوَصْفِ الرَّسُولِ تَشْرِيفٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ..

وَفِي هَذَا التَّشْرِيفِ وَالتَّكْرِيم تَعْلِيمٌ وَتَأْدِيبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عَنْ مُخَاطَبَتِهِ بِاسْمِهِ وَالْأَمْرَ بِأَنْ يُخَاطِبُوهُ بِوَصْفِهِ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَدْعُوهُ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللهِ..

وَلَكِنَّ الْمُفَسِّرِينَ يَغْفَلُونَ عَنْ هَذَا، فَيُكَرِّرُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ كَلِمَةَ «يَا مُحَمَّدُ»

عِنْدَ تَفْسِيرِهِمْ لِخِطَابِ اللهِ لِرَسُولِهِ بِمِثْلِ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكَوثَر: ١][١] وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْخِطَابِ، وَأَخَذَهُ عَنْهُمْ قُرَّاءُ التَّفْسِيرِ، فَيَكَادُونَ يَقُولُونَهُ فِي تَفْسِيرِ كُلِّ خِطَابٍ، وَإِنْ لَمْ يُذْكَرِ النِّدَاءُ فِي الْكِتَابِ. اهـ[٢].



(١) قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره: يقول تعالى تعالى ذكره: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ يا محمّد ﴿ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾.
ومثل قول المفسرين في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: ٩٤] قل يا محمد لليهود: «إن كانت لكم الدار الآخرة».
(٢) تفسير المنار (٦/ ٣٣٥).

١١ ـ [تَعَلَّمِ الأدب قبل أنْ تتعلم العلم][١]، [واعلم أنَّ قليلَ[٢] الأدبِ خيرٌ مِن كثيرٍ من العمل؛ ولذلك هلك إبليسُ وضاع أَكْثَرُ عمله بقلة أدبه][٣]، [وكاد الأدب يكون ثُلثَي الدِّين][٤]، [بل الأدب هو الدين كلُّه][٥].

هذه العبارات تهز القلوب، وتُوقظ الضمائر، وتُحتم على من قرأها أنْ يسأل نفسه: كم مقدار الأدب عندي مع رب العالمين ومع نفسي ومع الناس؟

إنَّ الأدبَ مُقدمٌ على العلم والعمل، وسابق عليهما، فإذا قدَّم الإنسان العلم أو العمل على الأدب: شاب علمه وعمله الكثير من الهوى والفساد.

فعبادة الإنسان ولو كثرت وعظمت، إن لم تكن بأدب جمٍّ مع الله: دخلها الخللُ والنقص.

فشتّان بين رجلين يقفان بين يدي الله تعالى، أحدهما: يكظم ما استطاع من تثاؤبِه، أو يضع منديلًا أو نحوَه على فمه إذا غلبه التثاؤب ولا يصدر منه صوت، ويمتخط ويتجشأ بصوت لا يكاد يُسمع إذا احتاج إلى ذلك، كلّ ذلك الهدوءُ إنما هو لحيائه من الله ـ جلّ في علاه ـ الذي يقف أمامه، وأدبًا معه سبحانه.

(١) قاله الإمام مَالِك بْن أَنَسٍ كما في حلية الأولياء (٦/ ٣٣٠).
(٢) أي: القليل من الأدب.
(٣) الفروق للقرافي (٤/ ٢٧٢).
(٤) قاله عبد الله بن المبارك، كما في صفة الصفوة (٤/ ٣٧٩).
(٥) مدارج السالكين لابن القيِّم (٣/ ٢٠٠).

وأما الآخر: فعلى النقيضِ من ذلك، فتجده تصدر منه الأصوات المزعجة في تثاؤبه وامتخاطِه وجُشائه، ويفتح فمه عند التَّثاؤب ولا يضع شيئًا على فمه، وربما أكمل القراءة وهو يتثاءب، فهذا بعيدٌ عن الأدب.

فشتّان والله بينهما.

والعلم إن لم يصحبه الأدب مع الله تعالى أولًا، ثم مع النفس ومع الناس: كان صاحبه مغرورًا مُعجبًا، جريئًا على الناس، سليط اللسان عليهم، بغيضًا إليهم، وكان العلم عليه لا له.

وصاحب الأدب مُوقر مُعظّم، جليل القدر، رفيع المنزلة، يدفعُه كرم نفسِه وكمال عقلِه إلى استعمال الأدب مع جميع الناس، ولا يترك الأدب مع ترك الأدب معه؛ لأنّ كريم النفس لا يرضى أنْ يكون وضيعًا للأراذل، ولا دنيئًا مع الأسافل.

ومن ذاق حلاوة الأدب: عاش سعيدًا إلى الأبد.

وصدق أبو تمام حين قال:

إذا ما شبتَ حسنَ الديـ ـنِ منكَ بصالحِ الأدبِ
فممنْ شئتَ كنْ فلقدْ فَلَحْتَ بِأَكْرَمِ النَّسَبِ
فنفسُكَ قَطُّ أَصْلِحْها ودعني منْ قديمِ أبِ

۞ ۞ ۞

لطيفة

استطاع الإنسان أن يُروّض الأسد الشرس، والنمر المفترس، والفيلَ الضخم، ويعقد بينه وبينها صداقةً قويّة، واستطاع أن يجعل من الصقر والكلب صيَّادًا له، أفلا تستطيع أنت أن تكسب ابنك أو زوجك أو زميلك العنيد وتجعله حبيبًا قريبًا مُؤالفًا؟

بلى تستطيع، إذا اسْتعنت بالله ثم استخدمت معه الأساليب المناسبة، التي يستعملُ مثلها من يُروّض تلك الحيوانات الوحشيّة والطيور الجارحة.

ولا ريب بأن لكلّ حيوان وطير أسلوبًا يخصّه ويُناسبه، ولو استعمله مع غيره لعسر عليه ترويضُه، فكذلك لكلّ ابنٍ وصديقٍ وقريب أسلوبٌ يُناسبه.



١٢ ـ [وَاللهِ مَا عَجَبِي مِنْ يُوسُفَ أَنْ رَاوَدَتْهُ مَوْلَاتُهُ فَاسْتَعْصَمَ، وَأَنْ قَالَتْ لَهُ: ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾ [يُوسُف: ٢٣] فَقَالَ: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ [يُوسُف: ٢٣] فَكَمْ قَالَ هَذَا مَنْ لَيْسَ لَهُ مَقَامُهُ فِي مَعْرِفَتِهِ بِاللهِ وَمُرَاقَبَتِهِ لِلَّهِ..

وَإِنَّمَا عَجَبِي بَلْ إِعْجَابِي بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ نَظَرَهُ إِلَى اللهِ أَوْ نَظَرَ اللهِ إِلَيْهِ لَمْ يَدَعْ فِي قَلْبِهِ الْبَشَرِيِّ مَكَانًا خَالِيًا لِنَظَرَاتِ هَذِهِ الْعَاشِقَةِ الَّتِي شَغَفَهَا حُبًّا][1].

لقد امتلأ قلب يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بمحبةِ الله وتعظيمِه والأنس به، واللذة بذكره وبِمُناجاتِه ما أغناه عن محبة هذه العاشقة المقبلة عليه بكامل زينتها وجمالها وسلطانِها، واستولى على قلبه حبُّ الله تعالى، فلا مكان لغير الله في قلبه، ولا يستطيع أحدٌ مزاحمة وجدانه ومشاعره وتوجهه الذي صرفه كلّه لله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: إِذَا كَانَ الْقَلْبُ مُحِبًّا لِلَّهِ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ: لَمْ يُبْتَلَ بِحُبِّ غَيْرِهِ أَصْلًا، فَضْلًا أَنْ يُبْتَلَى بِالْعِشْقِ، وَحَيْثُ أُبْتُلِيَ بِالْعِشْقِ فَلِنَقْصِ مَحَبَّتِهِ لِلَّهِ وَحْدَهُ. اهـ[2].

فمن ذاق طعم ولذة محبة الله تعالى: لم يبق في قلبه محبّةٌ لغيره، وتعلقٌ بغيرِه، وانْصِرافٌ إلى ما سواه.

وحينما ظهر على يُوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ شيءٌ من أثر ما في باطنه، وبان على صفحات وجهه، وكل إناء بما فيه ينضح: وصفه الناس بالصديق

(١) تفسير المنار للعلامة محمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٠).
(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٣٥).

والمحسن، ووصفه رب الناس بالمخلِص والمخلَص، فحينما أخلص قبله وقوله وعمله وتوجَّه لله وحده: أخلصه الله له، واصطفاه إليه.

فمن أخلص لله أخصله الله له.

اللَّهُمَّ اجعلنا من المخلِصين لك، والصادقين في التوجه إليك.

ومحبة الله تعالى **نوعان**:

أحدهما: محبة العامة، فتُحبّه لأجل إحسانه إليك، وهذه المحبة إذا لم تجذب قلبك إلى محبة الله نفسِه، فما أحببت في الحقيقة إلا نفسَك، وكذلك كلُّ من أحب شيئًا لأجل إحسانه إليه فما أحب في الحقيقة إلا نفسه.

وقد جُبِلَت النُّفُوسُ عَلَى حُبّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، لَكِنَّ هَذَا فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ مَحَبَّةُ الْإِحْسَانِ لَا نَفْسُ الْمُحْسِنِ، وَلَوْ قُطِعَ ذَلِكَ لَاضْمَحَلَّ ذَلِكَ الْحُبُّ، وَرُبَّمَا أَعْقَبَ بُغْضًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الثاني: محبتك له لذاتِه، ولِمَا هو أهلُه، وهذا حبُّ مَن عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله، وما من وجه من الوجوه التي يُعرف الله بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه حتى جميع مفعولاته؛ إذ كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل؛ ولهذا استحق أن يكون محمودًا على كل حال، ويستحق أن يحمد على السراء، والضراء، وهذا أعلى وأكمل، وهذا حب الخاصة.

وهؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم، ويتلذذون بذكره ومناجاته، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك، حتى لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم ما لا يطيقون[(١)].

---

(١) يُنظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/ ٨٤ ـ ٨٥)، (١٠/ ٦٠٩).

لطيفة

شتَّان بين من سخَّر جُهده ووقته وماله وتفكيره لإرضاء ربه، وخدمة دينه، وبين من سخر ذلك كلّه لإرضاء نفسِه، وخدمة بدنه.

فالأول: اقتدى بالأنبياء والصالحين، الذين بذلوا وباعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله تعالى، وإعزاز دينِه.

والثاني: اقتدى بالفجار والكفار والبهائم، الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾﴾ [محَمَّد: ١٢].

بل هم شرٌّ من البهائم؛ لأن البهائم تتمتع في الدنيا؛ لأنّ الله تعالى جعل متعتها وحياتها ونعيمها بالأكل والشرب والراحة الجسديّة، ولا تدخل النار، والكافر والفاجر لم يتنعّم في الدنيا؛ لأنّ النعيم الحقيقي للإنسان في الإيمان والدِّين والغذاء الرُّوحي، ومع ذلك هو مُتوعّدٌ بنارٍ تلظّى.

وكلّ الناس يتعب، لكن خيرهم من يكون تعبُه ابتغاءَ مرضاةِ الله تعالى.



١٣ ـ [إنَّ السالكَ في أول الأمر يجد تعب التكاليف، ومشقة العمل؛ لعدم أنس قلبه بمعبوده، فإذا حصل للقلب روح الأنس زالت عنه تلك التكاليف والمشاق، فصارت قرة عين له وقوة ولذة](١).

من سُنَّة الله في الحياة أنّ بداياتِ الأعمال شاقةٌ صعبة، ولولا الحماس والنشاط المصاحب لأوائل الأعمال لَشعر الإنسان بهذه الصعوبة والمشقة، ولكن لكل عمل شِرَّة(٢)، ولكل شرة فترة(٣)، وما إن يستمر في العمل قليلًا حتى يزول الحماس والنشاط غالبًا، فتتكشف صعوبة العمل ومشقته، فإن صبر واستعان بالله تعالى، وطلب من الله أن يُمده باللذة والمتعة في العمل، التي تُنسيه مشقته وعناءه: استطاع المواصلة والثبات، ويصير عملُه مع الأيام والإدمان: من أمتع الأعمال التي يقوم بها، ويتعجب مِن حوله من جَلَدِه على عمله الذي لا يكاد يصبر عليه أحد.

وأضرب لذلك أمثلة:

١ ـ الجدُّ في طلب العلم وجرد الكتب والجلوس معها الساعات الطوال يوميًّا.

٢ ـ قيام الليل لساعة أو أكثر.

٣ ـ صيام الاثنين والخميس من كل أسبوع.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيِّم (٢/ ٣٥٤).

(٢) شِرَّةٍ: بكسر الشين المعجمة وتشديد الراء: الحرص على الشيء والنشاط فيه والرغبة، والشِرَّةٍ: الحدة والقوة.

(٣) فَترةٌ: بفتح الفاء وسكون التاء؛ أي: وهنًا وضعفًا. والفَترة: الضعف والانكسار، والفتور والسكون والانقطاع.

٤ ـ عيادة المرضى في الأسبوع مرة أو مرتين، واتباع جميع الجنائز.

وغيرها من الأعمال العظيمة، التي لا يجد من يُداومُ عليها ثمرتها عاجلًا؛ بل قد لا تجد ثمرتها إلا بعد زمن طويل، وطمعه في حصول الجائزة الكبرى يوم القيامة هي التي منحته هذا الصبر والثبات.

وهذا ليس قاصرًا على الأمور الدينية؛ بل يشمل كذلك الأمور الدنيوية، كرياضة المشي، والتقليل من الطعام والنوم والخلطة، كلها تكون صعبة في البدايات، ثم تسهل مع التعويد والصبر والاستعانة بالله تعالى.

قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى: «واعلم ـ علمَ إنسانٍ مجرِّب ـ أنك إذا أكرهتَ نفسك على طاعة الله، أحببت الطاعة وألِفتها».اهـ[1].



(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٩١).

لطيفة

من المصائب على طالب العلم أن يشتهر قبل أن يتمكن، ويشتغل بالردود والدعوة قبل أن يرسخ.

ولو تمكَّن من العلم قبل أن يبرز ويشتهر: فهو خير له وللناس وأصلح وأنفع مِن أن يبرز ثم يبدأ بالتمكن والضبط.

فيا طالب العلم تدارك نفسك قبل أن تُشغلك الشهرةُ والمناصب عن تحصيلِ العلم.

قيل للمبرد: لِمَ صار أبو العباس ـ يعني: ثعلبًا ـ أحفظَ منك للغريب والشعر؟ قال: لأني ترأستُ وأنا حدَثٌ، وترأَّس وهو شيخ.

وَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا»[1]. رواه البخاري معلّقًا بصيغة الجزم.

ولا تلهث وراء الشهرة، فلقد كَثُر تحذير السلف الصالح منها وقالوا: ما صَدَق عبدٌ أحبّ الشهرة.

وما أجمل ما قال الأديب الأريب علي الطنطاوي رحمه الله: أنا كغيري من الناس أحب أن أُمدح، وأن أنجح، وأن أكون الذي تتوجه إليه الأنظار، وتشير إليه الأيدي، ولكن الأيام علمتني أن هذا كله مؤقت، تمثال من الثلج كالذي يصنعه الأولاد في البلاد الباردة، تمثال جميل ولكنه لا يعيش، ريثما تطلع الشمس وتحمى فإذا هو يسيل ماءً. اهـ[2].

---

(١) أي: تصبحوا سادة ورؤساء؛ لأنهم ربما استنكفوا عن الفقه والعلم عندئذ.

(٢) الذكريات (٤/ ٧٤).

واعلم أنّ البروز والشهرة مِن أعمال الباطن لا الظاهر، ومن أعمال القلوب لا الجوارح.

فليس من البروز والشهرة نشر العلم والخير بنيّة خالصة؛ لأنه إبراز للعلم والخير لا للنفس، والمذموم: إبراز النفس وشهرتُها، فالحذر من مداخل الشيطان.

فقد يكون الرجل متّصفًا بصفة البروز والشهرة المذمومة إذا كان مُحبًّا لها، ولو لم يشتهر؛ لعدم تمكّنه من ذلك.

ومن علامات ذلك: أنه يُحب من يُثني عليه ولو بغير حق، ويكره من ينقده ولو بحق.

وقد يكون الرجل المشهور، الذي عرفه الخاص والعام: غيرَ متصفٍ بصفة البروز والشهرة المذمومة إذا لم يكن مُحبًّا لها لذاتها؛ بل لقصد نشر العلم والخير والنفع للناس.

وقد استثنى العلماء من ذمّ تقصّد الشهرة بعض الحالات، منها ما ذكرها العلَّامة القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «لَيْسَ مِنَ الرِّيَاءِ قَصْدُ اشْتِهَارِ النَّفْسِ بِالْعِلْمِ لِطَلَبِ الِاقْتِدَاءِ؛ بَلْ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْقُرُبَاتِ؛ فَإِنَّهُ سَعْيٌ فِي تَكْثِيرِ الطَّاعَاتِ، وَتَقْلِيلِ الْمُخَالَفَاتِ، وَكَذَلِكَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٤] قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ: يَقْتَدِي بِي مَنْ بَعْدِي». اهـ[(١)].

قلت: مع ضرورةِ مُجاهدةِ النفسِ في التجرد من حظوظها وأهوائها، فإن الشيطان يغزوها من كلّ جانب.



(١) الذخيرة (١/ ٤٩).

١٤ ـ [من ٧٠ إلى ٩٠٪ من التوقعات السيئة لا تقع].

هذه المعلومة تعجّبتُ منها حينما قرأتها، ولقد غيّرت ـ بتوفيق الله تعالى ـ الكثير من نظري لأحداث الحياةِ، وأثّرت على تفكيري تجاه الهموم والمخاوف ونحوها، وخضت بنفسي تجربةَ تطبيقها فرأيت صحتها تمامًا، فكم مرَّت علي أمورٌ مقلقة، وأحوالٌ عسيرة، وتهديدات مرعبة، وعوائق مُثبّطة، فكنت أستحضر هذه المعلومة، وأجد راحة عجيبة، وطمأنينة كبيرة، وصدقت تجاربي هذه المعلومة، وأثبت بنفسي خلال سنوات صحتها واطرادها.

وتقل نسبة وقوع وحدوث التوقعات السيئة حسب حسن ظنّ العبدِ وثقته بربه تعالى، وحسب تعاملِه مع الحدث، ورجاحة عقله، وثقتِه بنفسِه، فإن كان حسن التعامل مع المصائب والمشاكل، راجح العقل، حسن الظنّ بربه، قويّ الثقة به ثم بنفسِه: قلَّت نسبة وقوع التوقعات السيئة.

وإن كان سيئ التعامل مع المصائب والمشاكل، ضعيف العقل، سيء الظنّ بربه، ضعيف الثقة به ثم بنفسِه: ارتفعت نسبة وقوع التوقعات السيئة.

۞ ۞ ۞

لطيفة

إنّ من أحقّ من يتحلى بخلق الصبر والعفو والحلم: المربين، من المعلمين والوالدين والعلماء، فالطلاب والأبناء في مرحلة الشباب غالبًا، والشباب تنقصهم التجارب والخبرة، ولم تنضج عقولهم، فمقابلة إساءتهم بقسوة وعنف: يُنفرهم ويُفسد أخلاقهم، ويتربون على القسوة وعدم احتمال أخطاء الآخرين، فيكون المربي قد جنى عليهم.

وهذا لا يليق بكمال عقول المربين مقارنةً بعقول طلابهم وأبنائهم، وإذا لم يُوظفوا كبر سنّهم ونضج عقولهم في حسن التعامل مع من هم أقل منهم عقلًا وخبرة وعلمًا: فهم ومن يُربّون في العقل والتعامل سواء؟

وإياك أن تقول: إنما أقسو عليهم لكي أُؤدّبهم، أو لكي لا يعودوا لمثل صنيعهم!

فكم كانت هذا التأويلات سببًا في فساد كبير، ووحشة ونفرةٍ بين الأزوارج والآباء وأبنائهم، والمعلمين وطلابهم، والموظفين ورؤسائهم.

فأصحاب هذه العبارات في الغالب يبررون سوء أخلاقهم وعدم صبرِهم وحلِمهم بمثل هذه العبارات.

وليتهم صرحوا بأنهم فعلوا ذلك لسوء أخلاقهم، بدلًا من تغليف قبيح تصرفاتهم بغلاف النصح والتربية والتأديب.



١٥ ـ [كم في النفوس من عِلل وأغراض وحظوظ، تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه، وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر ألبتة وهو غير خالص لله[١]، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقًا وهو خالص لوجه الله، ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها.

فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة: قُطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة، ولا خوف، ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا، ولا رغبة في الآخرة، ولا نور يفرق به بين أوليائه وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره، فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق، ورأى الحق والباطل، وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

ثم بين القلب وبين الرب مسافة، وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه من كبر، وإعجاب، وإدلال، ورؤية العمل، ونسيان المِّنَّة[٢]، وعلل خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب العجاب][٣].

كم أثرت عليّ هذه الكلمات، ورددتها مرارًا وتكرارً إلى يومي هذا، وجعلت أفتش عن نفسي وقلبي وأعمالي، فأعانتني على التخلص من أمراض كامنة في القلب، لم يخطر في بالي أنها أمراض.

فقاطع الطريق الأكبر وهو إبليسُ المارد: يُحاول جاهدًا أنْ يحول

---

(١) لإعجابه بنفسه، أو حبه لمعرفة الناس لعمله.

(٢) وقد يكون عنده خوف، ورجاء، وخشية، وبكاء، وزهد في الدنيا، وصدع بالحق، ولذة في العبادة.

(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٣٨).

بين العمل وبين القلب، بأن يمنع وصول العمل إلى القلب، فلا يُؤثر العمل في القلب.

فإن أعجزه ذلك، وكان في العبد صلاح واستقامة واجتهاد في العبادة وصلاح القلب: حال بين القلب وبين الرب بأن يمنع وصول العمل إلى الله، بأن يزرع في القلب الكبر، والإعجاب، ورؤية العمل.

فحريٌّ بالعاقل أنْ يقطع على الشيطان مرادَه، ويفتش عن أمراض قلبه فيزيلُها، حتى تصل أعمالُه الصالحة إلى قلبه، فتُزكّيه وتُرقّيه إلى درجات العلوّ والكمال يومًا بعد يوم، فيكونُ لقلبِه إخباتٌ وخضوعٌ ووجلٌ، وزيادةُ إيمانٍ وتوكّل، فيكون القلبُ وسيلةً آمنةً لعُبُور العمل الصالح إلى الربّ الشكورِ، الذي يُجازي على العمل القليل بالجزاء الكثير.

وإنْ ترك هذه الأمراض تتفاقم وتتراكم: فسد قلبُه فسادًا لا يُرجى صلاحه، ومَرِض مرضًا يستعصي عليه وعلى أطباء القلوب بُرْؤُه.



لطيفة

عندما ترى مِن أحدٍ ما تكره: فتذكر وصية الله لنبيّه ﷺ: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الرُّوم: ٦٠]؛ أي: لا يحملنك أعداؤُك على الخفّة والقلق وترك الصبر.

والخفيف يهتزّ ويضطرب عند أدنى تأثير ومكدّر، وخاصةً إذا رأى العاقل عنادَ من هو يرشده إلى الصلاح، وذلك مما يستفزّ غضب الحليم، فيكون خفيف العقل قليل الصبر.

والجاهل يعتقد أنّ ذلك لا يكون إلا من مهانةٍ وخَوَر، ولقد قال الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يُوحى: «**وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**»(١).

وإذا تركت الانتقام لنفسك، ولم تنتقم لها وتُدافع عنها لله: دافع الله عنك وانْتقم لك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحَجّ: ٣٨].

فمن صبرَ على أذى الناس: «فاللهُ ناصرُه ولا بُدَّ، فاللهُ وكيلُ من صَبر، وأحالَ ظالِمَه على الله، ومن انتصَر لنفسِه وكلَهُ اللهُ إلى نفسِه، فكان هو الناصر لها، فأينَ مَن ناصِرُه اللهُ خيرُ الناصرين إلى مَن ناصِرُه نفسُه أعجز الناصرين وأضعفُه؟»(٢).

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ: كَانَ الْأَنْبِيَاءُ عليهم السلام يُجَادِلُونَ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) جامع المسائل (١/ ١٧٢).

أُمَمَهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ كَقَوْلِ نُوحٍ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] فَقَالَ دَافِعًا عَنْ نَفْسِهِ: ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١]، وَقَالَ قَوْمُ هُودٍ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، فَقَالَ: ﴿لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧]، وَقَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١]، فَقَالَ مُوسَى: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢]؛ أَيْ: مَصْرُوفًا عَنِ الْحَقِّ مَطْبُوعًا عَلَى قَلْبِكَ.

وَأَمَّا نَبِيُّنَا ﷺ فَتَوَلَّى الْحَقُّ سُبْحَانَهُ الْمُجَادَلَةَ عَنْهُ(١)، فَلَمَّا قَالُوا: هَذَا شَاعِرٌ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ [يس: ٦٩]، وَلَمَّا قَالُوا: كَاهِنٌ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ [الحاقَّة: ٤٢]، وَقَالُوا: ضَلَّ فَقَالَ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النّجم: ٢]، وَقَالُوا: مَجْنُونٌ فَقَالَ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم: ٢] حَتَّى قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النُّور: ٦٣]. اهـ(٢).



(١) لأنه لا يُدافع عن نفسِه إذا سبّه المشركون واتّهموه؛ بل كان منشغلًا في تبليغ رسالة ربّه، ودعوة الناس إلى دينِه، وقد باع نفسَه لله تعالى.

(٢) ذكره العلّامة السفاريني في كتابه: لوامع الأنوار البهية (٧/ ٢٩٧).

١٦ ـ [قال شيخ الإسلام: العارف لا يرى له على أحد حقًّا، ولا يشهد له على غيره فضلًا، ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب.

وكان كثيرًا يقول: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء، وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المُكدِّي وابن المكدي وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعدُ إسلامًا جيدًا].

لقد أثّرت عليّ هذه العبارات من هذا الإمام الذي ملأ الدنيا علمًا وإيمانًا وصلاحًا تأثيرًا بالغًا، فمن يستطيع أن يقول هذه العبارة ولو على جهة التواضع المتكلَّف!

وكلما شمَّت النفس ريحًا من العجب أو رؤية العمل وغيره: نزلت علي كلماتُه كالسياط التي تُؤدبني، وكالعين[1] التي تُراقبني ولسان حالها يقول: راقب ظاهرك وباطنك، فأنت أعلم بنفسه وخفاياها، ولا تغتر بمدحِ من يَظنّ بك خيرًا، وتخفى عليه عيُوبُك؛ فإنّ العاقل أعرف بنفسه من غيرِه.

ومَنْ مِنَّا ـ بعد هذا الكلام من إمام العلماء رَحِمَهُ اللَّهُ ـ سيغتر بأيّ ثناءٍ من الآخرين يسمعه، أو يغترُّ بأي عمل يعمله، وقول يقوله، وعبادةٍ يقوم بها؟!

لقد كان رحمه الله تعالى مِن أبعد الناس رؤيةً لنفسِه، واعتدادًا بها،

---

(١) أي: الجاسوس.

ومن أشدهم تهذيبًا لها، ومن أعرفهم بربه وما يستحقه سبحانه.

ومن كان على هذه الصفة لا شك أنه سيرى أنه مُقصّرٌ في حق الله تعالى عبادةً ودعوةً وإسلامًا خالصًا، ويُوجب عليه ذلك أن يُجدّد صدقَ إسلامه لله تعالى كلّ وقت، ويرى من نفسِه أنها لم تُسلم الإسلام الكامل بعدُ.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو العبد به من الله تعالى في لحظة واحدة أضعاف أضعاف ما يدنو بالعمل. اهـ[(١)].

وكلّما ازدادت معرفةُ العبدِ بربّه وعظمتِه وحقوقِه عليه، ونظر إلى تقصيرِه في جنب الله، ونظر إلى نعم الله عليه في دينه ودنياه: ازداد هضمًا لنفسِه، واستصغر ما عمل، وتعاظم تفريطَه وذُنوبَه.

وهكذا كان حال السلف الصالح رحمهم الله:

فهذا مطرِّف بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: ما مدَحني أحد قطّ إلا تصاغرتْ إليّ نفْسي.

وهذا بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال وهو واقفٌ في عرفة: لولا أنِّي فيهم لقلتُ: قد غُفِر لهم.

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كذلك ينبغي للعبد أن يُزريَ على نفسِه ويَهضِمَها.

وهذا عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قرِئ عليه كتاب المناسك، فانتهى إلى حديث وفيه: قال عبد الله وبه نأخذ.

فقال: مَن كتب هذا من قولي؟

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٥٥).

قيل: الكاتب الذي كتبه.

فلم يزل يحكّه بيده حتى درَسَ، ثم قال: ومن أنا حتى يُكتب قولي؟

وهذا إمام أهل السُّنَّة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ يقول له المرُّوذي: ما أكثر الداعيَ لك! قال: أخافُ أن يكون هذا استدراجًا بأي شيء هذا؟

وقال له: قدم رجل من طَرَسُوس فقال: كنا في بلاد الروم في الغزو إذا هدأ الليل، رفعوا أصواتهم بالدعاء، ادعوا لأبي عبد الله، وكنا نَمُدُّ المنجنيق ونرمي عن أبي عبد الله، ولقد رُمي عنه بحجر، والعِلج على الحصن متترس بَدَرَقَة فذهب برأسه وبالدَّرَقَةِ، قال: فتغير وجه أبي عبد الله وقال: ليته لا يكون استدراجًا.

وقال له يومًا: إنّي لأرجو أن يكون يُدعى لك في جميع الأمصار، فقال: يا أبا بكر، إذا عرف الرجلُ نفسه فما ينفعه كلام النّاس.

وقال له رجلٌ جاء من خراسان: الحمدُ لله الذي رأيتُكَ، قال: اقعُد، أيُّ شيءٍ ذا؟ مَن أنا؟

وقال رجل: رأيتُ أثر الغَمِّ في وجه أبي عبد الله، وقد أثنى عليه شخص، وقيل له: جزاك الله عن الإسلام خيرًا، قال: بل جزى الله الإسلامَ عني خيرًا. من أنا وماَ أنا؟![1].

فهذه بعض الأمثلة على هضم السلف الصالح لأنفسهم، ولا يُوفَّق لهذا إلا مَنِ امْتَنّ الله عليه، واصطفاه إليه، اللَّهُمَّ اجعلنا منهم.

ولقد وصل هؤلاء الأئمة وغيرهم إلى منزلة فوق منزلة التواضع،

---

(١) يُنظر لهذه الآثار وغيرها إلى: حياة السلف بين القول والعمل: (٤١٧ ـ ٤٢٣)، تاريخ الإسلام للذهبي (٥/ ١٠١٣).

وهي هضم النفس، والتواضع: ألا ترى في نفسك ما يُميّزها عن غيرها لتنزل إليهم، وهضم النفس: أنْ ترى أنّك مقصّرٌ مع الله ومع الناس، وإذا جاء خيرٌ من الناس رأيته تفضّلًا منهم، وإذا جاءك ما تكره رأيت أنّك السبب في ذلك، كما قال بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا رأيت من هو أكبر منك، فقل: هذا سبقني بالإيمان، والعمل الصالح، فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: سبقتُه إلى الذنوب والمعاصي، فهو خير مني، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظّمونك فقل: هذا فضلٌ أُخِذوا به، وإذا رأيت منهم تقصيرًا، فقل: هذا ذنْب أحدثتُه(١).

۞ ۞ ۞

(١) صفة الصفوة (٣/ ١٧٥)، موسوعة ابن أبي الدنيا (٧/ ٥٢٧).

لطيفة

لَأنْ تستفيد من شيخك كيفية الوصول للمعلومة، ومعرفة طرق البحث: خير لك وأنفع من آلاف الفوائد التي تأخذها منه جاهزة دون كلفة وعناء.

وقد قيل: لأن أُعلّمك صيدَ السمك خيرٌ لك من أنْ أُعطيك كلّ يوم سمكة.

«والبحث والترجيح من أهم ما ينبغي على طالب العلم أن يعتني به؛ وذلك لأن فيه فوائد ومنافع كثيرةً جدًّا، **منها**:

أولًا: أنه أفضل طريقٍ لنيل العلم وتأصيله، فإذا مرَّتْ بك مسألةٌ أو حكمٌ فقم بالبحث عن أدلته وبراهينه، واسْتنبط الحكم بنفسك، ودقّق ونقّح ورجّح، ثم اعرضه على شيخك أو أحد العلماء أو طلاب العلم، فستخرج بفائدة عظيمة.

ثانيًا: أنه يُؤدي إلى الحرص والحماس والنشاط، والشعور بالراحة والرضى في سيرك العلمي.

ثالثًا: أنه يوصل إلى القناعة التامة لما توصلت إليه، وإفتاء الناس بمسائل توصلت إلى نتائجها بعد معرفتك بالأدلة والحجج.

ولا يُمكن أن يصل طالب العلم إلى مرحلة الإفتاء إلا بكثر البحوث والتحقيقات، التي من خلالها يتوصل إلى الحكم بدليله»[١].

(١) آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه للمؤلف (ص١١٢).

فإذا أغلق طالب العلم جانب البحث والنظر في الأدلة: حرم نفسه كنوز المعرفة والعلم والتّوفيق.



١٧ ـ [من أراد من العمال أن ينظر قدره عند السلطان: فلينظر ماذا يوليه][١].

السلطان أو الرئيس إذا ولَّى أحدًا من رعيّته أو مُوظفيه أعلى المناصب: فهو دليل على عظم شأنه عنده، وعلو قدره عنده، وقربه منه، وحبه له، وثقته به.

فكذلك طلاب العلم، والدعاة إلى الله، والأئمة والمؤذنون، فما ولَّاهمُ الله تعالى هذه المناصب الشريفة إلا لعلو قدرهم عنده.

فالواجب عليهم أنْ يكونوا على قدر المسؤوليّة.

وأخصُّ الناس عند الملوك والسلاطين، وأعلاهم عندهم قدرًا، وأقربهم منهم منزلًا: من ولَّوه توقيع قراراتهم وخطاباتهم، فلولا ثقتهم به لَمَا ولَّوه هذا المنصب الخطير، الناطق باسمهم.

فكذلك قدر العالم عند الله تعالى، الموقِّع عنه، المفتي بشرعه، إذا قام بذلك بتقوى الله وتتبُّع رضاه، واجتهد وبَذَل غايةَ وُسعِه في تحرّي الصواب.

فهذه العبارة هزت قلبي، وأيقظته من رقدته، وأعلت همته، وزادتُه حبًّا في الله سبحانه وتعالى.

۞ ۞ ۞

(١) بدائع الفوائد لابن القيِّم (٣/ ١١٧٦).

لطيفة

حريٌ بطالب العلم والعالِم أنْ يتحلّى بالأخلاقِ الحسنة، فهو محطُّ أنظارِ العامّةِ والخاصّة، ولكن وللأسف تجد أخلاق بعض المنتسبين إلى العلم كأخلاق الجهال.

وأخلاق بعض العوام كأخلاق العلماء والحكماء.

وخير الناس من جمع العلم وحسن الخلق.

وشرهم: سيء الأخلاق الجاهل.



١٨ ـ [(ليحذر العبد) أَنْ يُمَازِجَ الْعُبُودِيَّةَ حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ عَوَائِدِ النَّفْسِ تَكُونُ مُنَفِّذَةً لَهَا، مُعِينَةً عَلَيْهَا، وَصَاحِبُهَا يَعْتَقِدُهَا قُرْبَةً وَطَاعَةً، كَمَنِ اعْتَادَ الصَّوْمَ ـ مَثَلًا ـ وَتَمَرَّنَ عَلَيْهِ، فَأَلِفَتْهُ النَّفْسُ، وَصَارَ لَهَا عَادَةً تَتَقَاضَاهَا أَشَدَّ اقْتِضَاءٍ، فَيَظُنُّ أَنَّ هَذَا التَّقَاضِيَ مَحْضُ الْعُبُودِيَّةِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَقَاضِي الْعَادَةِ.

وَعَلَامَةُ هَذَا: أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ عَلَيْهَا طَاعَةً دُونَ ذَلِكَ، وَأَيْسَرَ مِنْهُ، وَأَتَمَّ مَصْلَحَةً لَمْ تُؤْثِرْهَا إِيثَارَهَا لِمَا اعْتَادَتْهُ وَأَلِفَتْهُ، كَمَا حُكِيَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ قَالَ: حَجَجْتُ كَذَا وَكَذَا حَجَّةً عَلَى التَّجْرِيدِ، فَبَانَ لِي أَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ كَانَ مَشُوبًا بِحَظِّي؛ وَذَلِكَ أَنَّ وَالِدَتِي سَأَلَتْنِي أَنْ أَسْتَقِيَ لَهَا جَرْعَةَ مَاءٍ فَثَقُلَ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِي، فَعَلِمْتُ أَنَّ مُطَاوَعَةَ نَفْسِي فِي الْحَجَّاتِ كَانَ بِحَظِّ نَفْسِي وَإِرَادَتِهَا؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ نَفْسِي فَانِيَةً لَمْ يَصْعُبْ عَلَيْهَا مَا هُوَ حَقٌّ فِي الشَّرْعِ][(١)].

كم وقع الكثير منا في هذه الحيلة الشيطانية وهو لا يشعر، فيُزاول أعمال صالحة يظنها لله محضة، ولو فتش عنها وعن حظوظ النفس فيها لعلم أنها لم تكن خالصةً لله تمامًا.

وأضرب لذلك أمثلة:

١ ـ بعض الناس حُبب إليه الحج، فأصبح يحج كل عام، فاعتاد على ذلك، ولو طُولب بعمل أيسر وأعظم مصلحة وقت الحج وقبل أن

(١) مدارج السالكين (٢/ ٩٩).
ما بين القوسين من تصرفي.

يحج: لرفض ذلك، وتعذر بانشغاله بالحج، والأعظم والأدهى: إذا كان إنما يخشى من تركه إحدى السنوات ألا يقال عنه: فلان ما ترك الحج منذ كذا وكذا سنة، وهذه أمراض كامنة في نفوس بعض الناس، لا تخرج ولا يعلم عنها إلا بمنقاش العلم والهدى، الطارد لسموم الجهل والهوى.

٢ ـ بعض طلاب العلم أَلِفُوا العلم والنقاش والبحث في المسائل، وقراءة الكتب، وحضور الدروس، فلا يُؤثرون على ذلك شيئًا ولو كان أهم وأيسر وأعظم مصلحة.

وإذا طولب طالب العلم أن ينفع الناس بكلمة، رفض وتعلل بالعلم.

أو تهيأ له عالم أعلم من شيخه الذي يحضر عنده، أو رأى في قرارة نفسه أن ترك الحضور للشيخ أنفع له وأدعى لتفرغه لما هو أنفع: امتنع من ذلك للعادة التي اعتاد عليها لسنوات طويلة، أو مراعاة لخواطر شيخه أو أقرانه.

ومراعاة الخواطر خلق جميل، ولكن ليس على حساب الدين والرقي في العلم.

٣ ـ بعض الدعاة قد يذهب للدعوة ويتكبد المشاق، فإذا جاء العشر الأخيرة من رمضان لم يعتكف ولا يومًا، مع أن الاعتكاف في هذه الأيام أفضل من الدعوة إلى الله.

والقاعدة التي يعرف بها أن عبادته خالصة لله أو مشوبة بحكم عوائد النفس وحظوظها: أنه إذا عرض عليها طاعة دون ذلك وأيسر منه وأتم مصلحة: لم تؤثرها إيثارها لما اعتادته وألِفَتْه.

❁ ❁ ❁

لطيفة

من أعظم أسباب الثبات على الحق والهدى: الجمع بين العلم والإيمان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُؤْتَى إِيمَانًا مَعَ نَقْصِ عِلْمِهِ، فَمِثْلُ هَذَا الْإِيمَانِ قَدْ يُرْفَعُ مِنْ صَدْرِهِ[(١)].

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ الْعِلْمَ مَعَ الْإِيمَانِ فَهَذَا لَا يُرْفَعُ مِنْ صَدْرِهِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَرْتَدُّ عَنْ الْإِسْلَامِ قَطُّ، بِخِلَافِ مُجَرَّدِ الْقُرْآنِ أَوْ مُجَرَّدِ الْإِيمَانِ فَإِنَّ هَذَا قَدْ يَرْتَفِعُ، فَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ.

لَكِنْ أَكْثَرُ مَا نَجِدُ الرِّدَّةَ فِيمَنْ عِنْدَهُ قُرْآنٌ بِلَا عِلْمٍ وَإِيمَانٍ، أَوْ مَنْ عِنْدَهُ إِيمَانٌ بِلَا عِلْمٍ وَقُرْآنٍ.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ فَحَصَلَ فِيهِ الْعِلْمُ فَهَذَا لَا يُرْفَعُ مِنْ صَدْرِهِ»[(٢)].



(١) وذلك لأن الإيمان والصلاح لا يكفي لثبات الإنسان؛ بل لا بد من العلم الشرعي المؤصل، وقد رأينا بعضَ أهل الصلاح والاستقامة انتكس ولا حول ولا قوة إلَّا بالله، ولم نر عالِمًا أو طالب علم متمكن انتكس وتراجع والحمد لله.

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ٣٠٥).

١٩ ـ [إذا أَشْكَل على الناظر أو السالك حكمُ شيءٍ: هل هو الإباحة أو التحريم؟ فلْيَنْظر إلى مفسدته وثمرته وغايته: فإنْ كان مشتملًا على مفسدةٍ راجحةٍ ظاهرة: فإنه يستحيل على الشارع الأمرُ به أو إباحتُه؛ بل العلم بتحريمه مِن شرعه: قطعيّ][(١)].

كم كان لله تعالى ثم لهذه القاعدة الشريفة العظيمة المطردة من فضل في حفظي من مزالق شيطانية، واجتهادات خاطئة، حيث قرأت هذه العبارة وأنا في أوائل طلبي للعلم، وكان حينها بعض الطوائف البدعية ـ وخاصة توجّه تنظيم القاعدة ـ: ينشط ويدور النقاش حوله بين بعض الغيورين والأصحاب وبعض طلاب العلم، فكان الدعاةُ إلى هذا التّوجه حريصين على جرّ شبابنا إلى هذه البدعةِ العمياءِ، وهي الخروجُ على ولاة الأمر، وتكفيرُ الحكام ورجال الأمن، والقيامُ بأعمالِ التخريب والقتل باسم الجهاد، فكنت أناقش بعض المنخدعين بهذا التوجّه لأصل إلى الحق، فيُثيرون عليّ شبهًا وحججًا كثيرة، فكنت أضع هذه القاعدة أمام ناظريّ، ونصب عيني، فآخذ أقوالهم وأزنها بهذا الميزان الدقيق: فيظهر لي جليًّا فساد هذا التّوجه، وضلال هذا الطريق؛ إذ هو يؤول إلى الخراب والفساد والقتل والتفرق ونبذ الجماعة.

فخذ ـ أخي القارئ ـ هذه القاعدة واجعلها ميزانًا لكلِّ قولٍ واجتهادٍ لم تعرف الراجح فيه.

۞ ۞ ۞

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٩٣).

لطيفة

كما أنَّ حاسة الذوقِ إذا عودتها على تقبّل شرب المر أو الحلو اسْتساغتْه واعتادتْ عليه، فكذلك إذا عودت لسانَك الطيب أو الرديء من الكلام اعتاد عليه.

فعوِّدْ لسانك أطيب الكلام وأحسنه، وألْينه وأرفقه.

وعوّد قلبَك العفو والتسامح والتغافل.

وعوّد طَرْفَك عدم النظر إلى ما لا يعني.

وعوّد أذنك سماعَ الكلام الطيب النافع، والبعدَ عن سماع الكلام البذيء والتجسُّسِ والغيبة والنميمة.



٢٠ ـ [يا من هو من جملة عسكر الرسول أيحسن بك كل يوم هزيمة؟!][(١)].

إنه لا يليق بمن يُؤمن بأنّ اللهَ تعالى ربُّه، ومحمدًّا ﷺ قائدُه، ودينَ الأنبياء جميعًا منهجُه: أنْ ينهزم المرة تلو الأخرى أمام عسكر الشيطان، وينكسر المرات العديدة أمام نفسِه الأمّارة بالسوء.

أترضى بالهزائم المتتالية وأنت من جملة عسكر الرسول؟ أما عندك حميّةٌ إيمانية مُحمّدية تستنهض همتك لتنتصر على نفسك والشيطان؟

إنه لا يليق بالمؤمن الذي هذه مكانته أن يستسلم لهواه، ويخور أمام وساوس شيطانه الحقير العاصي لربّه، والكاره لنبيّك ﷺ والمحاربِ لدينِه.

وقد قالَ الله تعالى مُعاتِبًا ومُوَبِّخًا لِمَنِ اتَّبَعهُ وأطاعَهُ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ٥٠]؛ أيْ: بَدلًا عَنِّي، وأنا الذي خلقتكم ورزقتكم، وإليَّ تُرجعون فأجازيكم، ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف: ٥٠]؛ أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان، الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمٰن، الذي كلّ السعادة والفلاح والسرور في ولايته.

وافتخرْ بدينك، وتباهَ بنبيِّك، واحتمِ بربك، ولا تستسلم ولا تجبن، واعزم على فعل كل فضيلة، وترك كلّ رذيلة، وانظر إلى معالِ الأمور فاسلكها، وابحث عن أسباب القوة فاتخذها.

فإن شئت وَصْلَ القومِ فاسلُكْ سبيلهم   فقد وَضَحَتْ للسَّالكين عَيانًا

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١٧٧).

لطيفة

قد تستغرب من أنّ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ لَه عَشَرَةُ أَمْثَالِ الدُّنْيَا، ولكن إذا علمت أنّ مجرتنا وحدها تحمل أكثر من ٣٠٠ مليار نجم، وطول قطرها ما يُعادل ٧٠ ألف مليار كوكب أرض متراصة على خط واحد، وفي الكون آلاف المجرات؛ بل ذهب بعض الفلكيين إلى أنّ أعداد النجوم والمجرات في الكون، كعدد حبات الرمال في الأرض، وكل هذه المجرات في السماء الدنيا فقط، قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصَّافات: ٦].

فكيف بالسمٰوات الأخرى!

فلك أنْ تتخيل مدى اتساع الجنة وعظمتها وكِبرها، وإذا كانت السموات السبع بأفلاكها ونجومها وكواكبها والأرضين السبع كلها هي عرض الجنة، فكيف بطولِها وارْتفاعِها؟

وإذا كان آخر مَن يدخل الجنة هذا نعيمه وملكه، وهو الموّحد الذي قد أفرط في الدنيا في المعاصي والذنوب والتقصير، فكيف بأصحاب اليمين والسابقين؟ ما هو ملكهم، وما هو نعيمهم؟

وأَهْلُ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كما نرى نحن الكواكب والنجوم، التي تبعد عنا ملايين الأميال.

قال ﷺ: «**إنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ**».

قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «**بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ**»[(١)].

والتنقل بين أهل الجنة يسير، وما إن يرغب أحدٌ بزيارة أحد حتى يكون عنده بلا عناء ولا طول انتظار.

۞ ۞ ۞

(١) رواه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

٢١ ـ [عندما تقرأ الفاتحة فأنت تُناجي الله، وإذا كنت تُفكر وأنت تقرأ الفاتحة فأنت تُناجي ما تُفكر فيه.
إنّ الإنسان ليخجل أن يكون يُناجي الله ﷻ وهو يُناجي المخلوق !][١].

كم ترددت هذه العبارة في ذهني كثيرًا، وخاصة حينما أهم في الشروع في الصلاة، ورأيت تغيّرًا ملحوظًا في صلاتي، فكلما بدأت بالتفكير أو بدأ ذهني بالشرود: أذكر هذه العبارة فأستحي من الله تعالى، وأجُلّه أنْ أفكر بغيره وأنا واقف بين يديه.

وشرود الذهن حال العمل دليلٌ على عدم كمال الرغبة والمحبة له، فمن كثر شرود ذهنه في صلاته فلْيبحث عن الأسباب التي تُساعده على تقوية محبته لصلاته ولقاء ربّه.

وما أجمل كلامًا للعلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ قال فيه: **الناس في الصلاة على مراتب خمسة:**

أحدها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع

---

(١) «العلَّامة محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ» في أحد أشرطته.

الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها واستغرق قلبُه [في] مراعاةِ حدودها وحقوقها؛ لئلا يضيع شيئًا منها؛ بل همُّه كلُّه مصروفٌ إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قلبُه شأنَ الصلاة وعبوديةَ ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامس: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه ﷻ ناظرًا بقلبه إليه، مراقبًا له ممتلئًا من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه ﷻ قرير العين به.

فالقسم الأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مُكَفَّرٌ عنه، والرابع مثاب، والخامس مُقَرَّبٌ من ربه؛ لأن له نصيبًا ممن جُعلت قرة عينه في الصلاة.

فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه ﷻ في الآخرة، وقرت عينه أيضًا به في الدنيا، ومن قرت عينه بالله قرت به كلُّ عين، ومن لم تقر عينُه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. اهـ[(١)].

۞ ۞ ۞

---

(١) الوابل الصيب (ص٢٣ ـ ٢٤).
يُنظر في تفصيلِ أسباب الخشوع في الصلاة إلى كتاب: بَوَّابَةُ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ، للمؤلف.

لطيفة

قال بعضهم[١]: «دع العمل وأنت تحبُّه».

إذا تركت العمل وأنت تُحبه اشتقت إليه، وضمنت عدمَ الملال والسآمة، ودوامَ العمل.

ويُقال كذلك في كل شيء، فإذا تكلمت فاترك الحديث وأنت تُحب أن تتكلم، وإذا جلست مع أحد فقم وأنت تحب الجلوس معه، وإذا قرأت فاترك القراءة وأنت تُحب إكمالها، وإذا اشتغلت بالعبادة كقيام الليل فدعها وأنت تُحب الاستمرار، واشتغل بعبادة الاستغفار في الأسحار أو قراءة القرآن مثلًا، وهكذا.



(١) البيان والتبيين (ص٤٩٥).

٢٢ ـ [كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ مَأْمُورٌ بِشُهُودِ الْقَدَرِ وَتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ: فَهُوَ مَأْمُورٌ بِذَلِكَ عِنْدَمَا يُنْعِمُ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ، فَيَشْهَدُ قَبْلَ فِعْلِهَا حَاجَتَهُ وَفَقْرَهُ إِلَى إِعَانَةِ اللهِ لَهُ، وَتَحَقُّقِ قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥].
فَشُهُودُ الْقَدَرِ فِي الطَّاعَاتِ مِنْ أَنْفَعِ الْأُمُورِ لِلْعَبْدِ، وَغَيْبَتُهُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَضَرِّ الْأُمُورِ بِهِ](١).

عبارةٌ مثل هذه كفيلةٌ بأنْ تختلج إلى القلب فتطرد أيّ ذرةٍ من عجب ومنَّةٍ وغرور، وتحل محلها التواضع ونسبة المعروف والخير والحسنات إلى مقدرها وخالقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فكما أنّ المسلم ينسب ما يجري له من المصائب إلى قَدَر الله ومشيئته، فيرضى ويُسلم: فكذلك الواجب عليه أنْ ينسب ما يفعله من الطاعات والأعمال الصالحة إلى مشيئة الله وفضلِه وقَدَره، حتى لا يُصاب بالغرور والعجب والاتكال على العمل.

ويَدْعُو بالْأدْعِيةِ الّتي فيها طلبُ إعانةِ اللهِ لهُ على فعْلِ الطَّاعاتِ؛ كقَوْلهِ: «أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِك وَشُكْرِك وَحُسْنِ عِبَادَتِك»، ويتبرأ من حوله وقوته دائمًا.

واعلم «أنَّ كلَّ طاعة رضيتها منك فهي عليك، وإنك أنْ تبيت نائمًا وتصبح نادمًا خيرٌ مِن أنْ تبيت قائمًا وتصبح معجبًا، واستكثار الطاعة

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٨/ ٣٣٠).

ذنب، وكلما صغرت الحسنات في عينك كبرت عند الله، وكلما كبرت وعظمت في قلبك صغرت عند الله»[١].

۞ ۞ ۞

(١) ما بين القوسين من كلام ابن القيِّم في عدة مواضع من كتابه: مدارج السالكين.

لطيفة

إذا اتسع علمك، وتنوعت قراءاتك النافعة: هجرت كثيرًا من السلبيات في طباعك، وعاداتك، وتصوراتك، وآرائك، التي كانت مسلمة عندك، وأنت مقيد بها، أسير لها.

فكم للعلم من بركات على صاحبه المخلص الصادق.



٢٣ ـ [قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحسِنُ].

يا لها من حكمة عظيمة، حتى قال عنها الأديبُ الجاحظُ في كتابه «البيانِ والتبيين»[١] ـ الذي جمع فيه الحكمَ والبلاغةَ والفصاحة، من العصر الجاهليّ، إلى عصرِه ـ: «لو لم نَقِفْ من هذا الكتاب، إلَّا على هذه الكلمة، لوجدناها شافية كافية، ومجْزِيةً مُغْنِيةً؛ بل لَوَجدناها فاضلةً عن الكِفاية، غيرَ مقصِّرةٍ عن الغاية».

وقال عنها الحافظ ابنُ عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «هي مِنَ الكلام العجيبِ الخطير، وقد طار الناسُ إليها كلَّ مطير»[٢].

وهذه الحكمةُ البليغةُ تعني أنَّ قيمةَ المرء ومنزلتَه **بأمرين هامَّيْن**:

الأمر الأول: أنْ يعمَل بجدٍّ وإخلاص، فيما يُحسنه ويُتْقنه من عِلْمٍ وعَملٍ.

الأمر الثاني: ألا يخوضَ ويَعمل ويتكلَّم، بغير ما يُحسنه ويُتْقنه.

فقيمةُ ومكانةُ كلِّ واحد، فيما يُجيدُه ويُتْقنه من عِلْمٍ وعَملٍ، فإذا أخلَّ بما يُحْسنه ويُجيْدُه، أو عمل بغير ما يُحسنه ويُتْقنه، وخاض بغير تخصُّصه ومجاله: ذهبت قيمته ومكانته، وسقط من أعيُن الناس، وصار مُعَرَّضًا لطعنهم واتِّهامِهم له، وأفْسَدَ فسادًا عظيمًا.

فأما الأمرُ الأول: وهو أنْ يعمَل بجدٍّ وإخلاص وإتقان، فما أجملَ أنْ تقوم أيُّها الْمُؤمن بعملك ووظيفتك، بأمانةٍ ونصحٍ واجْتهاد، فحينها

---

(١) (ص٦١).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر ابن عبد البر، تحقيق: أبو عبد الرحمٰن فواز أحمد (١/ ١٩٨).

تَعْظم قِيْمتُك وهمَّتُك، وتنالُ ثقةَ الناس ومحبَّتَهُم. وتَحْظى بالأجر الجزيل عند الله تعالى.

قَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَزَّ، يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ**»[(١)].

فإتْقَانُ العَمَلِ علامةٌ على مَحَبَّةِ الله، وما أعظمها من ثمرةٍ وفائدةٍ للإخلاص في العمل.

فقيمةُ المعلم والأستاذ: تعليمُه وتربيتُه للطلاب، بإخلاصٍ وصدقٍ وجدّ، فإذا أخلَّ بعمله وقصَّر فيه، سقطت قيمتُه ومنزلتُه عند الله وخلقه.

وقيمةُ الْمَسْؤول والْمُوظف: خِدْمتُه للمواطنين والمراجعين، بإخلاصٍ وأمانةٍ وإتْقان، دون مُحاباةٍ ورشاوٍ وتَمْييْزٍ، فإذا أخلَّ بعمله وقصَّر فيه، سقطت قيمتُه ومنزلتُه عند الله وعند خَلْقه.

وقيمةُ العالم في نشره لعلمه، بتواضعٍ وبشاشةٍ ورفق، وأنْ لا يخاف في الله لومةَ لائم، فإذا كتم العلمَ خوفًا ومداهنة، أو كان سيِّءَ الخلُقِ عابسَ الوجه، سقطت قيمتُه ومهابته ونفعه.

وأما الأمرُ الثاني: ألا يَعمل بغير ما يُحسنه ويُتْقنه، ويَكِلُ ما لا يُحْسنه لمن يُحسنه.

وهذه قاعدةٌ نبويّة، قام بتأسِيْسِها وتأصِيْلِها نبيّنا محمدٌ ﷺ، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ، مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ: «**لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ**». قَالَ: فَلَمْ يُلقِّحوا عَامَئِذٍ، فَخَرَجَ شِيصًا؛ أي: تمرًا رديئًا، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: «**مَا لِنَخْلِكُمْ**». قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، فقالَ: «**أَنْتُمْ**

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٩٣١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١١٣).

أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ». رواه مسلم[(١)].

والمعنى: أنتم أعلم بأمر دنياكم مني، وأنا أعلم بأمر آخرتكم منكم.

وفي روايةٍ للإمام أحمد[(٢)]: «**إِذَا كَانَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَشَأْنَكُمْ بِهِ، وَإِذَا كَانَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ**».

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم، يسيرون على هذا المنهجِ القويم، والصراطِ المستقيم، فقد كانوا رضي الله عنهم، متباينين في الطاقات والقدرات، وكلٌّ أخذ بالعمل الذي يحسنه، وتركَ ما لا يُحسنه ويُتْقنه، فخالدٌ سيف الله المسلول، يُحسن القتال والجهاد، لكنَّه في العلم والفتوى قليلُ الزاد، فكرَّس عمله في الجهاد وأتقنَه، وترك الفتوى والجلوسَ للحديثِ لغيره.

وهذا حسانُ بن ثابتٍ رضي الله عنه، يُحسنُ ويُتْقنُ قول الأشعار، ولا يُحسن القتال والإفْتاء، فأتقن ما يُحسنه وترك ما لا يُحسنه.

وهذا أبو ذرٍّ رضي الله عنه، من أكبر الْمُؤَثِّرِيْن في الدعوة إلى الله، حتى أسلمت جُلُّ غِفارٍ على يديه، ومع ذلك لا يصلح للإمارة والرئاسة، كما أخبره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

فقيمتك في الحياة الذي تحسنه، وميزانك في الحياة الذي تجيده، فاحْذرْ أشدَّ الحذر، أنْ تخوضَ في شيء لا تُحْسنه ولا تجيدُه، فتسْقُطُ قيمتُك وثقتُك أمام الناس، وأعظمُ من ذلك، أنْ تسقط قيمتك عند الله تعالى، إذا كان خوضُك في أمور الدين والشرع.

فقيمةُ العالمِ عِلْمُهُ الذي يُحْسنه، ولو خاض بغيرِ ما يُحسنه لأفسد وكرهه الناس.

---

(١) (٦٢٧٧).

(٢) (٢٤٩٢٠).

وقيمةُ الشاعرِ قولُه للشِّعْرَ الذي يُحْسنه، ولو خاض بغيرِ ما يُحسنه لجاء بالفساد.

وقيمةُ التاجر إحسانُه وبذله لمالِه.

ويُقال كذلك في حقّ الطبيب والمهندس وغيرِهم.

وإذا طبَّق هذا المنهجَ الفردُ والْمُجتمع، واقْتصروا على تخصُّصهم ومَجَالهم، واحْترم كلٌّ واحدٍ منهم تخصُّصَ الآخر، لسار الْمُجتَمعُ بأحسنِ حال، وحالفهم التَّوفِيقُ والسداد، في دينهم ودنياهم.

وكم رأينا مِنْ قُرَّاءٍ للقرْآن، وُضع لهم القَبولُ بين الأنام، لكنَّهم تجرَّؤوا على العلم والفتوى، وهم لم يُحْسنوا العلم ولم يتمكَّنوا منه، فجاؤوا بالطَّوامِّ الكبيرة، والأخطاءِ الكثيرة، وأتوا بفتاوى غريبة، وأقوالٍ شاذة، فسقطت مكانتُهم بين الناس، وأصْبحوا محطَّ سُخْريةٍ واسْتهزاء، بعد أنْ كانوا نُجومًا في السماء.

وبعضُهم تخصَّص في علم النفس والتربية، والآخر تخصَّص في علم الدَّعوةِ والإلقاء، فأحسنوا في مجالهم وتخصُّصهم، فنفعوا وأحسنوا، لكنَّ المصيبة والكارثة، حينما اقْتحموا مجالًا ليس بمجالهم، وخاضوا في الشريعة بعقولهم، وتحليلاتهم وتخميناتهم، فألْصقوا بالدين ما ليس منه، وجاؤا بتحليلاتٍ فاسدةٍ خاطئة، فسقطت مكانتهم عند الكثير من الناس، وقلَّ انْتفاعُ الناس بهم.

وصدق الحافظ ابن حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: «إِذَا تَكَلَّمَ الْمَرْء فِي غَيْر فَنّه أَتَى بالْعَجَائِب»[1].

(١) الفتح (٣/ ٧٣٩).

لطيفة

الأبواب التي منها يدخل الناسُ النَّارَ **ستّة**:

١ ـ بَاب شُبْهَة أورثت شكًّا فِي دين الله.

٢ ـ وَبَاب شَهْوَة أورثت تَقْدِيم الْهوى على طَاعَته ومرضاته.

٣ ـ وَبَاب غضبٍ أورث الْعدوان على خلقه.

٤ ـ وباب حرصٍ أورث الطمع فيما عند الناس، والاستيلاء على أموالهم ولو بالباطل.

٥ ـ وباب حسدٍ أورث التَّسَخُّط على ما عند الإنسان، والبغي على ما عند غيرِه.

٦ ـ وَبَاب كبرٍ وعُجْبٍ أورث ردّ الحقّ واحتقار الناس.

فمن أغلق هذه الأبواب السِّتَّة ولم يفتحها: أفلح ونجا، وسلم له دينُه وعرضُه وقلبُه، وسعد في الدارين.



٢٤ ـ [الصَّوَاب أَن يحمد من حَال كل قوم مَا حَمده الله وَرَسُوله كَمَا جَاءَ بِهِ الْكتاب وَالسُّنَّة، ويذم من حَال كل قوم مَا ذمه الله وَرَسُوله كَمَا جَاءَ بِهِ الْكتاب وَالسُّنَّة](١).

إنَّ مِن الأخطاء التي انتشرت وعمَّت: التعصبَ للجماعات، والانتماءَ إليها انتماءً كلِّيًّا، وجعلَها معيارًا للولاء والمحبة.

وأغلبُ الجماعاتِ تتعصب لمنهجها، وتذمُّ الجماعات الأخرى، فكأنها هي التي على الحق، وغيرُها على الباطل.

والله تعالى جعل الميزان في المحبة والبغض: الإيمان والدين، دون الانتماء لجماعاتٍ مُعيَّنةٍ.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [التّوبَة: ٧١].

هذا هو المعيار الدقيق في المحبة والولاء، وهذا هو الضابط في التحزُّبِ والانتماء، فمن كان مؤمِنًا صالحًا، فيجب أنْ نُحبَّه ونواليَه، مهما كان انْتماؤه ووطنه، لا نسأله ونمتحنه عن جماعته وانْتمائه، ولا نُبدِّعه لمجرَّد محبَّته لفلانٍ وفلان.

ولا ينبغي للمسلم أنْ يتعصَّب لأيِّ جماعة، ولا ينتمي لأيِّ فرقةٍ، إلا للفرقة الناجية، وهي التي قال عنها النبيُّ ﷺ، حينما ذكر أنَّ أمَّته ستفترق عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا فرقةً وَاحِدَةً، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**».

(١) الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٧١).

فلْينظرْ ما كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابُه، فيقتدي بهم في تعاملهم وأخلاقهم، وعقائدهم وسلوكهم.

وإنَّ الكثير ممَّنْ ينتمون للجماعات أو للأحزاب، إذا ذُكر لهم دليلٌ صحيحٌ من العقل أو النقل، يُخالف ما هم عليه، قاموا بتأويله أو تضعيفه أو ردِّه، وكلُّ هذا من الهوى والعياذ بالله.

ولا يعني النَّهيُ عن التَّعصُّبِ للجماعات والفِرَقِ، أنْ ننبُذَ الفرقَ جميعًا برمَّتها، ونقذفَها بالسبِّ والعيب، ولا نقبلَ أيَّ حقٍّ جاء منها.

بل الواجب علينا: أنْ نأخذَ من كلِّ أحدٍ أحسنَ ما عنده، ونُحاولَ أنْ نُصلح ما وجدناه من خطأٍ بقدر الإمكان.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْبَصِيرُ الصَّادِقُ: يَضْرِبُ فِي كُلِّ غَنِيمَةٍ بِسَهْمٍ، وَيُعَاشِرُ كُلَّ طَائِفَةٍ عَلَى أَحْسَنِ مَا مَعَهَا، وَلَا يَتَحَيَّزُ إِلَى طَائِفَةٍ وَيَنْأَى عَنِ الْأُخْرَى بِالْكُلِّيَّةِ: أَنْ لَا يَكُونَ مَعَهَا شَيْءٌ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذِهِ طَرِيقَةُ الصَّادِقِينَ، وَدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ كَامِنَةٌ فِي النُّفُوسِ».

«سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ قَائِلًا يَقُولُ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، وَآخَرُ يَقُولُ: يَا لَلْأَنْصَارِ! فَقَالَ: **مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟**».

هَذَا، وَهُمَا اسْمَانِ شَرِيفَانِ، سَمَّاهُمُ اللهُ بِهِمَا فِي كِتَابِهِ، فَنَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنْ يَتَدَاعُوا بِـ«الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَعِبَادِ اللهِ»، وَهِيَ الدَّعْوَى الْجَامِعَةُ، بِخِلَافِ الْمُفَرِّقَةِ، كَـ «الْفُلَانِيَّةِ وَالْفُلَانِيَّةِ».

وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ عَنِ السُّنَّةِ؟ فَقَالَ: مَا لَا اسْمَ لَهُ سِوَى السُّنَّةِ.

يَعْنِي: أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ لَيْسَ لَهُمُ اسْمٌ يُنْسَبُونَ إِلَيْهِ سِوَاهَا.

فَمِنَ النَّاسِ: مَنْ يَتَقَيَّدُ بِلِبَاسٍ لَا يَلْبَسُ غَيْرَهُ، أَوْ بِزِيٍّ وَهَيْئَةٍ لَا

يَخْرُجُ عَنْهُمَا، أَوْ عِبَادَةٍ مُعَيَّنَةٍ لَا يَتَعَبَّدُ بِغَيْرِهَا، وَإِنْ كَانَتْ أَعْلَى مِنْهَا، أَوْ شَيْخٍ مُعَيَّنٍ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مِنْهُ، فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مَحْجُوبُونَ عَنِ الظَّفَرِ بِالْمَطْلُوبِ الْأَعْلَى، مَصْدُودُونَ عَنْهُ، قَدْ قَيَّدَتْهُمُ الْعَوَائِدُ وَالِاصْطِلَاحَاتُ عَنْ تَجْرِيدِ الْمُتَابَعَةِ.

وَلَا يَذُوقُ الْعَبْدُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، وَطَعْمَ الصِّدْقِ وَالْيَقِينِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْجَاهِلِيَّةُ كُلُّهَا مِنْ قَلْبِهِ.اهـ[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

ومن العدل فيهم: قبول الحقِّ من أيِّ أحد، سواءٌ من أفرادٍ أو جماعات.

ولما دلَّ الشيطان أبا هريرة ﵁ إلى آية الكرسي، لتكون له حرزًا من الشيطان، وذلك مقابل فكِّه من الأسر، قال له النبي ﷺ: «**صدقك وهو كذوب**». رواه البخاري[(٢)].

فليس هناك أكذب من الشيطان، ومع ذلك قبل منه النبيُّ ﷺ كلامه هذا، وأخبر أنه صادقٌ فيه.

وفي الصحيحين[(٣)] أنَّ امرأتين من اليهود، دخلتا على عائشة ﵂ فَقَالَتَا: إِنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، قالت: فَكَذَّبْتُهُمَا، فأخبرتُ النبي ﷺ بكلامهما فَقَالَ: «**صَدَقَتَا، إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ كُلُّهَا**».

وقد قصَّ الله تعالى علينا ما قالت بلقيس، التي كانت كافرةً

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٥٠ - ٣٥١، ٣/ ١٦٧).
(٢) (٢٣١١).
(٣) البخاري (٦٣٦٦)، ومسلم (٥٨٦).

تعبد الشمس من دون الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النَّمل: ٣٤]، فقال تعالى تصديقًا لقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النَّمل: ٣٤].

وبعض الناس يجد غضاضةً وحرجًا في قبول الحق ممن يُخالفه، ويجد ثِقَلًا في نفسه أنْ يُقر لخصمه بأنه على صواب؛ بل ورُبَّما رَددْنا كلَّ ما يصدر منه، وما يصدر عن الجماعة الفلانية؛ لأننا نراها بدعيَّةً أو مُنحرفة، وهذا من الخلل والنقص، فلا يلزم من كونها كذلك ألا يكون عندها حقٌّ، فليس هناك أضلُّ من الشيطان الرجيم، ومن اليهودِ المنحرفين، ومع ذلك قبل نبيُّنا ﷺ ما قالوه من الحق.

ومع ضلال المرأة التي تعبد وتسجدُ للشمس قَبِلَ ربُّنا ﷻ منها ما قالته من الحق.

فكيف لا يقبل أحدُنا الحقّ والصواب من أناسٍ هم أقلُّ من ذلك.

وهل يُعقل ألا يُوجد حقٌّ وصوابٌ في جماعةٍ تختلف معها وهي تَنْتَسِبُ إلى الإسلام، وقد وُجد الحقُّ والصواب مع أشَرِّ خلق الله؟.

وخذ هذه القاعدة التي تعرف بها: هل أنت متبع لهواك أم لا؟ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّ اتِّبَاعَ الْإِنْسَانِ لِمَا يَهْوَاهُ: هُوَ أَخْذُ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ الَّذِي يُحِبُّهُ، وَرَدُّ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ الَّذِي يُبْغِضُهُ بِلَا هُدًى مِن اللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩]. اهـ[(١)].

۞ ۞ ۞

(١) (١٨٩/٤).

لطيفة

أصحاب الْهِمَمِ والرغبةِ في التميّز مِن طلاب العلم وأهل الخير والصلاح، على **قسمين**:

الأول: من صرف رغبته وهمّته فيما ينفع نفسه وأمته، ويُرضي ربه، وذلك بالعلم النافع، والصبر عليه، وهذا الطريق شاقّ وصعب.

ولا يظهرُ نفعُه إلا بعد زمن طويل، ونفعُه يكون أعظم من نفعِ غيره ـ في الأغلب الأعم ـ وأثبت وأدوم، ويسلم صاحبه من التذبذب والتقلب.

وهذا يستغني بالله تعالى وبالعلم الشرعي، ويجد لذلك لذةً وعزًّا وغنىً يُغنيه عن طلب أيّ لذةٍ أخرى، من طلب الشهرة والمال والمدح ونحوها.

فهؤلاء يتحلَّون بثلاث صفات عظيمة:

١ ـ الحكمة ونضج العقل.

٢ ـ الصبر وطول النَّفس.

٣ ـ البحث عن الأكمل والأنفع في العلم والأخلاق.

الثاني: من صرف رغبته وهمّته فيما ينفع نفسه وأمته، ولكنه يستعجل النتائج، ويبحث عن أخصر الطرق لتحقيق ذلك، بلا صبر ولا تروٍّ، وهذا الطريق سهل يسير، وذلك بطلب الشهرة بأي طريق، كالدخول في مواقع التواصل الاجتماعي، والإتيان بالغرائب والمثيرات، والردود ونحوها، أو بالرقية وتفسير الأحلام ونشر ذلك.

وهذا يظهرُ نفعُه عاجلًا، ولكنّ منفعته أقلّ من منفعة غيره ـ في الأغلب الأعم ـ، ولا يسلم صاحبه من التذبذب والتقلب.

فالأول: لا يبحث عن الألقاب والشهادت الدنيوية، بخلاف الثاني، الذي يلهث وراءها.

وقد صدق ابن القيم حين قال: ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ، وبما كان عليه هو وأصحابه: رأى أن أكثر من يشار إليهم بالدين هم أقلُّ الناس دِينًا.اهـ[(١)].

فالمخلصون والصادقون يحذرون من تقصُّدِ الشهرة، ولا يطلبونها؛ بل يُحبون العمل الخفيّ، وحال بعضُ أهل الخير والصلاح وبعض الدعاة اللهث وراء الشهرة بدعاوى عدة؛ كنفع الناس، ونشر الخير، وقد أحدثت هذه المبالغة في الظهور والبروز إلى زعزعةِ الإخلاص، وإظهارِ الأعمال الصالحة وإعلانها، ومحبة كثرة الأتباع والمحبين، وكثرة الزلات والغرائب، وازدراء المشايخ الذين قلّ أتباعُهم ومتابعُوهم في مواقع التواصل؛ نظرًا لقلة بروزهم وظهورهم.



(١) أعلام الموقعين (١/ ٥٠٨).

٢٥ ـ [لا ينبغي أن يُطالَبَ الإنسانُ بما يقوى عليه غيرُه، فيضعف هو عنه؛ فإنَّ الإنسان أعرف بصلاح نفسه][١].

إنها قاعدة شريفة نافعة، تجلب للعامل بها الراحة والقناعة، وهما سرّ الحياة والسعادة.

فلا ينبغي لطالب العلم أنْ يُقارن نفسَه مع غيره كثيرًا، وخاصةً ممَّن أُوتوا سعةً في الحفظ أو الفهم، فإنَّ الله أعطى كلَّ أحدٍ ما لم يُعط الآخر، فمن عنده حفظ وذكاء، قد لا يكون عنده جَلَدٌ في التأليف والتفهيم، وقد لا يكون عنده أسلوبٌ مُؤثر في نشر العلم والدعوة إلى الله تعالى.

فلا ينبغي أنْ يُكلف نفسَه ما لا تُطيق، ويُحاول أنْ يكون مثل فلانٍ وفلان، ممن أُوتوا من القدرات والمواهب ما لم يؤتَ مثلها.

ولا ينبغي لمن أُعطي نشاطًا وحُبًّا في عبادةٍ مُعيّنة؛ كالصيام أو حفظ القرآن وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، أو قيام الليل، أو صلة الرحم، أو الدعوة، أو غيرها من العبادات، أنْ يُطالِب نفسه بما لا يقوى عليه من العبادات الأخرى، والتي لا يجد الرغبة واللذة والإيمان فيها.

ولا يعني ذلك أن يلتزم من العبادات ما يميل إليها ويترك غيرها؛ بل المقصود أنْ تكون العبادة الْمُحبَّبةُ إليه هي التي يُكثر منها.

❁ ❁ ❁

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ (ص٢١٤).

لطيفة

قال أبو العلاء المعري[1]:

والنَّجم تستصغر الأبصار رؤيته   والذَّنب للطَّرف لا للنَّجم في الصِّغرِ

شبه العلماء والعظماء بالنجوم؛ لأنهم هداة للخير، كما أن النجم هادٍ للمسافر وعابر السبيل، قال تعالى عن النجم: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النّحل: ١٦].

فالخلل في نفس المسْتنْقِص للعلماء والكبار لا على المسْتنْقَص.

كما أنَّ العيب في بصر من عاب النجم واستصغره، لا في نفس النجم.



(١) الحماسة المغربية (ص١٢٥).

٢٦ ـ [ما أشدها من حسرة، وأعظمها من غبنة، على مَن أفنى أوقاته في طلب العلم، ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن، ولا باشر قلبَه أسرارُه ومعانيه][(١)].

كم هو من المحزن أن تجد من ملأ أوقاته بالقراءة والمطالعة وحضور الدروس وغيرها، ولا يكون لكتاب الله نصيب من وقته، وحظٌّ من قراءته.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية الذي ملأ الدنيا علمًا ونصحًا وجهادًا، وشغل وقته كلّه بتدبر القرآن والسُّنَّة، والنظر في العلوم الشرعية ليستفيد منها، والعلوم البدعية ليردّ على أصحابها ومُحبيها، لمَّا حبس فِي آخر عمره طلب منه أَحد طلابه أَنْ يكْتب على جَمِيع الْقُرْآن تَفْسِيرًا مُرَتَّبًا على السُّور، فَكتب له تفسير وشرح بعض الْآيَات التي أشكل تَفْسِيرهَا على جمَاعَة من الْعلمَاء، بعد أنْ أطال في تدبرها وتأملها والنظر فيها، ثم قال: قد فتح الله عَليّ فِي هَذِه الْمرة من مَعَاني الْقُرْآن، وَمن أُصُول الْعلم بأَشْيَاء كَانَ كثير من الْعلمَاء يتمنونها، وندمت على تَضْيِيع أَكثر أوقاتي فِي غير مَعَاني الْقُرْآن! .اهـ[(٢)].

فكيف بمن ضيّع أوقاته باللهو والسهر واللعب؟ بل كيف بمن ضيع أوقاته بغيبة العلماء والدعاة والمصلحين، وانشغل بعيوبهم عن عيوبِه؟

نعوذ بالله من الخذلان.

والعلم كلّه في القرآن، فكيف يُطلب العلم من غيرِه؟

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٩٤).

(٢) العقود الدرية (ص٤٣ ـ ٤٤).

قال ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يبتدئ أولًا بكتاب الله فيتقنه حفظًا، ويجتهد على إتقان تفسيره وسائر علومه، فإنه أصل العلوم وأمُّها وأهمّها». اهـ[١].

وهل برز من برز من العلماء الكبار إلا بالقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا؟

وإنّ القرآن لم يُنزل لأجل التلاوة المجردة؛ بل أنزل لحكم عظيمة، ومقاصد نبيلة، وكثير من الناس يتطلب ختم القرآن دون فهمه وتدبره والعمل به، وليس هذا من فعل السلف الصالح، الذين كان همُّهم فهمَ كلام ربهم، والعمل به.

وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النِّسَاء: ٨٢].

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محَمَّد: ٢٤] عَلَى وُجُوبِ التَّدَبُّرِ فِي الْقُرْآنِ لِيُعْرَفَ مَعْنَاهُ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى الْأَمْرِ بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ وَإِبْطَالِ التَّقْلِيدِ»[٢].

فقد أوجب القرطبي تدبر القرآن لظاهر الأمر، وكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية والشوكاني ومحمد رشيد رضا وغيرهم من أهل العلم رحمهم الله[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «آيَاتُهُ سُبْحَانَهُ تُوجِبُ **شَيْئَيْنِ**:

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم (ص٥١).
(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٠).
(٣) فتح القدير (١/ ٥٦٧)، تفسير المنار (٥/ ٢٥٤).

أَحَدُهُمَا: فَهْمَهَا وَتَدَبُّرَهَا لِيُعْلَمَ مَا تَضَمَّنَتْهُ.

وَالثَّانِي: عِبَادَتَهُ وَالْخُضُوعَ لَهُ إِذَا سُمِعَتْ.

فَتِلَاوَتُهُ إِيَّاهَا وَسَمَاعُهَا يُوجِبُ هَذَا وَهَذَا، فَلَو سَمِعَهَا السَّامِعُ وَلَمْ يَفْهَمْهَا كَانَ مَذْمُومًا، وَلَو فَهِمَهَا وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا فِيهَا كَانَ مَذْمُومًا؛ بَل لَا بُدَّ لِكُلِّ أَحَدٍ عِنْدَ سَمَاعِهَا مِن فَهْمِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا. اهـ[1].

وإنّ مَن عَلِم حاجته للقرآن، وفهم كلام الواحد المنان، وعظم قدر ربه في قلبه: فلا بد أن يسعى إلى فهم كلامه، ولو تطلب ذلك قراءة تفسيرٍ أو أكثر.

وأضرب مثالًا للتقريب: لو جاءتك ـ أخي المسلم ـ رسالةٌ مِن رفيعِ القدر والمنصب، وهي بلغةٍ فصيحةٍ، وبلاغةٍ عجيبة، وأُسلوبٍ رفيع، فواجهتكَ كلمات لا تعرفها، والأمرُ متوقف على معرفتها: هل ستمر على الرسالة مرور الكرام؟ أم ستقرأها بشغف لمعرفة مقصود المرسل ومراده؟ وستسعى لمعرفة كل كلمة، ومراده من كلامه وعباراته؟

لا شك أنك ستفعل ذلك، ولله المثل الأعلى، فالله العظيم، ذو العرش الكريم، الذي خلقك ووعدك بلقائه بعد حين، أرسل إليك رسولًا وأنزل معه رسالة لك ولجميع المكلّفين، فكيف يليق بك ألا تفهم كلامه، ولا تنشط إلى معرفة ما يُريده منك، ووالله لو أحببت الله حبًّا عظيمًا، واشتدت حاجتك إليه، أعظم من حاجتك إلى طعامك وشرابك: لَمَا تأخرت في تدبر كلامه، ولَمَا تكاسلت في فهم كتابِه.

ومن الملاحظ أن الآيات الآمرة بالتدبر: إنما نزلت في الكفار أو المنافقين أو ضعفاء الإيمان، وإنما أمرهم بتدبره: لِمَا في القرآن من

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٤٧).

سحر البيان، وبلاغة الكلام، والعبر والمواعظ التي لا يتمالك من وقف عليها إلا أن يُذعن ويخضع ويُسلم.

والمسلم مُطالب بذلك من باب أولى.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «نَدَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَهُ إِلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ تَدَبَّرَهُ أَوْجَبَ لَهُ تَدَبُّرُهُ عِلْمًا ضَرُورِيًّا وَيَقِينًا جَازِمًا: أَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ؛ بَلْ أَحَقُّ كُلَّ الْحَقِّ، وَأَصْدَقُ كُلَّ صِدْقٍ، وَأَنَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ أَصْدَقُ خَلْقِ اللهِ، وَأَبَرُّهُمْ، وَأَكْمَلُهُمْ عِلْمًا وَعَمَلًا، وَمَعْرِفَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمَّد: ٢٤] فَلَوْ رُفِعَتِ الْأَقْفَالُ عَنِ الْقُلُوبِ لَبَاشَرَتْهَا حَقَائِقُ الْقُرْآنِ، وَاسْتَنَارَتْ فِيهَا مَصَابِيحُ الْإِيمَانِ، وَعَلِمَتْ عِلْمًا ضَرُورِيًّا يَكُونُ عِنْدَهَا كَسَائِرِ الْأُمُورِ الْوِجْدَانِيَّةِ ـ مِنَ الْفَرَحِ، وَالْأَلَمِ، وَالْحُبِّ، وَالْخَوْفِ ـ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، تَكَلَّمَ بِهِ حَقًّا، وَبَلَّغَهُ رَسُولُهُ جِبْرِيلُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ»(١).

ومِن عجيبِ القرآن أنك كلما تدبّرتَه وتعلّمتَ معانيه زادك إيمانًا ومعرفةً بالله وحبًّا له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «مِن الْمَعْلُوم أَنَّ كُلَّ كَلَامٍ فَالْمَقْصُودُ مِنْهُ فَهْمُ مَعَانِيهِ دُونَ مُجَرَّدِ أَلْفَاظِهِ، فَالْقُرْآنُ أَوْلَى بِذَلِكَ، وَأَيْضًا: فَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِن الْعِلْمِ؛ كَالطِّبِّ وَالْحِسَابِ وَلَا يستشرحوه، فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللهِ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ، وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؟». اهـ(٢).

وفهم معاني القرآن هو الذي يزيد الإيمان، ويبعث على العمل،

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٣٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٢).

ويُنور القلب ويُصلحه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «دَخَلَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»: تَعْلِيمُ حُرُوفِهِ وَمَعَانِيهِ جَمِيعًا؛ بَلْ تَعَلُّمُ مَعَانِيهِ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَوَّلُ بِتَعْلِيمِ حُرُوفِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَزِيدُ الْإِيمَانَ». اهـ[١].

فالخيريّة في تعليم القرآن: ليست قاصرةً على تعلّم وتعليم حروفه، وتحفيظِه للناس؛ بل تشمل تعلُّم وتعليم معاني القرآن، واسْتنباط الفوائد منه، وتفهيمهم مقاصدَه.

والعلماء حينما يذكرون فضل تلاوة قراءته: يذكرون التدبر معه، قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ النَّوَافِلِ كَثْرَةُ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَسَمَاعُهُ بِتَفَكُّرٍ وَتَدَبُّرٍ وَتَفَهُّمٍ.اهـ[٢].

وقَالَ خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تَقَرَّبْ إِلَى اللهِ مَا اسْتَطَعْتَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ كَلَامِهِ.

وقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ طُهِّرَتْ قُلُوبُكُمْ مَا شَبِعْتُمْ مِنْ كَلَامِ اللهِ».

«وَكَيْفَ يَشْبَعُ الْمُحِبُّ مِنْ كَلَامِ مَحْبُوبِهِ وَهُوَ غَايَةُ مَطْلُوبِهِ؟»[٣]

«فالقلب الطاهر، لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث، لا يشبع من القرآن، ولا يتغذى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى، فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة؛ فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح»[٤].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣/ ٤٠٣).
(٢) جامع العلوم والحكم (ص٣٤٢).
(٣) الجواب الكافي (ص٢٣٦).
(٤) إغاثة اللهفان (١/ ٥٥).

ولن يُعطيك القرآن كنوزه ما لم تُدم النظر فيه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَالْإِنْسَانُ يَقْرَأُ السُّورَةَ مَرَّاتٍ حَتَّى سُورَة الْفَاتِحَةِ، وَيَظْهَرُ لَهُ فِي أَثْنَاءِ الْحَالِ مِنْ مَعَانِيهَا مَا لَمْ يَكُنْ خَطَرَ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، حَتَّى كَأَنَّهَا تِلْكَ السَّاعَةُ نَزَلَتْ، فَيُؤْمِنُ بِتِلْكَ الْمَعَانِي، وَيَزْدَادُ عِلْمُهُ وَعَمَلُهُ، وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي كُلِّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ بِتَدَبُّرٍ، بِخِلَافِ مَنْ قَرَأَهُ مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْهُ، ثُمَّ كُلَّمَا فَعَلَ شَيْئًا مِمَّا أُمِرَ بِهِ اسْتَحْضَرَ أَنَّهُ أُمِرَ بِهِ فَصَدَّقَ الْأَمْرَ، فَحَصَلَ لَهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مِن التَّصْدِيقِ فِي قَلْبِهِ مَا كَانَ غَافِلًا عَنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُكَذِّبًا مُنْكِرًا. اهـ(١).

وهناك خمسةُ أمورٍ تُعين ـ بعون الله ـ على تدبر القرآن وفهمه، ومتى ما راعاها المسلم أثناء تلاوته القرآن: فسيجد للقرآن لذَّةً لم يعهدها من قبل، وسيُغير القرآن من أخلاقِه وإيمانه:

١ ـ الاستشفاء به من أمراض الشبهات والشهوات، ومن الوساوس والقلق والأمراض الحسية والمعنوية.

قال الله عَجَّلَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يُونس: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسرَاء: ٨٢].

وجماع أمراض القلب: أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للمرضين.

«ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٣٧).

الأشياء على ما هي عليه، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن، فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول وأفصحها بيانًا، فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه. فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانًا بقلبه، كما يرى الليل والنهار.

أما شفاؤه لمرض الشهوات: فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده ويرغب عمَّا يضره، فيصير القلب محبا للرشد، مبغضًا للغي»[١].

وقد كان السلف الصالح يفزعون إلى القرآن لعلاج ما يعتريهم من أمراض الشبهات والشهوات، وأمراض حسيَّة ومعنوية.

وإذا أشكل عليهم أمرٌ فزعوا إلى القرآن وبحثوا عما يُزيل الإشكال، فلا يبرحون كتاب الله حتى يجدوه وافيًا كافيًا.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليلُ على سبيل الهدى فيها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٩٤ ـ ٩٦).

[إبراهيم: ١]. اهـ[(١)].

٢ ـ نية العمل به.

بحيث يعقد العزم الأكيد على العمل بكلِّ أمرٍ في القرآن، والكفِّ عن كلِّ نهيٍ فيه.

قال بعض السلف: كم قارئ للقرآن والقرآن يلعنه!

والقرآن حجةٌ لقارئه إن عمل به، وإلا فهو حجة عليه.

وأهل القرآن هم العاملون به، لا الحافظون لحروفه، المفرطون في العمل به، قال ﷺ: «**يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَآلُ عِمْرَانَ، كَأَنَّهُمَا ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**». رواه مسلم[(٢)].

٣ ـ أن تستشعر بأنَّ اللهَ تعالى يُخاطبك به ويعنيك بكلامه، وأنك المقصود في المقام الأول، وهذا يُثير في نفسك الحماس والنشاط للوقوف على أوامر الله لتمتثلها، ونواهيه لتجتنبها.

فاستشعر حين قراءتك للقرآن: أن الله تعالى بعظمته وكبريائه: يخاطبك أنت، وأنك من المعْنِيِّين في أوامره ونواهيه، فتحس بقُرْبِ الله لك، واطِّلاعه عليك، فحينما تقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التّوبَة: ١١٩].

فأنت من المؤمنين، فكأن الله تعالى يقول لك: يا عبدي: اتق الله واحذره، اتّق غضبه وبطشه وانتقامه، فإني عزيز ذو انتقام، وكن يا عبدي مع عبادي الصادقين بأقوالهم وأعمالهم، واحذر الكذب والرياء والنفاق.

فحينها ستجد للقرآن طعمًا لم تعهده من قبل.

---

(١) الرسالة (ص٥٨).
(٢) (ص٨٠٥).

٤ ـ أن تقرأ القرآن وكأنك تسمعه من الله تعالى.

قال بعض السلف: كنت أقرأ القرآن ولا أجد له حلاوة، فقلت لنفسي: اقرئيه كأنك سمعتيه من رسول الله ﷺ، فجاءت حلاوة قليلة، فقلت لنفسي: اقرئيه كأنك سمعتيه من جبريل عليه السلام حين يخبر به النبي ﷺ، قال: فازدادت الحلاوة، ثم قلت لها: اقرئيه كأنك سمعتيه حين تُكُلِّمَ به. قال: فازدادت الحلاوةُ كلُّها(١).

فما أجمل أن تنقُلَ هذه التّجْرِبَةَ إليك، فحينها تجد للقرآن حلاوةً وتأثيرًا.

٥ ـ أنْ تنسجم مع سياقات القرآن، وتعيش معها بفكرك ووجدانك، فإنْ مررت بآية حمدٍ استشعرت النعمة التي أنت فيها، فإذا قلت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢] فانطقها من أعماق قلبك.

وإذا مررت بآية دعاء فلا تقرأها قراءةً مجردة؛ بل اجعل قلبك يدعو كما أن لسانك يدعو، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عِمرَان: ٨].

وإذا مررت بآيةٍ فيها التضرع والافتقار فلْينطقها قلبك مع لسانك، مستشعرًا معنى التضرع والتذلل، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥].

وهكذا في كل موضع من مواضع القرآن.

وإذا كنت في الصلاة فلْتتأمل في معنى كلِّ ركن من أركان الصلاة، وكل ذكر وحمد ودعاء، وسوف ترى للصلاة لذةً وأنسًا لم تعهده من قبل.

(١) الحلية (تهذيبه) (٣/ ٦٩).

ومن فعل ذلك: أنار الله قلبه بالقرآن، وشرح صدره، وشفاه من أمراض الجهل والشهوات والشبهات والوسواس، ونزلت عليه السكينة التي لا تنزل إلا على أولياء الله.

جاء في الصحيحين[(١)] عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ في الليل سُورَةَ الكَهْفِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «**تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالقُرْآنِ**».

بل وتنزل ملائكة الرحمٰن تستمع تلاوة بعض القراء المخلصين العاملين، فهذا أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ رضي الله عنه بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ، إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ[(٢)]، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، قَالَ أُسَيْدٌ: فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ[(٣)]، عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ، إِذْ جَالَتْ فَرَسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟**»، قلت: لَا، قَالَ: «**تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ**»[(٤)].

قال ابن بطال رحمه الله: في هذا الحديث أنَّ الملائكة تُحِبُّ أنْ تسمع القرآن مِن ابنْ آدم، لا سِيَّما قراءةُ المحسنين منهم. اهـ[(٥)].

ولَمَّا كانت الملائكةُ تستمع لأصوات القارئين، والسكينةُ تتنزَّل

---

(١) رواه البخاري (٥٠١١)، ومسلم (٧٩٥).
(٢) أي: وثبتْ واضطربتْ.
(٣) أي: مثل السحابة البيضاء، فيها أمثال المصابيح، وكانت فيها الملائكة ومعها السكينة.
(٤) رواه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٧٩٦).
(٥) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٢٥٤).

عليهم حتى تصلَ إلى قلوبِهم: شعَرَ أهلُ القرآن عند تلاوتِه بغاية الأنس واللذة خاصةً في قيام الليل، حتى إنهم ليتمنَّون في مرضهم أنْ يُشفوا ليذوقوا حلاوة قيام الليل، التي حُرموها طيلةَ مرضهم.

قيل لحسان بن أبي سنان رَحِمَهُ اللَّهُ في مرضه: كيف تجدك؟ قال: بخير إن نجوت من النار، قيل: فما تشتهي؟ قال: ليلةً بعيدةً ما بين الطرفين، أُحيي ما بين طرفيها.

وكان ثابت البناني رَحِمَهُ اللَّهُ يقوم الليل ويقول: ما شيء أجده في قلبي ألذ عندي من قيام الليل.

وقد حدّثني أحدُ طلاب العلم أنّ أباه يقوم ما يُقارب أربع ساعات ويختم عدَّة أجزاءٍ في ليلةٍ واحدة.

ولِأهل القرآن المخلصين حكاياتٌ وأسرارٌ وعبرٌ، وخاصةً في قيام الليل، حيث يجدون للقرآن حلاوةً لا نظير لها، وفي مناجاة الله أنسًا لا مثيل له، وقصصهم وأخبارهم تدل على أنّ أزواجهم من الحور العين تشعر بهم، والملائكة تستمع لتلاواتهم، والأخبار في إيقاظ زوجاتهم والملائكة كثيرة معروفة.

ومن بين هذه القصص: قصةُ أحد السلف الصالح الذي كان يحيي الليل بالصلاة ففتر عن ذلك، فأتاه آتٍ في منامه، فقال له: قد كنتَ يا فلان تدأب في الخطبة، فما الذي قصر بك عن ذلك؟ قال: وما ذلك؟ قال: كنت تقوم من الليل، أو ما علمت أنَّ المتهجِّد إذا قام إلى تهجده، قالت الملائكة: قد قام الخاطب إلى خطبته.

ورأى بعضهم في منامه امرأة لا تشبه نساء الدنيا، فقال لها: من أنتِ؟ قالت: حوراء أَمَةُ الله، فقال لها: زوِّجيني نفسكِ، قالت: اخطبني إلى سيدي وأمهرني، قال: وما مهرك؟ قالت: طول التهجد.

وكان بعض الصالحين ربما نام في تهجده فتوقظه الحوراء في منامه، فيستيقظ بإيقاظها(١).

ولقد سمعتُ مثل هذه الحكايات من بعض الصالحين في هذا الزمان، **ومنها**:

قصةُ رجلٍ ذاق شيئًا مِن حلاوة القرآن ولذَّةِ قيام الليل، وحينما علم بأنّ السكينة تنزل على قارئ القرآن، وأنّ الملائكة تحضر مجالس الذكر: هيّأ مكانًا للصلاة، وجعل فيه مُكبّر صوتٍ مُناسب للمكان، ليتغنّى بالقرآن، واشترى الجيّد من العود والطيب، فتَطَيَّب به وطيّب المكان الذي يُصلّي فيه، وأعدّ مشلحًا خاصًّا يتجمّل به في صلاتِه في قيام الليل؛ امْتثالًا لقول الله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ﴾ [الأعرَاف: ٣١]، واقتداءً بفعل كثير من السلف الصالح من الصحابة والتابعين.

وقال: مِن فضل الله تعالى وكرمه وإحسانه أنه أعانني على قيام الليل، ووجدْتُ في قيام الليل بين يدي الكريم الوهاب ومناجاته بالأسحار لذةً وانشراحًا لا يعلم قدرَه وصفتَه إلا الله تعالى، وإني إذا قمت لا أتمنى أنْ يطلع الفجر.

وفي ليلةٍ من الليالي لم أقم في الموعد الْمُعتاد، فرأيت في المنام رجلًا مهيبًا دخل بيتي، دون أنْ يفتح الأبواب، فخفت وقلت: مَن هذا الذي دخل بيتي دون إذني؟

فخشيت أنْ يكون لصًّا، فاختبأتُ في غرفةٍ قبل أن يراني وكانت مظلمة، ووجدت غطاء فاخْتبأتُ به لئلا يراني، وكنت أرقب الباب،

(١) يُنظر إليها وإلى غيرها في: الجامع المنتخب (ص٦٩)، موسوعة ابن أبي الدنيا (١/ ٢٩٦ ـ ٣٠٧).

فدخل عليّ وكأنه يعلم عني وعن حركاتي وعن مكان وجودي، فجاء إليّ وأنا خائف، فأزال الغطاء فرأيته، وقد امتلأ قلبي مهابةً منه، وهو على هيئة رجل، ولكني لا أرى وجهه، ولم يكلمني؛ بل مسك بيديّ وكأنه يقول لي: قم للصلاة.

فقمت مسرعًا وتوضأتُ وصلَّيتُ ما كُتب لي، وجعلت أبكي في صلاتي وخشعت فيها، ولم تفارق صورتُه ذاكرتي، ثم أذَّن المؤذن لصلاة الفجر فأيقظت أولادي وزوجتي وقلبي ممتلئ بالإيمان، وشعرتُ بقرب الله مني، وعنايةِ ملائكة الرحمٰن بي، وازددت حرصًا على قيام الليل، وصرت أقوم أكثر من قبل.

والملائكة تشهد بعض الصلوات في مساجد المسلمين، وتستمع للذكر في خُطب الجمعة، وتحضر مجالس الذكر كما صحّ ذلك، والقرآن أفضل الذكر، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحِجر: ٩]، وقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبيَاء: ٥٠]، فلا ريب أنَّ الملائكة تحضر عند قراءة المسلم كلام الله.

نسأل الله تعالى الثبات على الدين، وحسن الخاتمة.

۞ ۞ ۞

لطيفة

بعضُ مَن يُنكر المنكر يكون مخطئًا إما في أصْلِ إنكاره، وإما في كميَّة إنكاره، وإما في كيفيَّة إنكاره.

فالأول: من يُنكر بجهل، والحق مع من أنكر عليه، وهذه رزيّة.

والثاني: من يُنكر بعلم وحقّ، لكنه يزيد عن الحدّ الكافي، كأنْ يُبالغ في اللوم والعتاب، أو يقسو ويُغلظ في الخطاب.

والثالث: من يُنكر بطريقةٍ خاطئة، كأنْ يُنكر على المخطئ أمام الناس، وهذا المخطئ لم يُجاهر في فعلِ المنكر.

وفي هذا يقول الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

تعمدْني بنصحِكَ في انفرادي ... وَجِّنْبني النصيحةَ في الجماعةْ
فإِن النصحَ بين الناسِ نوعٌ ... من التوبيخِ لا أرضى استماعَهْ
وإِن خالفتني وعصيتَ قولي ... فلا تجزعْ إِذا لم تُعْطِ طاعهْ



(١) ديوان الشافعي (ص١٠).

٢٧ ـ [لا ينبغي لأحدٍ أن يُظاهر بالعداوة أحدًا ما استطاع؛ فإنه ربما يحتاج إليه][١].

إنها نصيحة عظيمة النفع، وقد وقعتْ على قلبي أيّما وقع، ومن حين ما قرأتها عملت جاهدًا بها، ذاكرًا لها في كل موقف منغّصٍ يمر علي من بعض الناس، فحمدت الله تعالى على أن وفقني للعمل بها، وأن دلني عليها، فلقد كان لها أعظم الأثر في تجنب إظهار عداوة لمن بادرني بها، فأمسكت نفسي عن مُنابذته ومقابلة سوء فعله، وإعلان عداوته، فقد مرت بي الأيام واحتجت إلى بعض هؤلاء، فقلت في نفسي: الحمد لله الذي عصمني من إظهار عداوتِه.

وأذكر أنه جرى مِن أحدِ الناس كلامٌ رديءٌ عليَّ، وسبّ وشتم لم أعهد مثله في حياتي، على أمر ظنَّ أنه صدر مني، فتحلّمت وتصبرت، واستعذت بالله من سورة الغضب، ولم أقابل إساءته إلا بالإحسان، وبعد بضع سنوات شاء الله تعالى أن نجتمع في عمل في مكان واحد، والعمل يتطلب منا جميعًا التعاون لمصلحة العمل، فقلت في نفسي: الحمد لله أنني لم أعلن عداوتي له في ذلك الموقف، ولو حصل ذلك: لكان العمل بالنسبة لي ثقيلًا بغيضًا؛ لأنّ الاجتماع مع من تُبغضُه وتُظهر له العداوة مدةً طويلةً يُسبب لك القلق والتوتر طيلة أيام العمل، وكرهًا للعمل نفسِه.

❁ ❁ ❁

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص٢٥١).

لطيفة

احذر من ثلاثٍ مُهلكات صادّات عن الحق والدين:

١ ـ اتّباع الهَوَى.

٢ ـ الانْتِصَار لِمَذْهَبٍ أَوْ شَيْخ أو جماعة.

٣ ـ الاشْتِغَال بِالشَّهَوَاتِ أَوْ بِالدُّنْيَا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنْ أَنْ تَكْرَهَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، أَوْ تَرُدَّهُ لِأَجْلِ هَوَاك، أَوْ انْتِصَارًا لِمَذْهَبِك أَوْ لِشَيْخِك، أَوْ لِأَجْلِ اشْتِغَالِك بِالشَّهَوَاتِ أَوْ بِالدُّنْيَا.. فَاعْلَمْ ذَلِكَ وَاسْمَعْ وَأَطِعْ، وَاتَّبِعْ وَلَا تَبْتَدِعْ تَكُنْ أَبْتَرَ مَرْدُودًا عَلَيْك عَمَلُك»(١).



(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٦/٥٢٨ ـ ٥٢٩).

٢٨ ـ [وَالله إنَّ لنا شريعةً لو رام أَبُو بَكْر الصديق رضي الله عنه أن يخرج عنها إِلَى العمل برأيه لم يُقبل مِنْهُ][١].

إنها عقيدةٌ راسخة، وإيمان لا يتزحزح، وثبات على مبدأ التعظيم لشريعة الله سبحانه وتعالى، وعدم تقديم قول أحد عليها.

إنها تحقيق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: معنى «الدين»، في هذا الموضع: الطاعة والذّلة، من قول الأعشى ميمون بن قيس:

هُوَ دَانَ الـرِّبَـابَ إذْ كَـرِهُـوا الـدِّ ... يـنَ دِرَاكًـا بِـغَـزْوَةٍ وَصِـيَـالِ

يعني بقوله: «دان» ذلل، وبقوله: «كرهوا الدين»، الطاعة.

فتأويل قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾: إنَّ الطاعةَ التي هي الطاعة عنده: الطاعةُ له، وإقرارُ الألسن والقلوب له بالعبودية والذّلة، وانقيادُها له بالطاعة فيما أمر ونهى، وتذلُّلها له بذلك، من غير استكبار عليه، ولا انحراف عنه، دون إشراك غيره من خلقه معه في العبودية والألوهة. اهـ[٢].

فمعنى الآية باختصار: «إنّ الطاعةَ هي تسليم لأمر الله عز وجل»[٣].

فالطاعة والعبادة لا تصح حتى تكون لله تعالى ومنه، لا من فلان وفلان، مهما عظم وعلا شأنه، وسما في العلياء ذكرُه.

ومن اعتصم بهذه العقيدة: حرص على معرفة الدين الحق، ومعرفة

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص٤٠٠).
(٢) تفسير الطبري (٦/ ٢٧٣ ـ ٢٧٥).
(٣) تفسير الراغب (١/ ٢٩٤).

ما جاء في الكتاب والسُّنَّة، ونبذ التقليد والتبعية المطلقة لغير الله تعالى ورسوله ﷺ.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: السُّنَّة قد تخفى على بعض أكابر الصحابة ويطلع عليها آحادهم، ولهذا لا يُلتفت إلى الآراء ولو قويت مع وجود سُنَّة تخالفها..

ولا يقال: كيف خفي ذا على فلان؟.اهـ(١).

وهذا ما عليه السلف الصالح والأئمة الأربعة وغيرهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: كَانَ صِدِّيقُ الْأُمَّةِ وَأَفْضَلُهَا بَعْدَ نَبِيِّهَا يَقُولُ: أَطِيعُونِي مَا أَطَعْت اللهَ فَإِذَا عَصَيْت اللهَ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ.

وَاتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مَعْصُومًا فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ إلَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلِهَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الْأَئِمَّةِ: كُلُّ أَحَدٍ مِنْ النَّاسِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إلَّا رَسُولَ اللهِ ﷺ.

وَهَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قَدْ نَهَوْا النَّاسَ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فِي كُلِّ مَا يَقُولُونَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ؛ فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: هَذَا رَأْيِي وَهَذَا أَحْسَنُ مَا رَأَيْت؛ فَمَنْ جَاءَ بِرَأْيٍ خَيْرٍ مِنْهُ قَبِلْنَاهُ، وَلِهَذَا لَمَّا اجْتَمَعَ أَفْضَلُ أَصْحَابِهِ أَبُو يُوسُفَ بِمَالِكِ فَسَأَلَهُ عَنْ مَسْأَلَةِ الصَّاعِ؛ وَصَدَقَةِ الْخَضْرَاوَاتِ؛ وَمَسْأَلَةِ الْأَجْنَاسِ؛ فَأَخْبَرَهُ مَالِكٌ بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ السُّنَّةُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: رَجَعْت إلَى قَوْلِك يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، وَلَوْ رَأَى صَاحِبِي مَا رَأَيْت لَرَجَعَ إلَى قَوْلِك كَمَا رَجَعْت.

وَمَالِكٌ كَانَ يَقُولُ: إنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أُصِيبُ وَأُخْطِئُ فَاعْرِضُوا قَوْلِي عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَوْ كَلَامًا هَذَا مَعْنَاهُ.

---

(١) الفتح (١/ ١٠٤).

وَالشَّافِعِيُّ كَانَ يَقُولُ: إذَا صَحَّ الْحَدِيثُ فَاضْرِبُوا بِقَوْلِي الْحَائِطَ وَإِذَا رَأَيْت الْحُجَّةَ مَوْضُوعَةً عَلَى الطَّرِيقِ فَهِيَ قَوْلِي.

وَفِي مُخْتَصَرِ المزني لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ اخْتَصَرَهُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ لِمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ مَذْهَبِهِ قَالَ: مَعَ إعْلَامِهِ نَهْيَهُ عَنْ تَقْلِيدِهِ وَتَقْلِيدِ غَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

وَالْإِمَامُ أَحْمَد كَانَ يَقُولُ: لَا تُقَلِّدُونِي وَلَا تُقَلِّدُوا مَالِكًا وَلَا الشَّافِعِيَّ..

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ يُنَاظِرُ ابْنَ عَبَّاسٍ فِي الْمُتْعَةِ فَقَالَ لَهُ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنْ السَّمَاءِ أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟

وَكَذَلِكَ ابْنُ عُمَرَ لَمَّا سَأَلُوهُ عَنْهَا فَأَمَرَ بِهَا فَعَارَضُوا بِقَوْلِ عُمَرَ فَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ عُمَرَ لَمْ يُرِدَّ مَا يَقُولُونَهُ فَأَلَحُّوا عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُمْ: أَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ أَمْرُ عُمَرَ؟ مَعَ عِلْمِ النَّاسِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ أَعْلَمُ مِمَّنْ هُوَ فَوْقَ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ. وَلَوْ فُتِحَ هَذَا الْبَابُ لَوَجَبَ أَنْ يُعْرِضَ عَنْ أَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَيَبْقَى كُلُّ إمَامٍ فِي أَتْبَاعِهِ بِمَنْزِلَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أُمَّتِهِ وَهَذَا تَبْدِيلٌ لِلدِّينِ يُشْبِهُ مَا عَابَ اللهُ بِهِ النَّصَارَى فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]. اهـ[1].

وقال العلَّامة محمد رشيد رضا: فَقَدْ رَأَيْت أَنَّ أَكَابِرَ عُلَمَاءِ

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢١١ ـ ٢١٦).

الصَّحَابَةِ، الَّذِينَ كَانُوا أَوْسَعَ عِلْمًا وَفَهْمًا لِلنُّصُوصِ مِنْ أُولَئِكَ الْفُقَهَاءِ، بِشَهَادَةِ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ كُلِّهِمْ، قَدْ خَفِيَ عَلَى بَعْضِهِمْ مَا هُوَ مِثْلُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي الْوُضُوحِ أَوْ أَشَدُّ، وَالْبَشَرُ عُرْضَةٌ لِلْغَفْلَةِ وَالذُّهُولِ، وَإِنَّ مِنْ أَنْهَضِ الْحُجَجِ عَلَى بُطْلَانِ الْتِزَامِ تَقْلِيدِ فَرْدٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، مَا ظَهَرَ كَالشَّمْسِ، مِنْ خَطَأِ أَكَابِرِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ، إِمَّا بِمُخَالَفَةِ النَّصِّ الصَّرِيحِ، وَإِمَّا بِتَنَكُّبِ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ. اهـ[١].



(١) تفسير المنار (٧/ ١٦١).

لطيفة

كثيرٌ من الناس يظن أنَّ أعظم الابتلاء الذي يتعرض له العالم أو الداعية أو المصلح: هو الابتلاء الظاهر بتسلط سلطان، وأذية أعداء ونحو ذلك؛ بل بعضهم لا يخطر على باله من معنى الابتلاء إلا هذا.

وتالله لَمَا يتعرض له من ابتلاء الباطن من حبٍّ للشهرة والأتباع، أو طلبٍ للمدح والثناء، أو كبر وعجب، أو حسدٍ وغِلٍّ: لهو أعظم وأخطر.

وحسبك أنَّ الأول يُعرف ويُرى ويُدرى به، فيكون ذلك تخفيفًا من مُصابِه، وأما الآخر فلا يِعرف أحدٌ غير الله به، فمجاهدة نفسِه على هذا البلاء وكتمانِه وعدم الاستجابةِ لرغبة النفس والهوى صعبٌ وشاقٌّ للغاية، ولا يُستطاع إلا بقوة الإيمان بالله، وكمال الصدقِ معه والإخلاص له.

والأول قد ابتُلي به الكثير من الفجار والكفار فصبروا وثبتوا على الابتلاء الظاهر، بخلاف الابتلاء الباطن، فلا يكاد يُطيق الصبر عليه إلا الخاصة والأولياء والأتقياء، وما ذاك إلا لأنه أشقُّ وأصعب، وما صَبَرَ أكثرُ الناس على الأذى الظاهر إلا طلبًا للشهرة والأتباع، أو المدح، أو لأجلِ الكبر والأَنَفَةِ والعجب في نفوسِهم.



٢٩ ـ [لو اتَّسع العمر لمعرفة الكلِّ كان حسنًا، ولكنَّ العمرَ قصير، فينبغي إيثار الأهمِّ والأفضل][١].

هذه قاعدة نافعة جليلة في ترتيب الأولويات في العلوم والقراءات، فطالب العلم الجادّ والحصيف يعتني ويبتدِئُ بالأهم والأَوْلى، ولا يأخذ من كل بستان زهرة، فيكون جمَّاعًا للمعلومات والفوائد فحسب؛ بل ينبغي له أن يُكثر القراءة والبحث في علم من العلوم حتى يُتقنه أو يُتقن أهمَّه، ثم ينتقل إلى علم آخر.

وبهذا يخطو الخطوات الصحيحة السليمة في الرسوخ العلمي، وهذه الطريقة أطول وأشق من الطريقة الأولى، ولكنها أقوى تأثيرًا، وأسلم وأحمد عاقبةً.

والعلوم المهمة النافعة نوعان:

النوع الأول: علوم تتعلق بالأحكام الشرعية، والأعمال الظاهرة العملية، وهي التي ينتفع بها الناس ويحتاجون إليها، وهو علم الفقه، ومسائل العقيدة النظرية، وعلم الأحكام الواردة في السُّنَّة.

النوع الثاني: علوم تتعلق بالأعمال القلبية والسلوكية، وهي التي ينتفع بها صاحبها ويحتاج إليها، كعلم السلوك، وحفظ القرآن وتدبره وفهمه والعمل به، وعلم السيرة النبوية وما جاء فيها من أخباره وأخلاقه وعباداته ﷺ، وقراءة ما جاء عنه من الإيمانيات ونحوها، وعلم العقيدة العملية، كحقيقة التوحيد والتوكل والخوف والرجاء،

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص١٣٧).

ونحوها من العلوم التي تُعين على إصلاح القلب وإخلاصه وتعلقه بربه.

فاحذر أن تبدأ بالأول، فتنهمك فيه وتكتفي به، وتُعرض ـ غالبًا ـ عن النوع الثاني، فتنشأ فيك أخلاق سيّئة، وتصورات خاطئة، وأمراض قلبية تظنها صوابًا، وازدراء من عمل بها ودعا إليها.

ولكن الصواب: أن تبدأ بهما جميعًا، فيكون لكل منهما نصيب من وقتك واهتمامك، فتُصلح ظاهرك وباطنك، وتنفع نفسك وأمتك.



لطيفة

فرق بين حسن الظن بالمسلم، وبين إثبات عدالته وقبولِ شهادته، وقد نبَّه على هذا الفرق العلَّامة الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: تَحْسِينُ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِ ـ وَإِنْ ظَهَرَتْ مَخَايِلُ احْتِمَالِ إِسَاءَةِ الظَّنِّ فِيهِ ـ مَطْلُوبٌ بِلَا شَكٍّ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحُجرَات: ١٢] الْآيَةَ.

وَقَوْلِه: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النُّور: ١٢] الْآيَةَ.

بَلْ أُمِرَ الْإِنْسَانُ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَنْ يَقُولَ ما لا يعلم، كما أمر باعتقاد مَا لَا يَعْلَمُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النُّور: ١٢].

وَقَوْلِه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النُّور: ١٦].

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فِي هَذَا الْمَعْنَى.

وَمَعَ ذَلِكَ: فَلَمْ يُبْنَ عَلَيْهِ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ، وَلَا اعْتُبِرَ فِي عَدَالَةِ شَاهِدٍ وَلَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ بمجرد هَذَا التَّحْسِينِ؛ حَتَّى تَدُلَّ الْأَدِلَّةُ الظَّاهِرَةُ الْمُحَصِّلَةُ لِلْعِلْمِ أَوِ الظَّنِّ الْغَالِبِ.

فَإِذَا كَانَ الْمُكَلَّفُ مَأْمُورًا بِتَحْسِينِ الظَّنِّ بِكُلِّ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يَكُنْ كُلُّ مُسْلِمٍ عَدْلًا عِنْدَ المحسِّن بِمُجَرَّدِ هَذَا التَّحْسِينِ حَتَّى تَحْصُلَ الْخِبْرَةُ أَوِ التَّزْكِيَةُ؛ دَلَّ عَلَى أَنَّ مُجَرَّدَ تَحْسِينِ الظَّنِّ بِأَمْرٍ لَا يُثْبِتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ، وَإِذَا لَمْ يُثْبِتْهُ لَمْ يُنْبَنَ عَلَيْهِ حُكْمٌ، وَتَحْسِينُ الظَّنِّ بِالْأَفْعَالِ مِنْ ذَلِكَ، فَلَا يَنْبَنِي

عَلَيْهَا حُكْمٌ. اهـ[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: الْأَصْلُ فِي الْمُسْلِمِينَ الْعَدَالَةُ: بَاطِلٌ؛ بَلْ الْأَصْلُ فِي بَنِي آدَمَ الظُّلْمُ وَالْجَهْلُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وَمُجَرَّدُ التَّكَلُّمِ بِالشَّهَادَتَيْنِ لَا يُوجِبُ انْتِقَالَ الْإِنْسَانِ عَن الظُّلْمِ وَالْجَهْلِ إِلَى الْعَدْلِ. اهـ[(٢)].

واستثنى العلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ القاضي من هذا فقال: يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِمَكْرِ النَّاسِ وَخِدَاعِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْسِنَ الظَّنَّ بِهِمْ؛ بَلْ يَكُونُ حَذِرًا فَطِنًا فَقِيهًا بِأَحْوَالِ النَّاسِ وَأُمُورِهِمْ، يُوَازِرُهُ فِقْهُهُ فِي الشَّرْعِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ زَاغَ وَأَزَاغَ، وَكَمْ مِنْ مَسْأَلَةٍ ظَاهِرُهَا ظَاهِرٌ جَمِيلٌ، وَبَاطِنُهَا مَكْرٌ وَخِدَاعٌ وَظُلْمٌ؟ فَالْغِرُّ يَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِهَا وَيَقْضِي بِجَوَازِهِ، وَذُو الْبَصِيرَةِ يَنْقُدُ مَقْصِدَهَا وَبَاطِنَهَا..

وَكَمْ مِنْ بَاطِلٍ يُخْرِجُهُ الرَّجُلُ بِحُسْنِ لَفْظِهِ وَتَنْمِيقِهِ وَإِبْرَازِهِ فِي صُورَةِ حَقٍّ؟ وَكَمْ مِنْ حَقٍّ يُخْرِجُهُ بِتَهْجِينِهِ وَسُوءِ تَعْبِيرِهِ فِي صُورَةِ بَاطِلٍ؟. اهـ[(٣)].



(١) تهذيب كتاب الموافقات للمؤلف (ص٥٣٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٥٧).
(٣) أعلام الموقعين (٢/ ٥٤٥).

٣٠ ـ [غالب الخلق إنما يريدون قضاء حوائجهم منك، وإن أضر ذلك بدينك ودنياك، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرتك، والرب تبارك وتعالى إنما يريدك لك، ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته، ويريد دفع الضرر عنك، فكيف تعلق أملك ورجاءك وخوفك بغيره؟](١).

وإذا كان كذلك: فمن الحرمان أنْ تقضي أيامَ عمرك في تلمس رضا فلان وفلان، مهما علا شأنه، وارتفعت مكانته، فإنه مهما أعطاك وقرَّبَك إنما فعل ذلك لمصلحته منك، وانتفاعه بك.

ولا تغتر بمدح الناس ولا تجزع لذمهم، إذا كنت تحققت بأنّ عملك يُرضي ربك ﷻ، فإنه هو الَّذي مَدْحُهُ زَيْنٌ وذَمُّهُ شَيْنٌ.

والعمر ما منه عوض، فلا تصرف ساعات عمرك بغير رضا ربك سبحانه الذي يريدك لمصلحتك أنت، ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته، ويريد دفع الضرر عنك، فلا تعلق أملك ورجاءك وخوفك بغيره فتخسر الدنيا والدين.

۞ ۞ ۞

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيِّم (١/ ٩١).

لطيفة

اقرأ وتعلم وجدَّ واجتهد في الطلب، مهما كان سنك، ومهما تأخر بك الطلب؛ فإنك لا تعلم متى تصل وتُمكّن ويُنتفع بك.

قال الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: من الناس من ينبغ في آخر عمره نبوغًا يفوق الوصف، ومنهم من يكون نبوغه في الكهولة أو في الشباب.اهـ.

وقد كان كثيرٌ من صحابة رسول الله ﷺ ذهب شبابُهُ في الجاهليّة، ثمّ صار عَالِمًا فقيهًا كبيرًا، وفي هذا أكبرُ حافِزٍ لِطلبِ العلم وعدمِ اليأس.

وممن طلب العلم متأخرًا وفاق الأقران: القَفَّال (المتوفى: ٤١٧هـ)، شيخ الشّافعية بُخراسان.

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: كَانَ يعمل الأقفال، وحَذَقَ في عملها حتّى صنع قفلًا بآلاته ومفتاحه وزْن أربع حبات. فلمّا صار ابن ثلاثين سنة أحسّ مِن نفسه ذكاءً، فأقبل عَلَى الفقه، فبرع فيه وفاق الأقران.اهـ[١].



(١) تاريخ الإسلام (٩/ ٢٨٢)، وقاله غيره؛ كما في طبقات الشافعية للسبكي (١/ ٣٧٢)، والوافي بالوفيات الوافي بالوفيات للصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ) (١٧/ ٢٧).

٣١ ـ [الحذرَ الحذرَ مِنْ مُخَالَفَةِ الْأَوَّلِينَ، فَلَوْ كَانَ ثَمَّ فَضْلٌ مَا: لَكَانَ الْأَوَّلُونَ أَحَقَّ بِهِ][١].

هذا هو منهج أهل السُّنَّة والجماعة في التمسك بما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم، ولا يجوز الخروج عما اتفقوا عليه، وجرى العمل عليه، ولْيَتَّهم كلٌّ واحد رأيه حينما يرى أنه مُخالف لما عليه جماعة السلف الصالح.

قال الشاطبي رحمه الله: لا يمكن أن يبلغ المتأخرون أبدًا مبالغ المتقدمين، فخير القرون الذين رأوا رسول الله ﷺ، وآمنوا به، ثم الذين يلونهم، وهكذا يكون الأمر أبدًا إلى قيام الساعة، فأقوى ما كان أهل الإسلام في دينهم وأعمالهم ويقينهم وأحوالهم في أول الإسلام، ثم لا زال ينقص شيئًا فشيئًا إلى آخر الدنيا، لكن لا يذهب الحق جملة؛ بل لا بد من طائفة تقوم به وتعتقده وتعمل بمقتضاه على حسبهم في إيمانهم، لا ما كان عليه الأولون من كل وجه؛ لأنه لو أنفق أحدٌ من المتأخرين وزن أُحدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولا نصيفه، وإذا كان ذلك في المال فكذلك في سائر شُعَب الإيمان بشهادة التجربة العادية. اهـ[٢].

❁ ❁ ❁

(١) الموافقات للشاطبي (٣/ ٢٨٠).
(٢) الاعتصام (ص٢١٠).

لطيفة

لذَّاتُ الدُّنيا كلّها لا تعدوا إحدى **ثلاث**:

١ ـ اللذة الجسديّة الحسيّة، وهي التي يتلذّذ بها الإنسان في بدنِه، كلذَّة الأكل والشرب والجماع، وهذه اللذة يشترك فيها الإنسان والحيوانُ البهيم.

ولو كانت كمالًا: لكان أفضل الناس وأشرفهم وأكملهم: أكثرهم أكلًا وشربًا وجماعًا.

٢ ـ اللذة الوهميّة الخياليّة؛ كلذَّة الرئاسة والمنصب والسيطرة والتعاظم على الخلق والفخر وغيره، التي يظنّ صاحبها أنّها لذّةٌ حقيقيّة، وإنما هي وهميّة مُؤقّتة سرعان ما تزول؛ لأنّه ارتفع بغيره؛ من منصبٍ وشهادةٍ ومالٍ، ولم يرتفع بنفسه وأخلاقه وعلمِه وجمال أفعالِه.

وإذا ذهب منصبُه أو مالُه: ذهبت مكانتُه وإقبال الناس إليه.

وهذه اللذة وإن كانت أشرفَ من الأولى، إلا أنَّ آلامَها ومفاسدها ومضارّها أشدُّ وأكثرُ وأعظمُ مِن التلذُّذ بها؛ لأنّ صاحبها يُعادي كلَّ مَن تعاظم وترأس عليه، ويحسد مَن نافسَه فيها.

٣ ـ اللذة العقلية الرُّوحانية، وهي التي يتلذّذ بها الإنسان في عقلِه وروحِه وقلبِه؛ كلذَّة المعرفة والعلم والاتصاف بصفات الكرم والجود والعطاء والشجاعة والصبر والمروءة وغيرها.

فإذا انضمتِ اللذَّة بذلك إلى لذَّةِ معرفة الله تعالى ومحبته وعبادته وحده لا شريك له: فصاحب هذه اللذَّة في جنةٍ عاجلةٍ، نسبتُها إلى لذَّات الدنيا كنسبة لذَّة الجنة إلى لذَّة الدنيا، فإنه ليس للقلب والروح ألذُّ ولا

أطيبُ ولا أحلى ولا أنْعمُ من محبةِ الله، والإقبالِ عليه، وعبادتِه وحده، وقرّةِ العين به، والأنسِ بقربه، والشوقِ إلى لقائه ورؤيته.

وإنَّ مثقال ذرة من هذه اللذة لا يُعْدل بأمثال الجبال من لذَّات الدنيا، ولذلك كان مثقالُ ذرةٍ من إيمانٍ بالله ورسوله يُخَلِّص من الخلود في دار الآلام، فكيف بالإيمان الذي يمنع دخولها؟![(١)].

وهذه اللذّة لا مضرّة منها أبدًا، وآثارُها المحمودةُ مضمونةٌ في الدنيا والآخرة، بخلاف اللذّة الجسديّة والوهميّة، فمضارّها أكيدة، وأثارُها المحمودةُ غير مضمونةٍ، وكم من إنسان تلذّذ بأكلٍ فكان فيه حتفُه أو مرضُه، كالسمنة والأمراض الباطنيّة مثلًا، وكم من إنسان تلذّذ حينما تولّى منصبًا أو ربح مالًا فكان فيه حتفُه وآلامُه.

وهؤلاء لا يطيب لهم عيش مهما تمتّعوا بمتع الدنيا، فهم أكثر الناس ضيقًا وخصامًا ونكدًا، ومَن صلح عيشُه وبالُه منهم فلأنه أخذ حظًّا من اللذة العقلية الرُّوحانية.

والمروءةُ والدِّينُ والعقلُ يَنْهى عن لذَّةٍ تُسبّبُ ألَمًا، وشهوةٍ تُوْرث ندمًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: وقد قيل: إنّ قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٦٨﴾ [التوبة: ٦٨] إشارة إلى ما هو لازمٌ لهم في الدنيا والآخرة من الآلام النفسية: غمًّا وحزنًا، وقسوةً وظلمةَ قلبٍ وجهلًا؛ فإن للكفر والمعاصي من الآلام العاجلة الدائمة ما الله به عليم، ولهذا تجد غالب هؤلاء لا يُطَيِّبُون عيشهم إلا بما يزيل العقل، ويُلهي القلب، مِن تناول مسكر، أو رؤية مُلْهٍ، أو سماع مطرب، ونحو ذلك.

---

(١) روضة المحبين بتصرف (ص١٧٩ ـ ١٨١).

وبإزاء ذلك قوله في المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [التّوبَة: ٧١] فإن الله يُعَجِّل للمؤمنين من الرحمة في قلوبهم وغيرها بما يجدونه من حلاوة الإيمان ويذوقونه من طعمه، وانشراح صدورهم للإسلام، إلى غير ذلك من السرور بالإيمان، والعلم والعمل الصالح، بما لا يمكن وصفه. اهـ(١).

فعليك باللذّة الحقيقية، التي لا تُفارق صاحبها حيًّا ولا ميّتًا.

وصدق الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ [النّحل: ٣٠]، ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النّحل: ٩٧].

«فَضَمِنَ لِأَهْلِ الإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَالْحُسْنَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَهُمْ أَطْيَبُ الْحَيَاتَيْنِ، فَهُمْ أَحْيَاءٌ فِي الدَّارَيْنِ»(٢).



(١) اقتضاء الصرط المستقيم (١/ ١١٠ ـ ١١١).
(٢) الجواب الكافي لابن القيِّم (ص١٢٠).

٣٢ ـ [العجب أنك تعاقب أهلك وولدك على ما يصدر منهم، من سوء خلق، وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار، وبغوا عليك، ثم تهمل نفسك، وهي أعظم عدو لك، وأشد طغيانًا عليك، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك!](١).

إنّ كل عاقل لا يستغني عن مُحاسبة نفسه عن أمور دنياه وماله وعمله، وعن محاسبة أهله وأولاده ومن له سلطة عليه، ولكن قلّ من يُحاسب نفسه عن أمور دينه وأخلاقه وتعامُلِه، وهذه المحاسبة تُسهل عليك جميع المحاسبات، وترفعك أعلى الدرجات، وتُوصلك إلى أرفع المقامات.

ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة **عدة أمور**:

١ ـ معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها إذا صار الحسابُ غدًا إلى غيرِه، وكُلَّما أهملها اليوم اشتدّ عليه الحسابُ غدًا.

٢ ـ معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها: دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فحقٌّ على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا حظ

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٠٨).

لها يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد.

فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه: خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلًا. وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عِمرَان: ٣٠].

وأضر ما عليه الإهمال، وترك المحاسبة والاسترسال، وتسهيل الأمور وتمشيتها، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور: يغمض عينيه عن العواقب، ويمُشِّي الحال، ويتَّكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة.

وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب، وأنس بها، وعسر عليها فطامها، ولو حضره رشده لعلم أنَّ الحمية أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد.

وقال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزَاب: ٨].

فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين؟. اهـ(١).

وصدق الشاعر(٢):

ومَن ترك العواقبَ مُهْمَلاتٍ ... فأيسر سعيه أبدًا تَبَارُ

۞ ۞ ۞

(١) إغاثة اللهفان (١/١٤٧ ـ ١٥٠).

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري (المتوفى: ٧٣٣هـ) (٦/٤٦).

لطيفة

من يُخلص لله تعالى في إحسانِه للناس وتعامله معهم، ولا يرجو ممن أحسن إليهم جزاء ولا شكورًا كما قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ⁽٩⁾﴾ [الإنسَان: ٩]: فإنّ الله تعالى يجعل جزاءه عنده، كما قال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ⁽٨⁾﴾ [البَيِّنَة: ٨].

واستحقوا أن يكونوا في الجنة ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ⁽٥٥⁾﴾ [القَمَر: ٥٥].

فجزاء إحسانهم عند ربهم لا عند غيرهم، ومصيرهم يوم القيام في الجنة عند ربهم.

فمن عاش مع الله في الدنيا عاش مقربًا عنده في الجنة.

وصاحب الهمّة والإيمان لا ينتظر جزاءه من مخلوق مهما عظم منصبه وعَلَتْ مكانته؛ بل ينتظر جزاءَه من عظيمِ الإحسان، ذي الجلال والإكرام.

ومن طلب من الناس الشكر أو المكافأة على إحسانه وأخلاقه بلسان حاله أو مقاله: تعب وأتعب غيره، وطالتْ حسراتُه، وتنغصَّتْ حياتُه، ومُحِقَ ثواب عملِه، وأصبح أجرُه على الناس لا على الله.

والكثير من الناس يترك مُجازاة المحسن لأسبابٍ، **منها**:

١ ـ الدناءة واللؤم والحسد، وهذا الصنف من الناس يحسد حتى

من أعطاه وأحسن إليه، ولو استطاع أن يقطع الخير عنه لقطعه ولو ترتب عليه انقطاع الخير عنه.

٢ ـ البخل بالمال أو بالمشاعر، وهذا الصنف من الناس لا يحسد صاحب الإحسان والمعروف، ولكنه يبخل عليه بماله فلا يُكافئه، أو يبخل عليه بمشاعره فلا يشكرُه.

٣ ـ الكبر، وهذا الصنف لا يرى معروفَ الناس معروفًا؛ بل واجبًا يستحقّه.

٤ ـ البلادة، وهذا الصنف يترك مُجازاة المحسن لبلادته وقلّةِ مُبالاتِه، لا لحسدٍ في قلبه.

٥ ـ الفهم المغلوط، وهذا الصنف من الناس يرى أنّ إحسان المحسن لا يقصد منه الإحسان؛ بل ليمنّ به عليه، أو ليتوصل بإحسانه إلى غرضٍ ما.

٦ ـ التأويل الفاسد، وهذا الصنف يرى أنّ شكره على الله لا على الخلق، وأنّ شكره قد يُصيب المحسن بالغرور وبطلانِ ثواب إحسانِه، وهذا قد يصدر مِن جَهَلةِ المتعلّمين.

٧ ـ الاتكالُ على العلاقة القوية بينه وبين صاحب الإحسان، وهذا الصنف من الناس يرى أنّ قوة الصداقة والصلة بينهما أزالت الحاجة إلى الشكر والثناء باللسان على كلّ معروف وإحسانٍ يصدر من صاحبِه، لِمَا في قلبيهما من الاطمئنان إلى الآخر، ويرى أنّ أفعالَه أكبرُ شاهد على شكره ومُجازاتِه.

وبعدُ؛ فإذا عرفت ـ أخي الموفق ـ أنّ الكثير من الناس يترك مُجازاة معروفك وإحسانك لهذه الأسباب وغيرِها: وجب عليك ألا تنتظر ممن أحسنت إليه شكرًا ولا ثناءً ولا جزاءً؛ بل الْتَمِس الأعذار لمن

أحسنت إليهم ولم يُكافئك، واجعل همّك طلبَ الجزاء من الكريم الوهَّاب يوم القيامة، ولا تُبطلْ ثواب إحسانك بطلب الجزاء عليه من الناس.

وبهذا أمرنا ربُّنا تبارك وتعالى فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تحسُّس(١).

فلا تتحسّس من فلان الذي لم يشكرك على إحسانك له، ولا من فلان الذي لم يردّ على رسالتك التي أرسلتَها له، ولا من فلانٍ الذي لم تر منه البشاشة والحفاوة.

فالآية تُرشدنا إلى أنْ نشكرَ مِن كلِّ أحدٍ ما قابلنا به، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ونتجاوزَ عن تقصيرهم، ونَغُضَّ طرفنا عن نقصهم.



(١) تفسير الطبري (١٣/ ٣٢٦).

٣٣ ـ [لو صُوِّر العلم صورةً: لكانت أجمل من صورة الشمس والقمر، ولكنَّ عشقَ هذه الصفات إنما يناسب الأنفس الشريفة الزكية.
وأما عشاق العلم: فأعظم شغفًا به وعشقًا له مِن كلِّ عاشقٍ بمعشوقه، وكثيرٌ منهم لا يشغله عنه أجملَ صورةٍ مِن البشر](١).

لقد كنت أجد في العلم والقراءة والبحث والتأليف لذةً وأُنسًا وتعلُّقًا لا نظير له، وأشعر بعلاقة وطيدة تجاه العلم، حتى إني كنت أتخوف من هذه العلاقة ـ التي منعتني من العديد من الاجتماعات والنزهات والسفريات ـ أن تكون مُبالغًا فيها، وليست علاقة محمودةً، حتى وقفت على هذا الكلام الذي نزل على قلبي كالماء البارد، ونطق بما يُكنه فُؤادي، وأمنت على هذه العلاقة من انحرافها وبلوغها مرحلة الغلوّ.

فطلبُ العلمِ لذةٌ لا تُعادلها لذة، وسعادةٌ لا تُعادلها سعادة، وسِيَر العلماء أكبر شاهد على ذلك.

قال شيخ الإسلام: «لا ريب أن لذة العلم أعظم اللذات».اهـ(٢).

فلذات الدنيا بأكملها من رئاسةٍ وأموالٍ وأولادٍ في كفة، والعلم الشرعي المؤصل في كفة أخرى راجحة.

فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ عِلْمًا وَاكْتَسِبْ أَدَبًا   فَالنَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ

وقد قلت في ذلك:

(١) روضة المحبين (ص٦٩، ٢٠١).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٦٢).

يا لذةً بين كُتْب العلم أعشقها ... لا شيءَ يعدلها مَالٌ ولا سَمَرُ
هي الغذاءُ لروحي بل شِفَا سَقَمي ... وهْي الأنيس إذا ما أقبلَ القَمَرُ
وأَكْسَبَتْنِيْ عقولًا للورى ذهبوا ... أجسادُهم فنيتْ والعلمُ مُسْتَطَرُ
تُعطي الهناءَ بلا مَيْنٍ ولا كدَرٍ ... ذولا جدالٍ كما قد يفعل البشَرُ
وما بِها مع طويلِ الْمُكثِ أيُّ أذىً ... ولا ملالٌ ولا عَتْبٌ ولا ضَجَرُ
ماذا اسْتَفَادَ الذي جاب الفيافي ومَنْ ... لها مع الصَّحْبِ إذ أوْقاتُهُمْ هَدَرُ
والعُمْرُ ليس له مِن فوتِه عِوَضٌ ... وبئْسَ عُمْرٌ فنى وما له أثَرُ
أَقْبِلْ على العلم وابْحَثْ عن مجالسِهِ ... فالعلم عزٌّ ومجدٌ كلُّهُ عِبَرُ
كم عالمٍ كان قبل العلم مُمْتهنًا ... فإذ به عَلَمٌ كالمزنِ ينتشرُ[(١)]

وما أجمل ما قال العلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ عن العلم وشرفِه: هو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عُصْبتهم ووُرَّاثُهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال، به يُعرف الله ويعبد، ويُذكر ويوحد، ويحمد ويمجد، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون، به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام، وهو إمام والعمل مأموم، وهو قائد والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغني الذي لا فقر على من ظفر بكنزه، مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تُعدَل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام. قال الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الناس إلى العلم أحوج منهم

(١) آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه للمؤلف (ص١٢).

إلى الطعام والشراب؛ لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه.

واستشهد الله ﷻ بأهل العلم على أجَلِّ مشهود به وهو التوحيد، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته[١]، وفي ضمن ذلك تعديلهم، فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح.

ويكفي في شرفه: أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها وتُظِلُّهم بها، وأن العالِم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر وحتى النمل في جحرها، وأن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير.

ولقد رحل كليم الرحمٰن موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام في طلب العلم هو وفتاه حتى مسَّهما النَّصَب في سفرهما في طلب العلم حتى ظَفَر بثلاث مسائل وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يسأله المزيد منه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].

وحرَّم الله صيد الجوارح الجاهلة، وإنما أباح للأمة صيد الجوارح العالمة[٢]، فهكذا جوارح الإنسان الجاهل لا يُجدي عليه صيدها من الأعمال شيئًا. اهـ[٣].

---

(١) في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

(٢) قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ [المائدة: ٤]. فصيد الكلب المُعلَّم مباح وغير المعلم حرام.

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٤٣٩ ـ ٤٤٢).
وفي كتابه مفتاح دار السعادة ذكر حوالي (١٥٣) وجهًا لفضل العلم.

ومن أعظم لذات العلم: حينما تتوصل لتحقيق مسألة صعبت عليك، ويتبين لك الحقّ فيها، فإنه يهجم عليك شعورٌ لا يكاد يُوصف، ولا تقدر على شكر الله في هذه الحالة إلا بسجود الشكر ولن تُوفيه حقّه سبحانه.

قال العلَّامة ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: أحدثك في ذلك بما نرجو أن ينتفع به قارئه إن شاء الله تعالى، وذلك أني كنت معتقلًا في يد الملقب بالمستكفي وهو محمد بن عبد الرحمٰن بن عبيد الله بن الناصر[1]، وكنت لا آمن قتلته؛ لأنه كان سلطانًا جائرًا ظالمًا عاديًا، قليل الدين كثير الجهل، غير مأمون ولا متثبت، وكان ذنبنا عنده صحبتنا للمستظهر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

وكنت مفكرًا في مسألة عويصة من كليات الجمل التي تقع تحتها معان عظيمة كثر فيها الشغب قديمًا وحديثًا في أحكام الديانة، وهي متصرفة الفروع في جميع أبواب الفقه، فطالت فكرتي فيها أيامًا ولیالي، إلى أن لاح لي وجه البيان فيها، وصح لي وحق لي الحق يقينًا في حكمها وانبلج، وأنا في الحال الذي وصفت، فبالله الذي لا إلٰه إلا هو الخالق الأول، مدبر الأمور كلها، أقسم الذي لا يجوز القسم بسواه، لقد كان سروري يومئذ وأنا في تلك الحال بظفري بالحق فيما كنت مشغول البال به وإشراق الصواب لي أشد من سروري بإطلاقي مما كنت فيه. اهـ[3].

---

(١) تعرض ابن حزم لذكر المستكفي في كثير من مؤلفاته، ووصفه بأنه كان في نهاية الضعة والسقوط والضعف والتأخر.

(٢) بويع المستظهر وهو عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار في رمضان سنة (٤١٤هـ) فاستوزر ابن حزم وابن شهيد، ثم ثار عليه محمد بن عبد الرحمٰن الناصري في شهر ذي القعدة من العام نفسه وقتله وبويع بالخلافة وتلقب بالمستكفي، وقد سجن ابن حزم وابن عمه أبا المغيرة، وأقام في الخلافة ستة عشر شهرًا عاد بعدها أمر قرطبة إلى بني حمود وفر المستكفي إلى ناحية الثغر ومات في مقره.

(٣) رسائل ابن حزم (٤/ ٣٤٦).

وللبحث والاستنباط والتأمّل والتدبّر عند طالب العلم لذة لا يعلم قدرها إلا الله تعالى، وأما القراءة المجردة وتتبُّع الملخصات: فمُتْعتها يسيرة، ومنفعتها محدودة، وتُورث العجز، وموت الخواطر، وأُفول الاستنباط.

وطالب العلم الذي شرّفه الله بميراث الأنبياء:

يثبت حين يهتزّ غيره.

ويتقدم حين يتراجع غيره.

ويصبر حين يجزع غيره.

ويعزم حين يخور غيره.

ويتفاءل حين يتشاءم غيره.

ومنشغلٌ بنفسِه ولم ينس غيره، بينما الجاهل منشغلٌ بغيرِه ونسي نفسه.

ولم تزده المحن إلا ثباتًا.

ولم تزده المصاعب إلا قوة.

ولو لم يكن مِن فضلِ العلم إلا أنه أعظم سببٍ للثبات عند المحن، وللنَّجاةِ من الخوض في الفتن، وللوقايةِ من آفاتِ الانتكاسات: لكفى بذلك فضلًا.

ولتعرف لذة طالب العلم بمكتبته التي هي جنّته، وبكتبه التي هي أفضل صديق له، وبالعلم الذي هو شرفه وثروته وكنزه:

لو طُلب من أي رجل أن يترك هوايته وعمله ويتقاضى ضعف مرتبه: لما تردد.

ووالله لو طلب من طالب العلم الشرعي المخلص الصادق أنْ يترك مكتبته ويتقاضى عشرات الآلاف شهريًّا لما قبِل ذلك.

ولن ينال طالب العلم لذة العلم إلا بعد صبر ومصابرة ومثابرة، وطول اطلاع وبحث، ولقد كان العلماء يُمضون عشرات السنين في تأليف كتاب واحد، فهذا الحافظ الإمام أبو عمر ابن عبد البر أمضى ثلاثين سنة في تأليف كتابه «التمهيد»، وقد قال في آخره بعد أن انتهى منه:

سَمِيرُ فُؤَادِي مُذْ ثَلَاثِينَ حِجَّةٍ ... وَصَيْقَلُ ذِهْنِي وَالْمُفَرِّجُ عَنْ هَمِّي
بَسَطْتُ لَكُمْ فِيهِ كَلَامَ نَبِيِّكُمْ ... بِمَا فِي مَعَانِيهِ مِنَ الْفِقْهِ وَالْعِلْمِ
وَفِيهِ مِنَ الْآدَابِ مَا يُهْتَدَى بِهِ ... إِلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَيُنْهَى عَنِ الظُّلْمِ

ومكث الحافظ ابن حجر في تأليف كتابه «فتح الباري» خمسًا وعشرين سنة.

ومكث بدر الدين العيني في تأليف كتابه «عمدة القاري» سبعًا وعشرين سنة.

ومكث العلَّامة محمد رشيد رضا في تأليف كتابه «تفسير المنار» ستًّا وثلاثين سنة.

فكيف يتكاثر طالب العلم أن يقرأ المطولات، ويزهد فيها ولا يصبر عليها، بزعم أنّ الوقت لا يسمح، أو أنّ العمر ينقضي في قراءة هذه الكتب!

ومِن المتقرّر عند عقلاء الناس وذوي الخبرة: أنّ مَن صدَقَ في طلب شيءٍ مِن الأشياء: فلا بُدّ له مِن الصبر في تحصيلِه بقدر صدقِه في طلبِه.

ولْتكن عنايتُك بالفهم والحفظ والبحث أكثر من عنايتك بكثرة

القراءة وجرد الكتب، فلقد ندم الكثير من طلاب العلم على سنوات قضوها في قراءة مئات الكتب؛ لأنهم لم يصلوا إلى درجة التمكين في العلم، ومن توفيق الله لهم أنهم استشاروا أهل الخبرة فأشاروا عليهم بالبدء بصغار العلم قبل كباره، والعناية بضبط وفهم أصول العلم، وقد قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ ناصحًا طالب علم: «إنْ أحببتَ أنْ ينفعك الله بهذا الأمر فأَقِلّ منه، وتفهَّم فيه، وما أَكَثَرَ أحدٌ قطّ فأفلح»[(١)].

أي: إذا أردت أنْ ينفعك الله بالعلم ويرفعك به: فلا تُكثر القراءة؛ بل افْهم واضبط ما تقرأ، وهذا مُجرّب.

۞ ۞ ۞

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٢/ ٦٥).

لطيفة

أهميّةُ تقييد الخواطر:

ينبغي أنْ تُدوّن ما يخطر في بالك من خواطر مهمّة في أيّ وقت، ولا تقل: إذا ذهبتُ إلى البيت سأدّونها، فسرعان ما تذهب عنك الخواطر المهمة، والقريحة الجيّدة.

واكتب ما يُمليه عليك خاطرك، دون العناية بالألفاظ والبلاغة والمقدمة، ودوِّن ما عَلِقَ بمُخيلتك مباشرةً دون تأجيل؛ لأنك لو أجلّت لضاعت الأفكار والخواطر.

وكتابةُ ما في الخاطر مُباشرةً من أهم الأمور، فكثيرًا ما تلوح في الخاطر عبارات جميلة، وخواطر مُهمّة، فإن لم تدوِّنْها ذهبت، ولو بقيت صعب تدوين الصيغة المناسبة لها، فمن حين ما تأتي الخاطرة تأتي الصيغة المناسبة والأسلوب الجميل معها، ولذلك فمن أشد ما يخسره من يُفرط في تدوين الخواطر ضياعُ الصيغة المناسبة والأسلوب الرائع لها.

وكلّما ازداد علم الإنسان، وعظمت خبرتُه، ونضج عقلُه، وقوي إيمانه بربّه: كثرتْ خواطرُه، وعظم قدرها، وجزل معناها، وعمّ نفعُها.

فالعقولُ كمخالب الطيور الجارحة، كلّما كبرت وطاب نوعُها: كبرت مخالبها وصادت الجزل من الفرائس، ولا تكاد تُخطئ، وإذا كانت صغيرة، أو كان نوعها رديئًا: لا تكاد تصيد، وإن صادت صادت صغار الفرائس وأضعفها.

وأهل العلم الأفاضل أشدُّ حرصًا على صيدِ خواطرهم من الصياد لفريستِه.

وكثيرًا ما يخطر للإنسان شيءٌ فيعجبه ويظن أنه قد عَلِق بذاكرته، فإذا هو في الغد قد ضاع منه، وضاع معه مِفْتاحه، فانتهى إلى حيرةٍ في استعادته واسترجاعه.

فإذا ضاع القيد ذهب الصيد.

وصدق القائل:

فالعِلم صيد والكتابةُ قَيْدُهُ ... قيِّد صُيُودك بالحبال الواثقة
فمن الحماقة أنْ تصيد غزالةً ... وتتركها بين الخلائق طالقة

وإذا لاحت الخاطرة لأحدهم بادر بصيدها، وإذا لم تكن معه آلة الصيد ـ كالقلم والورق ـ: لم تسمح له نفسُه بتأخير صيدها خوفًا من ضياعها وهروبها، فيتحيّل لذلك بشتى الحيل، كأنْ يرددها حتى يحفظها.

ولو كان في مكانٍ لا يتمكن فيه من الصيد لم يدعها تذهب؛ كأن يكون يقود السيارة، أو مع أصحابه أو قبيل خطبته أو درسه أو محاضرتِه، ولهم مواقف طريفة في ذلك.

والخواطر كالبرق، في سرعةِ مُرورها وذهابِها وقوةِ إضاءتها، وبعض أنواع البرق يكون قويًّا جميلًا مُضيئًا، وبعضه ضعيفًا خافتًا، وكذلك الخواطر، فهي ترد على الذهن وتزول بسرعة غالبًا، وبعض الخواطر تكون جميلةً نافعةً، وإذا أحسن صاحبها استغلالها وتوظيفها عظم نفعُها، وعمّ خيرُها، وجلّ تراث العلماء واختراعات المخترعين كانت في بدايتها خاطرة عابرة.

وبعض العامة قد تخطر لهم خواطر لا تخطر على أذكياءِ الناس، ولقد قيّدت خواطر بعض عامة الناس وفرحت بها، وبادرتُ إلى تقييدها بأسلوبي مع شيء من الإضافات والتجميل.

وكنت أعجب من تلك الخواطر كيف مرت على عقولهم، وجرت على ألسنتهم.

٣٤ ـ [لا تجعل قَلْبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشربها فَلَا ينضح إلا بهَا، وَلَكِن اجْعَلْهُ كالزجاجة المصمتة، تمر الشُّبُهَات بظاهرها وَلَا تَسْتَقِر فِيهَا، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وَإِلَّا فإذا أَشْرَبْتَ قَلْبك كلَّ شُبْهَة تمر عَلَيْهَا صَار مقرًّا للشبهات][(١)].

يا لها من قاعدة عظيمة في التعامل مع الشبهات التي تَرِدُ على المسلم، وهذه القاعدة حصنٌ منيعٌ أمام هذه الشبهات.

ومن لا يُحسن التعامل مع الشبهات وقع فيها، ولوثت قلبه، ومسخت إيمانه، وشتت فكره، وعكّرت مزاجه، وشوشت تصوره، فكان لزامًا أن يعرف المسلم الوسيلة الصحيحة التي يتعامل بها مع الشبهات.

وخلاصة هذه القاعدة: أنَّ القلوبَ نوعان:

النوع الأول: قلب كالسفنجة، يتشرب الشبهات، ولَا ينضح إلا بهَا، وهذا حال من يسمح لقلبه أن يتقبل الشبهات، وينظر فيها، والشبهة على اسمها: تُلَبِّس على من نظر فيها وتُشْرِبُه الاشتباه واللبس.

النوع الثاني: قلبٌ كالزجاجة المغلقة من جميع جوانبها، لا يُمكن للوسخ أن يُلوث باطنها، ولا يتشبث بظاهرها، وهذا حال القلب الصحيح، تمر الشُّبُهَات بظاهره وَلَا تَسْتَقِر فِيه، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته.

ولأجل هذا: حذر السلف الصالح من مُجادلة أهل الأهواء؛ لأن

---

(١) قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كما في مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٠).
قَالَ ابن القيِّم رحمه الله تعالى: فَمَا أعْلَم أني انتفعت بِوَصِيَّة فِي دفع الشُّبُهَات كانتفاعي بذلك.

من يُجادلهم ـ خاصة إذا لم يكن متمكنًا ـ سيسمع شبهة قد تُلوث عقيدته، وتُفسد إدراكه.

قال أبو قلابة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في الضلالة، أو يُلَبِّسُوا عليكم في الدين بعض ما لُبِّسَ عليهم.

وجاء رجل إلى الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: يا أبا سعيد، تعال حتى أخاصمك في الدين، فقال الحسن: أمَّا أنا فقد أبصرت ديني، فإن كنتَ أضللتَ دينك فالْتمسه(١).

وإذا كان المؤمن منهيًّا عن مُجادلتهم، فكيف بمن يُجالسهم! أو ينظر في شبهاتهم في مواقع التواصل ونحوها ويستمع لها!

وكم وقع بعض المسلمين ـ بل وبعض طلاب العلم ـ في الانحرافات الفكرية والعقديّة بسبب التساهل في مُجالسةِ أهل الأهواء أو مُجادلتِهم، أو الدخولِ في مواقع التواصل التي تحمل أفكارهم.



(١) حياة السلف بين القول والعمل للمؤلف (ص٧٨).

لطيفة

لكتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مزايا جليلة، فهي تغّذي الحياة الإيمانية، وتنقل قارئها من الحياة الدنيا والتعلق بها، إلى الحياة الآخرة والتعلق بها، ويذوق طعم القراءة ومتعة الخلوة، ولذة الحياة، وتصنع العقول، وتزيل الشكوك، وتُثير الهمّة، وتقوي العزيمة.

فيا خسارة من زهد فيها، ولم يُكثر قراءتها، وجعلها زينةً لمكتبته فحسب، ولم يجعلها غذاءً لقلبه وعقله، ودواءً لأمراض الجهل والقلب.

والطريقةُ الصحيحة والنافعةُ لقراءتها ـ حسب تقديري ـ أنْ يقرأ قبلها هذه الكتب على الترتيب:

١ ـ كتب الحافظ ابن رجب رحمه الله، «الجامع المنتخب»، ثم «رسائل ابن رجب»، ثم «جامع العلوم والحكم»، ثم «فتح الباري».

٢ ـ كتب العلَّامة ابن القيِّم رحمه الله، «الفوائد»، ثم «الجواب الكافي»، ثم «مفتاح دار السعادة»، ثم «إغاثة اللهفان»، ثم «مدارج السالكين»، ثم «الصلاة وأحكام تاركها»، ثم «زاد المعاد»، ثم «فوائد الفوائد»، ثم «الطرق الحكمية»، ثم «إعلام الموقعين».

ثم يبدأ بعدها بقراءة كتب شيخ الإسلام:

«الاستقامة»، ثم «الواسطية» مع أحد الشروح لها، ثم «التدمريّة» مع أحد الشروح لها، ثم «قاعدة في التوسل والوسيلة»، ثم «قاعدة في

المحبة»، ثم «اقتضاء الصراط المستقيم»، ثم «جامع المسائل» (٨ مجلدات)، ثم «مجموع الفتاوى»[١].

(١) وقد يسّر الله لي تهذيب مجموع الفتاوى والمستدرك عليه بحمد الله وفضلِه، وقد طبعته دار ابن الجوزي.

٣٥ ـ [ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ اللهِ دَوَاءٌ][1].

عبارة عظيمة مُجرّبة، وكنت لمستُ صدقها وصحتها من خلال مجالس الناس، فالمجلس الذي يجري فيه ذكر الناس ولو لم يكن فيه غيبة ونميمة فإنه يُصيب القلب بالغفلة، ولا يطرد هذه الغفلة إلا ذكر الله تعالى في النفس وعند الناس.

وإنّ المجالس التي يجري فيها ذكر الناس لا تَخْلُوا مِن **أمرين**:

الأمر الأول: أن يجري فيها مدح أحد من الناس الأحياء ـ خلا أهل العلم والفضل الكبار قدرًا وسنًّا ـ.

الأمر الثاني: أن يجري فيه ذمٌّ لأحد من الناس من أهل الإسلام.

فأما الأول: فهو قد يبعث على الحسد أو ازدراء النعمة غالبًا.

وأما الثاني: فهو يبعث على الغيبة والنميمة، أو الكلام فيما لا ينفع.

فكلاهما يُقسيان القلب ويُمرضانه.

فما أعظم هذه العبارة، ولذلك علّق عليها الإمام الذهبي رحمه الله تعالى بقوله: «إِيْ وَاللهِ، فَالعجَبُ مِنَّا، وَمِنْ جَهلِنَا، كَيْفَ نَدَعُ الدَّوَاءَ، وَنقتحِمُ الدَّاءَ؟! قَالَ اللهُ ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢]، ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العَنكبوت: ٤٥]، وَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرّعد: ٢٨] وَلَكِنْ لَا يَتَهَيَّأُ ذَلِكَ إِلَّا بِتوفِيْقِ اللهِ، وَمَنْ أَدْمَنَ الدُّعَاءَ، وَلَازَمَ قَرْعَ البَابِ، فُتِحَ لَهُ». اهـ.

---

(١) قاله ابْن عَوْنٍ كما في سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ٣٦٩).

ومَن أَكْثَرَ مِن ذكر الله في الرخاء: جرى على لسانِه في شدة البلاء.

ولقد كانت تصدر مني بعض العبارات المعتادة على الألْسُن التي تُقال عند الألم المُفاجئ، كأن يَجْرح يدي شيءٌ، أو يحدث شيء مفاجئ فأُصاب بروعة، ولا أذكر الله حينها، فأتساءل وأقول: لماذا لا يجري ذكر الله على لساني جريًا لا شعوريًّا؟

والعبارات التي تُقال عند الألم المفاجئ: لا يُمكن التحكم بها؛ بل تجري على اللسان بلا إرادة ولا سيطرة.

وبعد فترة من الزمن: وفقني الله لملازمة: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وسبحان الله وبحمده، بعد أن وقفت على فضل هذا الذكر وأجره[1]، فواظبت عليه ولله الحمد والمنّة.

وفي يوم من الأيام: أغلقت باب السيارة على أصبعي فشعرت بألم شديد فجرى على لساني: لا إلٰه إلا الله!! دون قصد مني، فتذكرت ما حيرني منذ زمن طويل، وعرفتُ السبب، وهو: أن من أكثر من ذكر شيء جرى على لسانه عند المصائب والخوف والموت.

وعرفت سرّ ما جاء بأن من قال لا إلٰه إلا الله عند الاحتضار فهو

---

(١) ثبت في الصحيحين واللفظ لمسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ، يَوْمَهُ ذَلِكَ، حَتَّى يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.**
وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ».

علامة على حسن الخاتمة؛ لأن اللسان لا يُمكن أنْ ينطق بها إلا إذا كان قد أدمن عليها أيام الرخاء والصحة.

فأكثر من ذكر الله تعالى في الرخاء، يكون على لسانك في شدة البلاء.

ومن أعظم فوائد ملازمة ذكر الله تعالى: أنه يَمْنَعُ الشَّيْطَانَ مِن الدُّخُولِ إلَى قَلْبِه الذاكر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ الشَّيْطَانَ إنَّمَا يَمْنَعُهُ مِن الدُّخُولِ إلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ مَا فِيهِ مِن ذِكْرِ اللهِ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، فَإِذَا خَلَا مِن ذَلِكَ تَوَلَّاهُ الشَّيْطَانُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزّخرُف: ٣٦]. اهـ[1].

ومن استراح بغير ذكرك أو رجا أحدًا سواك فذاك ظلّ زائل

وقد أمر الله تعالى بالإكثار من ذكر الله حتى في أصعب الحالات، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفَال: ٤٥]، قال صاحب «الكشاف»[2]: «فيه إشعار بأنّ على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلبًا وأكثر ما يكون همًّا، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره». اهـ.



(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٩٩).
(٢) (٢/ ٢٢٦).

لطيفة

إنَّ كلَّ شهادةٍ تصدر من أهل الاختصاص فهي الشهادة المقبولة التي يحق لصاحبها أن يفرح بها.

فالشهادة في العلم التي تصدر من عالم شرعيّ: مقبولة مُعْتدٌّ بها، وهي وسام شرف لصاحبها.

والشهادة في الأدب التي تصدر من عالم أديب: مقبولة مُعْتدٌّ بها، وهي وسام شرف لصاحبها.

ولكن ما هي الشهادة في الأخلاق التي يُعتد بها، وتصح أن تكون شهادة يُفتخر بها؟

إننا نجتهد في حسن التعامل مع الأكابر والأقران ومن تربطنا بهم مصالح، وقد يُبالغ بعض الناس في حسن تعامله معهم، وكرمهِ لهم، ومن الطبيعي أن يشهدوا له بحسن الأخلاق، وكرم الطباع، ولكن قد يكون المشهود له إنما أحسن تعامله معهم لمصلحة معهم، أو رغبة في تجنب أذاهم، أو تملقًا ونفاقًا.

ولكن الشهادة الصحيحة التي لا تعتريها أدنى شبهة في صحتها وقوتها وسلامتها من أي غرض:

١ ـ شهادة العدو المبغض.

وهذه هي المقدَّمَة، وقلّ من يحوز عليها.

وقد حاز عليها العظماء، كشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ الذي قال عنه قاضي المالكية ابن مخلوف ـ وهو من أكبر وألدّ أعدائه ـ: «ما رأينا

مثل ابنِ تَيْميَّةَ، حرَّضْنا عليه، فلم نَقْدر عليه، وقَدَرَ علينا فصفح عنَّا وحاجَجَ عنَّا»[(١)].

٢ ـ شهادة الفقراء والمساكين والبسطاء من الناس، الذين لا تربطه بهم أي مصلحة من عمل أو غيره.

فمن شهد له هؤلاء على اختلاف أعمالهم وجنسياتهم بالأخلاق الفاضلة، فهي الشهادة التي يحق له أن يفرح بها، ويجعلها ذُخرًا له يوم القيامة.

لأنها لا تصدر إلا مِن قلب صادق، ولا يبوح بها إلا من رأىَ التعامل الصادق العظيم.

وحسن التعامل مع هؤلاء هو السالم من النفاق والمصالح والأهواء، وهو الذي يدل على تجذر الأخلاق في قلب صاحبه.

٣ ـ شهادةُ أحد الزوجين للآخر، وكذلك أهل البيت الواحد، حيث إنّ كثرةَ الخلطةِ تُجلّي أخلاقَ الإنسان.

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٥٤).

٣٦ ـ [إنَّ الكبيرَ من أئمة العلم إذا كَثُرَ صوابُه، وعُلم تحرِّيه للحقّ: يُغفرُ له زلَلُه، ولا نُضَلِّلُه ونَطْرَحُه، ونَنْسَى محاسنه.

نعم! ولا نَقْتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبةَ من ذلك.

ولو أنَّ كلَّ من أخطأ في اجتهاده ـ مع صحة إيمانه، وتوخِّيه لاتِّباع الحقّ ـ أهدرناه، وبَدَّعناه: لقلَّ منْ يَسْلَم من الأئمة معنا](١).

إنَّ مِن أعظم سمات أهل السُّنَّة والجماعة: الأخذَ بحسن الظن، وعدمَ تتبع الزلات، والْتماسَ الأعذار لمن ظاهره الصلاح، وسترَ العيوب لا فضحها.

ومن سمات المبتَدِعَة وأهلِ الأهواء: القدحُ في كلِّ من يُخالفهم ـ ولو كان الخلافُ في مسائلِ الاجتهادِ التي يسوغُ الاجتهاد فيها ـ وتتبعُ الزلات والعثرات، والقدحُ في النيات.

وقد أجمع علماءُ الأمة سلفُهَا وخلَفُها على أنَّ مَن عُرف عنه الخيرُ والصلاح لا يجوز القدحُ فيه إلا بدليلٍ وبرهانٍ قاطعٍ، فإنْ ثبت بالدليل خطؤه وزللُهُ، في أمرٍ يسوغُ أو يُعذَرُ الاجتهاد فيه، فلا يجوز أيضًا سبُّه والطعنُ فيه؛ بل يجب أنْ يُردَّ خطؤه ولا يُقدَحُ في شخصه.

قال سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس من عالمٍ ولا ذي فضلٍ إلا وفيه عيْب، ولكنْ مَن كان فضلُه أكثرَ من نقصه ذَهبَ نقصُه لفضله، كمَا أنَّه مَن غلب عليه نقصانُه ذَهب فضلُه»(٢).

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ٢٧١، ١٤/ ٣٧٦).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ٤٨).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكثيرٌ من مجتهدي السلف والخلف، قد قالوا وفعلوا ما هو بدعةٌ ولم يعلموا أنه بدعة، إما لأحاديثَ ضعيفةٍ ظنوها صحيحة، وإما لآياتٍ فهموا منها ما لم يُرَدْ منها، وإما لرأيٍ رأوه وفي المسألة نصوصٌ لم تبلغهم، وإذا اتقى الرجل ربه ما استطاع دخل في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]»[١].

هذا هو منهج أهل السُّنَّة والجماعة، وهذه هي أخلاقنا وقيمنا، وهي التي يوم أنْ حَقَّقها السلف الصالح تآلفت قلوبهم، وحينما تركها مَن تركها مِن الخلف تفرقت قلوبهم، وفسَّق بعضُهم بعضًا ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

وغيبة العلماء والدعاة وأهل الصلاح والنفع من أهل السُّنَّة والجماعة أشدّ من غيبة عوامّهم؛ فغيبتهم لا يسري ضررها عليهم فحسب؛ بل يسري إلى كثير ممن ينتفع بهم، فكم صُرف أُناس عن الانتفاع بهم والاستفادة منهم بسبب قدح فلان وقدح فلان بهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلِذَلِكَ تغلظت الْغِيبَةُ بِحَسَبِ حَالِ الْمُؤْمِنِ، فَكُلَّمَا كَانَ أَعْظَمَ إيمَانًا كَانَ اغْتِيَابُهُ أَشَدَّ».اهـ[٢].

وإنَّ مَنْ يُخرج مسلمًا يُصلي ويصوم عن ولائه ومحبته، وهو لا يُجاهر بالكبائر والمعاصي، سيُسأل بأيّ حُجةٍ أخرجته من ولائك، فكيف إذا كان من أفاضلِ الدعاة والمصلحين؟

وقد قَالَ ﷺ: «**مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا،**

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٩١ ـ ١٩٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٢٥).

فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ». رواه البخاري[١].

وما كان العقلاء يتصورون ولا يخطرُ ببالهم أنْ يقع كثيرٌ من الناس في أعراض دُعاتنا وخطبائنا؛ بل وبعضِ علمائنا، والعَجَبُ العُجَابُ أنَّ الواقع في هذا القدح الْمُقذع: أناسٌ نحسبهم من أهل الخير والصلاح، وربما لم يَقُولوا عُشْرَه على أكْفر خلْق الله تعالى، كفرعون وهامان وأبيِّ بنِ خلف، ولا على مُجْرِمي الصهاينة أثناء عُدوانهم على غزة، ولا على مُجرمي العراق والشامِ أثناء عُدوانهم على شعوبهم.

وإلى كلِّ مَن وقع في أعراض هؤلاء الدعاة وغيرهم: هل رأيتَ بأمِّ عينِك فعلًا أو قولًا منهم يُبيحُ لك القدحَ فيهم، عندك فيه حُجةٌ قاطعةٌ تُواجِهه بها عند ربّك تبارك وتعالى؟ أمْ قَدْحُك إنما هو مِن قَبِيْلِ الظّنّ؟

أيْن أنتَ مِن قولِه تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحُجرَات: ٦].

والأمرُ الْمُحزنُ أنَّ أكثر القادحين في الدعاة وأهل العلم: لم يكن سببُ قدحِهِم خبرَ فاسقٍ معلوم؛ بل وصلوا إلى أشنعِ من ذلك، وهو أن الخبرَ جاء من مجهولِ الحسبِ والدينِ والذَّات، فقد تلقَّفوا ذلك من مقاطع مُقتَضبةٍ في الشبكة العنكبوتية، مُجْتزأةٍ ومُقطَّعة، يُوهمون فيها الناس بأن الدعاة مُتناقضون، وأنهم يحملون أفكارًا خطيرةً.

فيا مَن تقدح في الدعاة وأهلِ العلم: هل تَعَامُلُكَ معهم على مبدأ حُسْنِ الظنِّ الذي أَمَر الله به المؤمنين في قوله: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢﴾ [النُّور: ١٢].

(١) (ص٣٩١).

قال العلَّامة السعديُّ رَحِمَهُ اللهُ «أي: لولا ظنَّ المؤمنون بعضُهم ببعضٍ خيرًا، وهو السلامة مما رُموا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم، يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل، وَقَالُوا بسبب ذلك الظن: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢﴾ [النُّور: ١٢]؛ أي: كذبٌ وبُهْتٌ مِن أعظم الأشياء، فهذا من الظن الواجب، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمنِ مثلَ هذا الكلام، أن يُبَرِّئَه بلسانه، ويكذبَ القائل لذلك». اهـ[١].

فهل تعاملتَ معهم بهذا الْمَبدَأ الذي أُمرتَ به، أم تعاملتَ معهم على سوء الظن، وتتبع الزلات الذي نُهيتَ عنه؟

صَعَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ**»[٢].

ويُقال لهم أيضًا: ألَا يحتمل أنْ يكون في قولِكم وقدْحِكم خطأٌ ولو قليلًا؟ ألا يحتمل أنْ تكونوا قد وقعتم في زللٍ، وكلامٍ لا يُرضي اللهَ تعالى؟

فإنْ كان الجواب بِنَعَمْ، فالعاقل يتجنب أيَّ قولٍ قد يُحاسَبُ عليه يوم القيامة، العاقل يخشى أنْ يكون مِمَّنْ قَالَ فيه ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**». متفق عليه[٣].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٥٦٣).
(٢) رواه الترمذي (٢٠٣٢)، وصححه الألباني.
(٣) البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).

كلمةٌ واحدةٌ تَهْوِي بِه فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، فكيف بعشرات الكلمات التي لم تتَبَيَّنْ مَا فِيهَا وتفوّهت بها في عشرات المجالس! كيف بالطعن والدخول في نيات الدُّعاة والمشايخ!

حاسبْ نفسك قبل أنْ تُحاسَب، فوالله لَيُحاسبنَّك الله تعالى على كلّ كلمةٍ قلتَها بغير حق، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [قٓ: ١٨].

مَا تَلْفِظُ أيها المسكينُ مِنْ قَوْلٍ، وما تتكَلَّم مِن كلمة، إلا ولها من يُراقبها، لا يترك كلمةً إلا أوقفكَ أمامَ الله ليُحاسِبَكَ عَلَيْهَا، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

فيا من تقعون في أعراض دُعاتنا وخطبائنا، لقد خدمتم أهل النفاق والانحلال خدمةً عظيمة، حيث كَفَيْتُمُوهُمُ السبّ والقدح، فقد كانوا سابقًا يفعلون ذلك لِوَحدهم، أمَّا الآن، فقد وجدوا مَن يَخْدِمُهُم ويُعِيْنُهم، فيا خسارةَ مَن وقَفَ في صفِّ أعداءِ الله، ضدَّ الدعاة في سبيلِ الله.

وأخيرًا: لنتأمل في قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: مَنْ جَعَلَ كُلَّ مُجْتَهِدٍ فِي طَاعَةٍ أَخْطَأَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ مَذْمُومًا مَعِيبًا مَمْقُوتًا فَهُوَ مُخْطِئٌ ضَالٌّ مُبْتَدِعٌ. اهـ[(١)].

❁ ❁ ❁

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١٥).

لطيفة

لو كان النبيُّ ﷺ في موقفي ماذا كان سيفعل؟

اجعل هذا السؤال دائمًا حاضرًا:

١ ـ عندما ترى ما يُؤذيك من تصرفاتٍ بعض الناس وسوء تعاملهم.

٢ ـ وعندما ترى بعض مآسي المسلمين وتسلّط الأعداء عليهم.

٣ ـ وعندما تُبسط لك الدنيا وتُعجب بزخرفها.

٤ ـ وعندما تفتر همّتك في العبادة والأعمال الصالحة.

وستجد لذلك أثرًا عظيمًا عليك، وتغيّرًا في تصرُّفاتك وتصوُّراتِك، وسوف تزداد تعظيمًا وحُبًّا للنبيّ ﷺ واتّباعًا له، وسيكون قدوتك حقًّا في كلّ شيء.

أعرف رجلًا دخل في وقتٍ مُتأخّرٍ من الليل على زوجتِه بعد مضيّ عدة أشهر من زواجهما، فنادته من حين دخولِه بأنْ يُساعدها في تنشيف الملابس! قال: فغضبت غضبًا شديدًا وقلت في نفسي: كيف تجرّأت على أن تأمرني بذلك؟ وكنت أخبرتها مرارًا بألا يكون الليل وقتًا لأشغالِها وأعمالِها المنزليّة.

وحينما هَمَمْتُ بأنْ أُعاتِبها: قلت في نفسي: لو كان النبيُّ ﷺ في موقفي ماذا كان سيفعل؟

فتذكرتُ قول عَائِشَةَ رضي الله عنها عندما سُئلت: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: «كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ ـ تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ ـ فَإِذَا حَضَرَتِ

الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ»[(١)].

وفي رواية: «كَانَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ»[(٢)].

فقلت في نفسي: وهل أنا أكرم مِن النبيّ ﷺ، الذي كان يخدم أهله ويُساعدهم؟

فذهب عني الغضب تمامًا، وقمتُ بالعمل وأنا منشرحُ الصدر مسرورٌ، حيث خالفتُ هواي، واقْتديت بالنبيّ الكريم ﷺ.



(١) رواه البخاري (٦٧٦).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٥٣٤١)، وصححه الألباني «المشكاة» (٥٩٢٢).

٣٧ ـ [من علامات الخشوع: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا خُولِفَ وَرُدَّ عَلَيْهِ بِالْحَقِّ: اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِالْقَبُولِ وَالِانْقِيَادِ.

ولَا تَصِحُّ لَكَ دَرَجَةُ التَّوَاضُعِ، حَتَّى تَقْبَلَ الْحَقَّ مِمَّنْ تُحِبُّ، وَمِمَّنْ تُبْغِضُ، فَتَقْبَلُهُ مِنْ عَدُوِّكَ، كَمَا تَقْبَلُهُ مِنْ وَلِيِّكَ.

ومن تكبر عن الانقياد للحق ـ ولو جاءه على يد صغير أو من يُبغضه أو يُعاديه ـ فإنما تكبُّره على الله؛ فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته ومنه وله، فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله: فإنما رد على الله وتكبّر عليه][١].

كانت لهذه الكلمات أعظم الأثر على منهجي تجاه سماع النقد وقبول الحق، وقد كان الأمرُ في البداية مريرًا، خاصة إذا جاء بأسلوب غير مناسب، أو جاء من صغير في السن أو العلم، ولكن بعد المران أصبح الأمر يسيرًا والحمد لله.

ولقد ضرب سلفنا الصالح رحمهمُ الله أروعَ الأمثلةِ في قبول الحقّ من أيِّ أحدٍ كان، والرُّجوعِ إليه، وعدمِ الحرج من ذلك؛ لعلمهم بأنَّ عدمَ الاعترافِ بالحق: هو الكِبْر بعينه، كما قال ﷺ: «**الكِبْر بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناسِ**»[٢].

فالمتكبر يرد الحق، ويُعرض عنه ولا يقبله؛ لأنه معتدٌّ برأيه، جازمٌ بصواب عمله، ومع ذلك يحتقر الناس ويزدريهم؛ لأنه يرى نفسه فوقهم.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيِّم رحمه الله (١/٥١٦، ٢/٣٢١، ٢/٣١٧).

(٢) رواه مسلم (٩١).

وهذه بعض النماذج الجميلة، والأمثلة العظيمة، في قبول الحق، والرُّجوعِ إليه، دون تكبُّرٍ وأنَفة:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: سُئل عبد الله بنُ الحسن العنبريُّ رَحِمَهُ اللهُ ـ وهو يومئذ قاضي البصرة، وله مكانةٌ ومنزلةٌ عند الناس ـ عن مسألةٍ فأخطأ في الجواب، فقال له صبيٌّ أمام الناس: أخطأتَ أيها القاضي، الحكم فيها كذا وكذا، فطأطأ رأسه قليلًا ثم قال: إذًا أرجع وأنا صاغر؛ لَأن أكون ذَنَبًا في الحق، أحبُّ إليَّ مِن أنْ أكون رأسًا في الباطل.اهـ(1).

وقال المفسرُ البَقاعيُّ رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: «مقاصدُ النظر»: «ما تركت أحدًا ممن يُلِمُّ بي إلا قلتُ له: من وجد لي خطأً فليخبرني به لِأُصْلحه، ووالله الذي جلَّت قدرته، وتعالَتْ عظمته، لو أن لي سعةً تقومُ بما أُريد، لكنتُ أبذل مالًا لمن يُنبهني على خطئي، فكلَّما نبهني أحدٌ على خطأ أعطيتُه دينارًا.

ولقد نبهني غيرُ واحدٍ على أشياءَ فأصلحتها، وكنت أدعو لهم وأُثني عليهم».اهـ.

وقال ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ: أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ قَاسِمٍ الْعُثْمَانِيُّ قال: جِئْت مَجْلِسَ الشَّيْخِ أَبِي الْفَضْلِ الْجَوْهَرِيِّ ـ والجوهريُّ من أئمة اللغة وحُفَّاظها ـ.

قال: وَحَضَرْت كَلَامَهُ عَلَى النَّاسِ، فَكَانَ مِمَّا قَالَ فِي أَوَّلِ مَجْلِسٍ جَلَسْت إلَيْهِ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَلَّقَ وَظَاهَرَ وَآلَى، فَلَمَّا خَرَجَ تَبِعْته وقُلْت لَهُ: سَمِعْتُك تَقُولُ: آلَى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصَدَقْت، وَطَلَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصَدَقْت، وَقُلْت: وَظَاهَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهَذَا لَمْ يَكُنْ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ

(1) البداية والنهاية (١٠/ ٢١٧).

يَكُونَ؛ لِأَنَّ الظِّهَارَ مُنْكَرٌ مِنَ الْقَوْلِ وَزُورٌ؛ وَذَلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ.

فَضَمَّنِي إِلَى نَفْسِهِ وَقَبَّلَ رَأْسِي وَقَالَ لِي: أَنَا تَائِبٌ مِنْ ذَلِكَ، جَزَاكَ اللهُ عَنِّي مِنْ مُعَلِّمٍ خَيْرًا، ثُمَّ انْقَلَبْتُ عَنْهُ، وَبَكَّرْت إِلَى مَجْلِسِهِ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي، فَأَلْفَيْته قَدْ سَبَقَنِي إِلَى الْجَامِعِ، وَجَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَلَمَّا دَخَلْتُ مِنْ بَابِ الْجَامِعِ وَرَآنِي، نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: مَرْحَبًا بِمُعَلِّمِي، أَفْسِحُوا لِمُعَلِّمِي، فَتَطَاوَلَتْ الْأَعْنَاقُ إِلَيَّ، وَحَدَّقَتْ الْأَبْصَارُ نَحْوِي حَتَّى بَلَغْتُ الْمِنْبَرَ، وَأَنَا لِعِظَمِ الْحَيَاءِ، لَا أَعْرِفُ فِي أَيِّ بُقْعَةٍ أَنَا مِنْ الْأَرْضِ، وَالْجَامِعُ غَاصٌّ بِأَهْلِهِ، وَأَسَالَ الْحَيَاءُ بَدَنِي عَرَقًا، وَأَقْبَلَ الشَّيْخُ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ لَهُمْ: أَنَا مُعَلِّمُكُمْ، وَهَذَا مُعَلِّمِي؛ لَمَّا كَانَ بِالْأَمْسِ قُلْت لَكُمْ: آلَى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَطَلَّقَ وَظَاهَرَ، فَمَا كَانَ أَحَدٌ مِنْكُمْ فَقُهَ عَنِّي وَلَا رَدَّ عَلَيَّ، فَاتَّبَعَنِي هذا إِلَى مَنْزِلِي، وَقَالَ لِي كَذَا وَكَذَا، وَأَعَادَ مَا جَرَى بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأَنَا تَائِبٌ عَنْ قَوْلِي بِالْأَمْسِ، وَرَاجِعٌ عَنْهُ إِلَى الْحَقِّ؛ فَمَنْ سَمِعَهُ مِمَّنْ حَضَرَ فَلَا يُعَوِّلْ عَلَيْهِ، وَمَنْ غَابَ فَلْيُبَلِّغْهُ مَنْ حَضَرَ، فَجَزَاهُ اللهُ خَيْرًا، وَجَعَلَ يَحْفُلُ فِي الدُّعَاءِ، وَالْخَلْقُ يُؤَمِّنُونَ.

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَانْظُرُوا رَحِمَكُمْ اللهُ إِلَى هَذَا الدِّينِ الْمَتِينِ، وَالِاعْتِرَافِ بِالْعِلْمِ لِأَهْلِهِ عَلَى رُءُوسِ الْمَلَإِ، مِنْ رَجُلٍ ظَهَرَتْ رِيَاسَتُهُ، وَاشْتُهِرَتْ نَفَاسَتُهُ، لِغَرِيبٍ مَجْهُولِ الْعَيْنِ، لَا يُعْرَفُ مَنْ، وَلَا مِنْ أَيْنَ، فَاقْتَدُوا بِهِ تَرْشُدُوا. اهـ(١).

وقال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أخبرك بحكاية لولا رجاؤنا في أن يسهل بها

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٢٣٠).

الإنصاف على من لعله ينافره ما ذكرناه، وهي: أني ناظرت رجلًا من أصحابنا في مسألة فعلوته فيها لبكوء[1] كان في لسانه، وانفصل المجلس على أني ظاهر، فلما أتيت منزلي حاك في نفسي منها شيء، فتطلبتها في بعض الكتب فوجدت برهانًا صحيحًا يبين بطلان قولي وصحة قول خصمي، وكان معي أحد أصحابنا ممن شهد ذلك المجلس فعرفته بذلك، ثم رآني قد علمت على المكان من الكتاب، فقال لي ما تريد فقلت: أريد حمل هذا الكتاب وعرضه على فلان وإعلامه بأنه المحق وأني كنت المبطل وأني راجع إلى قوله!

فهجم عليه من ذلك أمر مبهت وقال لي: وتسمح نفسك بهذا!

فقلت له: نعم، ولو أمكنني ذلك في وقتي هذا لما أخرته إلى غد.

واعلم أن مثل هذا الفعل يُكسبك أجمل الذكر مع تحليك بالإنصاف الذي لا شيء يعدله، ولا يكن غرضك أن توهم نفسك أنك غالب، أو توهم من حضرك ممن يغتر بك ويثق بحكمك أنك غالب، وأنت بالحقيقة مغلوب، فتكون خسيسًا وضيعًا جدًّا، وسخيفًا البتة، وساقط الهمة. اهـ[2].

وألَّف الحافظ عبد الغنيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، كتابًا فيه أوهامُ وأخطاءُ الحاكم أبي عبدِ الله، صاحبِ الْمُستدركِ على الصحيحين، فلما وقف عليه الحاكمُ رَحِمَهُ اللَّهُ، جعل يقرؤه على الناس، ويعترف لعبد الغنيِّ بالفضل، ويشكره على ذلك، ويرجعُ إلى ما أصاب فيه من الردِّ عليه رحمهما الله[3].

---

(١) أي: نقص، وذلك لعدم فصاحتِهِ وبيانه مقارنةً مع ابن حزم.
(٢) رسائل ابن حزم (٤/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).
(٣) البداية والنهاية (١٢/ ٧٥).

انظر وتأمل إلى صدقِ وسلامةِ قلوب سلفنا الصالح، يفرحون بمن يُخبرهم بأخطائهم وعُيُوبهم، ويتمنى بعضُهم أنْ لو كان غنيًّا، فيُكافئ مَن يدُلُّهم على خطئهم.

ولا يأنفون إذا خطَّأ الطالبُ أحدَهم؛ بل يُكرمونه ويَنْسِبُون الفضلَ له، فهكذا ينبغي أنْ يسير عليه المعلمون في هذا الزمن، ومَنْ يتصدَّرون مجالس العلم في المساجد والجامعات.

وقارن هذا مع حال كثيرٍ من عامَّتنا وخاصَّتنا، حيث يجدون حرجًا إذا نُبِّهوا على خطأٍ فيهم، وينتقدونه بأنه ليس أهلًا أنْ يُخطِّئَهم.

كم رأينا مِن أناسٍ ذُكِّروا بخطأٍ فيهم، وعيبٍ في سلوكهم وأخلاقهم، فلا يفرحون بذلك؛ بل يذمُّونه ويحتقرونه، إما لأنه يصغرهم سنًّا أو منصبًا، وإما جهلًا منهم، أنه سيقلّ قدرهم إذا قبلوه.

وسلفُنا الصالح رحمهم الله، يُعلنون في منابرهم أنهم قد أخطؤوا، وأنَّ فلانًا من الناس، هو مَن دلَّهم على ذلك، ويشكرونه ويُثنون عليه أمام الناس.

فما أعظم هذا المنهجَ العظيم، فلْنسر عليه، ولْنقبلِ الحق ونأخذْ به، ولا نتحرَّجْ أبدًا من ذلك، ولْنعترفْ بالفضل لمن جاء به.

ولم يكن هذا المنهج الشريف في الزمن السابق فحسب؛ بل هو خُلُقٌ تمسك به الأفاضل من العامّةِ والعلماء، وسار عليه العظماء والكرماء، وسأكتفي بمثال واحد من المتأخرين: وهو العلَّامة أحمد شاكر رحمه الله تعالى، فقد حقَّق كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة، فجاء السيد أحمد صقر وهو أصغر منه بكثير فنقد كثيرًا مِن عمله وآرائه وتحقيقاتِه، فما كان من العلَّامة أحمد شاكر إلا أنْ أثبت في مقدمة

تحقيقه كامل نقد السيد أحمد صقر، ولم يجد في ذلك حرجًا ولا غضاضةً عليه ولا تنقّصًا له، وقال: «ورأيت أن الأمانة العلمية تقتضيني أن لا أتصرف في نقد الأستاذ (السيد صقر) على ما فيه من هنات، أو تحامل اعتاده كثير من شباب هذا العصر العجيب.

ولا بأس عليّ من ذلك، فما كان من نقده صوابًا وإرشادًا إلى خطأ وقعت فيه، تقبلته راضيًا شاكرًا وصححته في هذه الطبعة، وما كان منه خطأً أو تحاملًا لم أفكر في التعقيب عليه إلا فيما ندر، وما كان من مواضع اختلاف وجهة النظر تركته للقارئ يرى فيه رأيه، فيقبل منه ما يقبل ويرفض منه ما يرفض. فما يكون لي على الناس من سلطان أفرض به رأيي عليهم، وما كان هذا من أخلاق العلماء».

ثم قال بعد ذلك: «ولقد زعم كثير من إخواننا، ووصل إليَّ ذلك: أني ضقت بنقد الأستاذ السيد صقر في المرتين. وما أظن الذي زعم ذلك أو توهمه يعرف شيئًا من خلقي. فما ضاق صدري بشيء من نقد قط، لان أو قسا، والعلم أمانة.

بل إني لأرى أن الضيق بالنقد والتسامي عليه ليس من أخلاق العلماء، وليس من أخلاق المؤمن. إنما هو الغرور العلمي، والكبرياء الكاذبة. وحسبنا في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٦]»[(١)].

ويا من يأنف من النقد: ألست تنقد نفسك في بعض الأمور والمواقف، وتلوم نفسك على بعض التقصير في القول والعمل؟ فلماذا كان حلالًا عليك نقدُ نفسك، حرامًا على غيرك نقدُك؟

---

(١) الشعر والشعراء، لابن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، الناشر: دار الحديث، القاهرة (١/ ٥، ٣٤).

وما أقبح من يردّ الصواب لهوان صاحبه:

لا تـحـقـرنّ الـرأي وهْـو مـوافـق حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فـالـدّرّ وهْـو أجـلُّ شـيء يُـقـتـنـى ما حـطَّ قـيـمـتـه هـوانُ الـغـائـص

نسأل الله تعالى أنَّ يُعيننا على قبول الحق وأخذه، وردِّ الباطلِ ودحره، إنه سميعٌ قريبٌ مُجيب.



لطيفة

إنَّ عدم اعتذارك عنْ خطئك أو تقصيرك أو تأخرِك في الموعد: إنما هو لأحد **سببين**:

١ ـ إما لكبرك وغرورك وأنفتِك من الاعتذار.

٢ ـ وإما لعدم مبالاتِك، واعتقادِك أنَّ الأمر لا يستحق الاعتذار، وربما مزحت عوضًا عن الاعتذار.

وهذا أخفها، وهو قبيح، وسوف ترسخ فيك هذه الصفة طول عمرك، ولا تكاد تعتذر لزوجتك ولا لولدك إذا أخطأت، وسينظر لك الناس على أنك متكبر عنيد.

وأغلب الخلافات والمشاكل تنحل وتنتهي بالاعتذار، فإن لم تُحسن فن الاعتذار فتسعون بالمائة من المشاكل التي ستواجهك لن تنحل، وإذا انحلت ظاهرًا بقيَتْ في النفوس ضغائنُ وأحقادٌ عليك.



٣٨ ـ [الْجِهَاد[١] يَنْقَسِم أقسامًا ثَلَاثَة:
أَحدهَا: الدُّعَاء إِلَى الله ﷻ بِاللِّسَانِ[٢]، وَهَذَا أعظم الْجِهَاد.
وَالثَّانِي: الْجِهَاد عِنْد الْحَرْب بِالرَّأْيِ وَالتَّدْبِير.
وَالثَّالِث: الْجِهَاد بِالْيَدِ فِي الطعْن وَالضَّرْب.. فوجدناه أقَلَّ مَرَاتِب[٣] الْجِهَاد ببرهانٍ ضَرُورِيّ: وَهُوَ أَن رَسُول الله ﷺ لَا شكّ عِنْد كل مُسلم أَنه الْمَخْصُوص بِكُل فَضِيلَة فَوَجَدنَا جهاده عليه السلام إِنَّمَا كَانَ فِي أَكثر أَعماله وأحواله الْقسمَيْنِ الْأَوَّلين من الدُّعَاء إِلَى الله ﷻ وَالتَّدْبِير والإرادة، وَكَانَ أقل عمله ﷺ الطعْن وَالضَّرْب والمبارزة، لَا عَن جبن؛ بل كَانَ عليه السلام أَشْجَع أهل الأَرْض قاطبة نفسًا ويدًا، وأتمهم نجدة، وَلكنه كَانَ يُؤثر الْأَفْضَل فَالْأَفْضَل من الْأَفْعَال فَيقدمهُ عليه السلام ويشتغل بِهِ][٤].

هذه قاعدة صحيحة في أفضلِ أنواع الجهاد، وقد كان تصوري في

---

(١) المقصود بالجهاد هنا: جهاد الطلب لا جهاد الدفع.
والفرق بينهما: أنّ جهاد الدفع: هو أن تدفع عدوًّا صال على بلاد وحرمات المسلمين.
وهذا النوع من الجهاد فرضُ عينٍ على جميع المسلمين الذين نزل العدو الصائل ديارهم، فإن لم يكفوا لرد العدوان تعين الجهاد على من بجوارهم من المسلمين.
ولا يشترط لجهاد الدفع إمام عام ولا جماعة.
وأما جهاد الطلب: هو أن يطلب المسلمون العدو الكافر في بلادهم وديارهم، وهذا فرض كفاية، وله شروطٌ مذكورةٌ في كتب الفقه وغيرِها.
(٢) أي: الدعوة إلى الله تعالى وسبيله وهدايته وشرعه.
(٣) في الأصل: (أقل من مَرَاتِب).
والمثبت من منهاج السُّنَّة: (٨/ ٨٧ ـ ٨٨)، وهو أصوب.
(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ): (٤/ ١٠٧).
وقد استشهد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بكلامه هذا، وما قرره لا يكاد يختلف فيه أحدٌ من العلماء.

بداية طلب العلم أنّ قتال الأعداء هو أفضل أنواع الجهاد، فغيّرَتْ هذه العبارة هذا التصور.

ودفعتني إلى الاعتناء بالعلم الشرعي، والدعوة إلى الله تعالى، فحمدت الله تعالى على سلوكي هذا الطريق الواضح، والمنهج الناصع.

فالدعوة إلى الله تعالى بالقول والعمل والقدوة الحسنة أفضل أنواع الجهاد، وهذا لا ريب فيه لمن أخلص في الدعوة الصحيحة المبنية على العلم الشرعي الصحيح، السالم من الهوى والبدع والانحراف.

وذلك لأن العلم يهذب ظاهر الإنسان وباطنه، ويُزيل أمراض القلب الجاثمة على أغلب القلوب، ويُنير للمسلم أحسن الطرق وأسلمها وأنفعها التي يسلكها لخدمة الإسلام والمسلمين.

وكلما تضلع المسلم من العلم الشرعي المبني على الكتاب والسُّنَّة، وبذل نفسه وماله ووقته في سبيل الله: فسيكون مُؤثّرًا بإذن الله تعالى، ويَلْتَئِمُ حوله المحبون من طلابه وأهل الخير والمال والمناصب، فيُؤثر عليهم، ويُسخرهم معه لخدمة الإسلام والمسلمين.

بخلاف بذل النفس في سبيل الله بدون علم شرعيّ راسخ، فإن مثل هذا بين **أمرين**:

١ ـ إما أن يكون جاهلًا، فربما دفعه جهله والأمراض التي في قلبه إلى ارتكاب مفاسد في حقه وحق أمته، وقد يقاتل وهو يظن أنه يُقاتل في سبيل الله، وإذا به يُقاتل حميّة أو تعصُّبًا لأحد.

٢ ـ أن يكون عالمًا، فهذا إنما ارتفع ونفع الله به بعلمه الذي سلك به أحسن الطرق وأنفعها، وجنبه طرق الضلالة والغواية والحماقة.

فعاد الفضل للعلم، وهل يكون جهاد بلا علم، وهل تكون فضيلة دينية أو دنيوية بلا علم؟

والدليل على أنّ الدعوة إلى الله تعالى أفضلُ أنواع الجهاد عدة أدلة أكتفي **بدليلين**:

١ ـ أنّ مرتبة الصديقية أفضل من مرتبة الجهاد بالنص والإجماع، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النِّساء: ٦٩].

«وَالصِّدِّيقُ فِعِّيلٌ، الْمُبَالِغُ فِي الصِّدْقِ أَوْ فِي التَّصْدِيقِ، وَالصِّدِّيقُ: هُوَ الَّذِي يُحَقِّقُ بِفِعْلِهِ مَا يَقُولُ بِلِسَانِهِ»[(١)].

وَالصِّدِّيقونَ: «هم: الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به قولًا وعملًا وحالًا ودعوة إلى الله، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فقتلوا»[(٢)].

٢ ـ قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفُرقان: ٥٢]، والسورة مكيّةٌ باتفاق العلماء، وقد أمر الله تعالى نبيّه بأن يُجاهد الكفار والمعرضين، وبالغ في تعظيم هذا الجهاد فقال: جِهَادًا كَبِيرًا!

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جاهدهم بهذا القرآن جهادًا كبيرًا، حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله، ويدينوا به ويذعنوا للعمل بجميعه طوعًا وكرهًا.

وبنحو الذي قلنا في قوله: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ قال أهل التأويل. اهـ[(٣)].

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٢٧٢).
(٢) تفسير السعدي (ص١٨٥).
(٣) تفسير الطبري (١٩/ ٢٨١).

فقد نَقَل رَحِمَهُ اللَّهُ إجماعَ أهلِ التأويل على ذلك، ولم يَذكر عن أحدٍ من السلف خلاف ذلك.

وَقِيلَ: وَجَاهِدْهُمْ بِالسَّيْفِ، قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا فِيهِ بُعْدٌ؛ لِأَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ نَزَلَتْ قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ. اهـ[1].

فمَن أراد أنْ يُجاهد الكفار والمنافقين والعصاة وأهلَ الفسق: فلْيبدأ بجهادِهم بالقرآن بتعظيمِه في نفوسِهم، وذلك بتعليمِه وتلاوتِه عليهم ونشرِ مواعظِه ووعيدِه وبشاراتِه وحِكَمِه.

ومن أراد أنْ يُجاهد هواه ونفسه وشهوتَه: فلْيُجاهدها بالقرآن، بقراءتِه وتدبُّرِه، وتقريعِها بزواجِرِه، والعزمِ على العمل به بنيَّةٍ خالصةٍ لله تعالى.

قال بعض الأدباء: «إنَّ في هذا القرآن من القوة والسلطان، والتأثير العميق، والجاذبية التي لا تُقاوم، ما كان يهز قلوبهم هزًّا، ويزلزل أرواحهم زلزالًا شديدًا فيغالبون أثره بكلِّ وسيلة فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلًا.

ولقد كان كبراءُ قريشٍ يقولون للجماهير: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون»، وكانت هذه المقالة تدل على الذعر الذي تضطرب به نفوسهم ونفوس أتباعهم من تأثير هذا القرآن وهم يرون هؤلاء الأتباع كأنما يسحرون بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين، والسورة والسورتين، يتلوهما محمد بن عبد الله ﷺ فتنقاد إليه النفوس، وتهوى إليه الأفئدة.

وإن السورة الواحدة لتهزُّ الكيان الإنساني في بعض الأحيان،

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٥٨).

وتأخذ على النفس أقطارها ما لا يأخذه جيش ذو عدة وعتاد، فلا عجب مع ذلك أنْ يأمر الله نبيَّه ألا يطيع الكافرين، وألا يتزحزح عن دعوته وأن يجاهدهم بهذا القرآن، فإنما يجاهدهم بقوة لا يقف لها كيان البشر، ولا يثبت لها جدال أو محال».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ مُخَاطَبُونَ بِذَلِكَ ـ أي: بِالْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ـ، وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ كَمَا هُمْ مُخَاطَبُونَ بِالْجِهَادِ؛ بَلْ وُجُوبُ ذَلِكَ أَسْبَقُ وَأَوْكَدُ مِنْ وُجُوبِ الْجِهَادِ؛ فَإِنَّهُ أَصْلُ الْجِهَادِ، وَلَوْلَاهُ لَمْ يَعْرِفُوا عَلَامَ يُقَاتِلُونَ، وَلِهَذَا كَانَ قِيَامُ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ قَبْلَ قِيَامِهِمْ بِالْجِهَادِ، فَالْجِهَادُ سَنَامُ الدِّينِ وَفَرْعُهُ وَتَمَامُهُ، وَهَذَا أَصْلُهُ وَأَسَاسُهُ وَعَمُودُهُ وَرَأْسُهُ.اهـ[(١)].

فتأمل هذا الكلام الحكيم الرزين، لتعرف خطأ وضلال الذين نفروا للجهاد قبل العلم، وكيف جنوا على أنفسهم وأمتهم وعلى الجهاد أيضًا، فقاتلوا بلا علم بآداب الجهاد وشروطِه وأحكامه، فضلُّوا وأضلوا، وسَفكوا الدماء المعصومة، وزعزعوا الأمن، وخدموا أعداء الإسلام، وهيَّؤوا لهم الذرائع والحجج للتضييق على المسلمين في شتى المجالات، وكذلك شوّهوا صورةَ الإسلام والمسلمين بين شعوب الأرض، وصاروا لقمةً سائغةً لأعداء الإسلام، ومَن شايعهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

۞ ۞ ۞

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٩٠).

لطيفة

من العجائب في ظنّ الإنسان: الظاهرةُ العكسيّة، فمثلًا: إعْجابُ الإنسان بنفسِه أو علْمِه أو عمَلِه: دليلٌ على نقصِ عقلِه، وقلّة علْمِه، وضعفِ إيمانِه، والعاقل يرى من نفسِه النقص، فيزداد علمًا وعملًا واجتهادًا.

وقد ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك، وكل معصية عَيّرْت بها أخاك فإنّ ذلك أعظم إثمًا من ذنبه وأشد من معصيته، لما فيه من صَولة الطاعة، وتزكية النفس وشكرها، وإنك أنْ تبيت نائمًا وتصبح نادمًا خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا»[(١)].

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: كيف يعجب عاقل بعمله؟ وإنما يعد العمل نعمة من الله، إنما ينبغي له أن يشكر ويتواضع[(٢)].

وقال أبو عثمان الحيري رَحِمَهُ اللَّهُ: احتقار الناس في نفسك مرض لا يداوى[(٣)].

وقال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: قَلَّمَا تَجِدُ بِالْعِلْمِ مُعْجَبًا وَبِمَا أَدْرَكَ مُفْتَخِرًا، إلَّا مَنْ كَانَ فِيهِ مُقِلًّا وَمُقَصِّرًا؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَجْهَلُ قَدْرَهُ، وَيَحْسَبُ أَنَّهُ نَالَ بِالدُّخُولِ فِيهِ أَكْثَرَهُ.

فَأَمَّا مَنْ كَانَ فِيهِ مُتَوَجِّهًا وَمِنْهُ مُسْتَكْثِرًا فَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ بُعْدِ غَايَتِهِ، وَالْعَجْزِ عَنْ إدْرَاكِ نِهَايَتِهِ، مَا يَصُدُّهُ عَن الْعُجْبِ بِهِ.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٩٥).
(٢) حلية الأولياء (٩/ ٢٦٣).
(٣) حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٥).

وَمِمَّا أُنْذِرُكَ بِهِ مِنْ حَالِي أَنَّنِي صَنَّفْت فِي الْبُيُوعِ كِتَابًا جَمَعْت فِيهِ مَا اسْتَطَعْت مِنْ كُتُبِ النَّاسِ، وَأَجْهَدْت فِيهِ نَفْسِي وَكَدَدْت فِيهِ خَاطِرِي، حَتَّى إذَا تَهَذَّبَ وَاسْتَكْمَلَ وَكِدْت أُعْجَبُ بِهِ وَتَصَوَّرْت أَنَّنِي أَشَدُّ النَّاسِ اضْطِلَاعًا بِعِلْمِهِ، حَضَرَنِي وَأَنَا فِي مَجْلِسِي أَعْرَابِيَّانِ فَسَأَلَانِي عَنْ بَيْعٍ عَقَدَاهُ فِي الْبَادِيَةِ عَلَى شُرُوطٍ تَضَمَّنَتْ أَرْبَعَ مَسَائِلَ لَمْ أَعْرِفْ لِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ جَوَابًا، فَأَطْرَقْت مُفَكِّرًا، وَبِحَالِي وَحَالِهِمَا مُعْتَبِرًا، فَقَالَا: مَا عِنْدَك فِيمَا سَأَلْنَاك جَوَابٌ، وَأَنْتَ زَعِيمُ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ؟ فَقُلْت: لَا! فَقَالَا: وَاهًا لَك، وَانْصَرَفَا.

ثُمَّ أَتَيَا مَنْ يَتَقَدَّمُهُ فِي الْعِلْمِ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِي فَسَأَلَاهُ فَأَجَابَهُمَا مُسْرِعًا بِمَا أَقْنَعَهُمَا وَانْصَرَفَا عَنْهُ رَاضِيَيْنِ بِجَوَابِهِ حَامِدَيْنِ لِعِلْمِهِ، فَبَقِيت مُرْتَبِكًا، وَبِحَالِهِمَا وَحَالِي مُعْتَبِرًا.

فَكَانَ ذَلِكَ زَاجِرَ نَصِيحَةٍ، وَنَذِيرَ عِظَةٍ، تَذَلَّلَ بِهَا قِيَادُ النَّفْسِ، وَانْخَفَضَ لَهَا جَنَاحُ الْعُجْبِ، تَوْفِيقًا مُنِحْتُهُ وَرُشْدًا أُوتِيتُهُ.

وَحَقٌّ عَلَى مَنْ تَرَكَ الْعُجْبَ بِمَا يُحْسِنُ أَنْ يَدَعَ التَّكَلُّفَ لِمَا لَا يُحْسِنُ، فَقَدِيمًا نَهَى النَّاسُ عَنْهُمَا، وَاسْتَعَاذُوا بِاَللَّهِ مِنْهُمَا. اهـ[1].



(١) أدب الدُّنيا والدِّين (ص٧٣).

٣٩ ـ [الْعِلْمُ بِاَللهِ أَفْضَلُ مِنْ الْعِلْمِ بِخَلْقِهِ][1].

إنَّ الذي يهتم بعلوم التربية والفن والإلقاء والخطابة والنفس والتعامل ونحوها من العلوم وإن كانت شريفة فاضلة، إلا أنها ليست كشرف وفضيلة العلوم الشرعية؛ لأن الْعِلْم بِاَللهِ أَفْضَلُ مِنْ الْعِلْمِ بِخَلْقِهِ، فلا مقارنة بين العلم بالله وصفاته وأحكامه، وبين العلم بالناس وأحوالهم وطباعهم والتعامل المناسب معهم.

مع أن من يتمكن من العلم الشرعي بأكمله لن يحتاج إلى كثير من هذه العلوم، فقد جاءت بأكمل الأساليب في التربية والتعامل والإلقاء والأخلاق ونحوها.

لا يستوي العلم بالخالق العظيم الذي بيده الضر والنفع، والجنة والنار، بالعلم بالمخلوق الضعيف الذي لا يملك مثقال ذرة، وهو مخلوق مثلنا ضعيف مربوب.

حتى وإن كان المخلوق من أهل الصلاح والخير والعلم، فصرف الأوقات كلها أو أكثرها في ذلك خسارة كبيرة؛ لأنه يُفَوِّت العلم بما هو أعظم وأكمل وأنفع.

فاصرف همّتك وقلبك ووقتك إلى العلم بالواحد الأحد، الذي كلما ازددت علمًا بأسمائه وصفاته، وشرعه وآياته: عظم قدرك، واستنار قلبك، وانشرح صدرك، وعلت همتك، وزهدتَ بغيره، وقنعتَ به وبما جاءك منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٩/ ٣٠٦).

وما ارتفع من ارتفع من علماء الفلك أو الصناعة أو الأرض وغيرهم إلا بوقوفهم على شيءٍ من أسرار خلق الله تعالى، فكيف بمن وقف على الكثير من أسرار الخالق ﷻ، ووقف على شريعة الله وفهمها وعمل بها، هل يستويان مثلًا؟



لطيفة

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إحدى المسائل الفقهية: «هَذَا مِمَّا أَسْتَخِيرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ»!.

قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ راوي كتاب الأم عن الشافعي: وَقَد اسْتَخَارَ اللهَ تَعَالَى فِيهِ. .اهـ[1].

وقد توقف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «الأم» في إحدى عشرة مسألة ويقول فيها: أَسْتَخِيرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيها!

وتأمل ما تحمله هذه الكلمة من تعلقٍ بالله وتوكل عليه، وأدب كبير معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإجلال وتعظيم لشأن الكلام في الدين، وورعٍ بالغ، وخوفٍ من القول بلا علمٍ.

وقد كرر في كتابه «الرسالة» قول: «إن شاء الله»، «والله أعلم»: ٨٦ مرة في المسائل والآراء التي يرجح فيها.

وأما الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأمره عجب، قَالَ أَبُو مُصْعَبٍ: «قَالَ لَنَا المغيرة: تعالوا نجتمع ونستذكر كل ما بقي علينا ما نُرِيدُ أَنْ نَسْأَلَ عَنْهُ مَالِكًا.

فَمَكَثْنَا نَجْمَعُ ذَلِكَ، وَكَتَبْنَاهُ فِي قُنْدَاقٍ[2] وَوَجَّهَ بِهِ الْمُغِيرَةُ إِلَيْهِ، وَسَأَلَهُ الْجَوَابَ، فَأَجَابَهُ فِي بَعْضِهِ وَكَتَبَ فِي الْكَثِيرِ مِنْهُ: لَا أَدْرِي.

فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: يَا قَوْمِ! لَا وَاللهِ مَا رَفَعَ اللهُ هَذَا الرَّجُلَ إِلَّا بِالتَّقْوَى،

(١) الأم للشافعي (٥/ ٢٤١).

(٢) بضم القاف (صحيفة الحساب).

مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُسْأَلُ عَنْ هَذَا فَيَرْضَى أَنْ يَقُولَ: لَا أَدْرِي؟».

وَالرِّوَايَاتُ عَنْهُ فِي «لَا أَدْرِي» وَ«لَا أُحْسِنُ»: كَثِيرَةٌ؛ حَتَّى قِيلَ: لَوْ شَاءَ رَجُلٌ أَنْ يَمْلَأَ صَحِيفَتَهُ مِنْ قَوْلِ مَالِكٍ «لَا أَدْرِي» لَفَعَلَ قَبْلَ أَنْ يُجِيبَ فِي مَسْأَلَةٍ.

وسئل مرةً عن نيِّفٍ وعشرين مسألةً فما أجابَ منها إلا في واحدة![1].

وتوقف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في أكثر من ست عشرةَ مسألة.

وتوقف العلَّامة محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في الشرح الممتع فقط في خمس عشرةَ مسألة.

ثم تجد بعض طلاب العلم وغيرهم من المتجرئين في الفتوى: لا يتردد في أيّ مسألةٍ!

وربما جاء بالأغاليط والأقوال الغريبة والشاذة!



(١) يُنظر: الموافقات للشاطبي (٥/٣٢٨)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (المتوفى: ٥٤٤هـ) (١/١٨٣)، مَنْهَجُ الصَّحَابَةِ والسَّلَفِ الصَّالحِ فِيْ الْتَّعَامُلِ مَعَ فَتَاوَىَ الْمُفْتِينِ والرَّدِّ عَلَى الْمُخْطِئِين للمؤلف (ص٧٦ ـ ٨٢).

٤٠ ـ [أيَّةُ جارحةٍ مَنَعْتَها الحركة ولم تُمَرِّنْها على الأعمال: أصابها من التَّعَقُّد على حسب ذلك المنع][1].

هذه العبارة القيّمة أثبتتها التجارب والواقع، فإنّ كلّ شيءٍ فيك يحتاج إلى كثرةِ تحريكٍ واسْتعمال ما خُلق لأجله، وإلا مات وذبل وضعف.

فإن لم تستعمل لسانك في الكلام النافع، وتتحدث أمام الآخرين وفي المحافل: أُصبت بالعيّ أو البذاءة أو كثرة الأخطاء، «وطول الصمت يُفسد البيان، وإذا تَرَك الإنسان القول ماتتْ خواطره، وتبلَّدت نفسُه، وفَسَد حِسُّه، وكانوا يروون صبيانهم الأرجاز، ويأمرونهم برفع الصوت، وتحقيق الإعراب؛ لأن ذلك يفتق اللهات، واللسانُ إذا أكْثرتَ تحريكه رقّ ولان، وإذا أقْلَلْت تقليبه وأطلت إسكاته جسأ وغلظ»[2].

فالذي يمكث مُدَّةً من الزمن لا يتحدث أمام الآخرين بطلاقة وجرأة، فإنه سيُصاب بالعيّ وضعف القدرة على الحديث والبيان والفصاحة، وسَيَتملّكه الخوف والرهبة من الناس ومن الخوف من الخطأ في الأغلب الأعمّ.

ولو ألْزم نفسه الحديث واعتاد على ذلك فإنه سيزول عنه ما كان يجده شيئًا فشيئًا.

وإن لم تستعمل ذهنك وفهمك وعقلك وتُحركه وتُنشّطه: أصابه غبار التبلّد والذُّبول والهرم وكثرةِ النسيان.

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ (ص١٦٧).
(٢) البيان والتبيين للجاحظ (١٦٧).

فكثرة القراءة وتنوع مصادر ما تقرأ وما تسمع، مع الفهم والتأمل والاستنباط: يُكسبك نبوغًا في الفهم، ويُحلّق بعقلك نحو عالم الحكمة والفراسة والعقل.

وإن لم تستعمل بدنك وتُحركه: ضعف وسارع إليه المرض والخوَر.

وهكذا في كلّ شيء وفي كلّ الأمور، فلا تدع عضوًا من أعضائك بدون نشاط دائم، وعملٍ نافعٍ دؤوب.



لطيفة

من أعرض عن اكتساب الفضائل العظيمة مع القدرة على تحصيلها: كان أقبح ممن لم يكتسبها مع العجز عنها، ولهذا السبب قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فهؤلاء الكفار عندهم قدرة على اكتساب الفضائل من الإيمان والعمل الصالح، ولكنهم أعرضوا عن ذلك، فأصبحوا أضلّ وأقبح من البهائم التي ليس عندها قدرة على ذلك.

فمن أعرض من طلاب العلم عن التمكن منه والرسوخ فيه مع القدرة على تحصيله: كان اللومُ عليه أكثر من اللوم على من لم يتمكن من العلم مع العجز عنه.

ومن أعرض عن الدعوة إلى الله ونشر العلم مع القدرة على ذلك: كان اللومُ عليه أكثر من اللوم على من لم يفعل ذلك مع العجز عنه.

وصدق الشاعر حين قال:

ولم أرَ في عيوب الناس شيئًا ... كنقص القادرين على التمامِ



٤١ ـ [من تعلم علمًا، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه؛ فإن انتشار العلم عن العالم من بركته وأجره الذي يُنَمَّى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأيّ منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علمًا ومنحه فهمًا](١).

ما أشدّ أثر هذه العبارة على قلبي، وما أقوى تأثيرَها على تحفيز همّتي، وحريٌّ بطالب العلم أن يسعى جاهدًا في نشر علمه.

وتبليغ هذا العلم من أوجب الواجبات، فزكاة العلم نشرُه وتبليغُه للناس، وهو سببُ نمائه وبركته، قال الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة(٢).

وعن حبيب بن أبي ثابت أنه قال: قال لي سعيد بن جُبير رَحِمَهُ اللَّهُ: لأَنْ أَنشرَ علمي أحبُّ إليَّ من أن أذهب به إلى قبري(٣).

وعن الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ. قال: العلم يقبض قبضًا سريعًا، فنشر العلم ثبات الدين والدنيا، وفي ذهاب العلم ذهاب ذلك كله(٤).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: إياك وغلول الكتب، قلت: وما غلولها؟ قال: حبسها عن أهلها(٥).

---

(١) تفسير السعدي (ص٣٥٥).
(٢) الحلية (تهذيبه) (٣/ ٢٠).
(٣) السير (تهذيبه) (٢/ ٥٠٦).
(٤) الحلية (تهذيبه) (٢/ ٢٦).
(٥) الحلية (تهذيبه) (٢/ ٢٥).

وقال أبو حاتم رَحِمَهُ اللهُ: العاقل لا يسعى في فنونه ـ أي: العلم ـ إلا بما أجدى عَلَيْهِ نفعًا في الدارين معًا، وإذا رُزق منه الحظ لا يبخل بالإفادة؛ لأن أول بركة العلم الإفادة، وما رأيت أحدًا قط بخل بالعلم إلا لم يُنتفع بعلمه، وكما لا ينتفع بالماء الساكن تحت الأرض مَا لم ينبع، ولا بالذهب الأحمر مَا لم يُستخرج من معدنه، ولا باللؤلؤ النفيس مَا لم يُخرج من بحره، كذلك لا يُنْتَفَعُ بالعلم مَا دام مكنونًا لا ينشر ولا يفاد.اهـ[١].

وقد أخبرني أحدُ الملازمين لكبار العلماء لسنواتٍ طويلة أنَّ مِن زملائه فلانًا وفلانًا ـ وهم من كبار الدعاة والمشايخ المعروفين ـ فقلت: ما السبب في عدمِ تقدُّمك وبروزك مثلهم؟ فقال بلهجةٍ فيها حسرةٌ وأسى: لأنهم قاموا بتزكية عِلْمِهم، وأنا لم أفعل!!.

ومن طرق نشر العلم لطالب العلم المبتدئ:

١ ـ نشره في مجالس الأسرة أو الأصدقاء إذا سنحت الفرصة.

٢ ـ نشره في المساجد الصغيرة التي يقلّ المصلون فيها بإلقاء الكلمات، والبعدُ عن المساجد الكبيرة لئلَّا يُصاب الملقي بالغرور ونحو ذلك، ولئلا يغلط ويلحن فيَسقط من أعين الناس، أو يُصابَ بالرُّهَاب الاجتماعيّ لا قدّر الله.

٣ ـ نشره في البيت وعند الأهل والأقارب.

٤ ـ نشره عن طريق النصيحة للمقصر والعاصي.

ولنشر العلم ونقلِه للآخرين فوائد كثيرةٌ منها:

١ ـ أنه سببٌ لثبات العلم ورسوخِه، وهذا مُجرّب، فالذي ينشر علمه بالقلم أو باللسان يثبت ما تعلمه.

---

(١) روضة العقلاء (ص٣٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: من خزَّن علمه ولم ينشره ولم يُعَلِّمْه ابتلاه الله بنسيانه وذهابه منه جزاء من جنس عمله.اهـ[(١)].

٢ ـ أنه يفتح له ذلك علمًا لم يكن يعلَمُه، فالذي يُؤلف أو يُلْقي تتزاحم عليه الخواطر والأفكار، ويُفتح عليه من العلم ما لم يخطر على بالِه.

وكثيرًا ما يضطر إلى البحث لأجلِ استنباط فائدةٍ، أو مُراجعةِ مسألةٍ، أو تأصيلِ خاطرةٍ قرّرها أو سيقررها، فمن خلال بحثه سيقف على غيرها من المسائل والفوائد الكثيرة المفيدة، ومع مرور الأيام يزداد نضوجًا ورسوخًا، وبهذا رسخ من قبله بفضل الله.

٣ ـ أنه من أعظم أسباب انشراح الصدر، والرضى عن النفس، فطالب العلم الذي يُمضي وقته قراءةً وحضورًا للدروس دون عطاءٍ وتزكية، يشعر بتأنيب الضمير، وأنَّ ما تعلمه لم يَعُد عليه ولا على غيره بالفائدة والمنفعة.

فإذا بدأ يزكّي علمه وينشره سيشعرُ بانشراح الصدر، وراحة البال، وسيزداد انشراحًا حينما يرى إقبالَ الناس عليه، والاستفادة من علمِه.

٤ ـ أنه سببٌ لرفع الهمّة، وزيادة النشاط، فالذي يرى ثمار عمله وجهده لا شك أنه سيزداد نشاطًا وحماسًا[(٢)].

٥ ـ أنه مِن أفضل الأعمال وأحبّها إلى الله تعالى؛ لأنّ ناشر العلم هو من الدعاة إلى الله تعالى الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصّلَت: ٣٣].

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٧٢).
(٢) يُنظر: آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه للمؤلف (ص٦٣ ـ ٦٥).

تَلَا الْحَسَن الْبَصْرِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ فَقَالَ: هَذَا حَبِيبُ اللهِ، هَذَا وَلِيُّ اللهِ، هَذَا صَفْوَةُ اللهِ، هَذَا خِيَرَة اللهِ، هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى اللهِ، أَجَابَ اللهُ فِي دَعْوَتِهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى مَا أَجَابَ اللهُ فِيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ، وَعَمِلَ صَالِحًا فِي إِجَابَتِهِ[1].

وإذا كان الله تعالى قد غفر لرجل بسقيه كلبًا[2]، وغفر لامرأة بغيّ بسقيها كلبًا[3]، وأدخل الجنة رجلًا بقَطْعه شَجَرَةً مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ، وقد رآه النَّبِيّ ﷺ يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ[4]، فكيف بمن سقى مؤمنًا بالله ماءً أو أطعمه من جوع، أو كساه وأزال عنه ذلّ حاجته؟

بل وكيف بمن علّم الناس كتاب الله وشرعَه ودينَه؟ وسقى طلاب العلم وغيرهم مِن معين شرع الله، وأنقذهم من النار بنصحه لهم ورفعِ الجهل عنهم، ودَأبَ في إزالةِ أذى الجهل والمعاصي، وأنار للناس طريق الهداية والرشد؟

واعلم أنّ الدعاة إلى الله **نوعان**:

النوع الأول: من يُحفزه إلى الدعوة خوفُ الإثم من عدم نشر العمل وتبليغِ الرسالة، والرغبةُ في الأجر والثواب المترتب على الدعوة.

النوع الثاني: من يُحفزه إلى الدعوة الغيرةُ على دين الله، والرغبةُ في نشر نور الله وشرعه ودينه، ويَسوقُه حبّ الله تعالى إلى نشر دين محبوبه سوقًا، ويدفعه إلى دعوة الناس إلى ربهم ما ذاقه من لذة العلم وطعم الإيمان دفعًا، ومن ذاق ذلك فلا بدّ أنْ يُحركه ذلك إلى نشر ما ذاقه؛ لأنه يُحب للناس ما يُحبه لنفسه.

---

(١) تفسير ابن كثير: (٨/ ١٨٠).
(٢) رواه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤).
(٣) رواه مسلم (٢٢٤٥).
(٤) رواه مسلم (١٩١٤).

وكلّ الناس يُعَرِّف الآخرين بما يُحب ويُعَظِّم، ومَن أحبّ الله حبًّا عظيمًا مَلَك سويداء قلبه فلا يهنأ بعيشٍ إلا إذا عرَّف الناس بأحبِّ محبوب، وأعظم مطلوب، وأكرم مسؤول، وأجود مأمول.

فما بين النوعين كما بين السماء والأرض، وكلاهما على خير.

والغالب في الدّاعي إلى الله أنه يُواجه ترحيبًا من الناس، وإقبالًا وثناء عليه، ولو لم يكن من ثمار الدعوة إلى الله إلا اكتساب محبة الناس وثنائهم عليه لكفى، وهو الأمر الذي يُنفق بعض الأغنياء والأمراء ملايين الريالات لأجلِ الحصول عليه.

فكيف إذا كان هذا نزرًا يسيرًا في مقابل ما يلقاه من انشراح الصدر والأنس واللذة، فإنّ في إنفاق المال والعلم لذةً لا يعلم قدرها إلا من جرَّبها.

فما بالك وهذا كلّه ـ على شرفِه وعِظَمه ـ ما هو إلا نزرٌ يسير جدًّا في مقابل ما يلقاه من الأجر والجزاء العظيم الكبير يوم القيامة، وصدق الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصّلَت: ٣٣].

ووالله إنَّ طالب العلم الموفق ليستحي من الله تعالى أن يُقَصِّر في الدعوة ونشر العلم وهو لا يلقى من الناس إلا الترحيب والحب، ونبيُّه وقدوتُه ﷺ كان يُواجه التكذيب والاستهزاء والصَّدَّ والأذى الحسيّ والمعنويّ من أغلب الناس في مكة، ومع ذلك صبر وصابر وجاهد لأجل نشر دين الله، وإعلاء كلمة الله.

ولا يليق بمن منّ الله تعالى عليه بالعلم والدعوة أنْ يعتذر عن نفع الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله عبر إلقاء كلمة أو مُحاضرة أو كتابة أو خطبة مع قدرتِه وزوال المانع، فالله تعالى ما أعطاه العلم إلا ليزكّيه ويتصدق به، لا ليكتمه ويبخل به.

وبعضهم يقول حينما يُدعى لنفع الناس بعلْمِه: لا رغبة لي بذلك! أو أنا مشغول! وهو في الواقع ليس مشغولًا شغلًا يُعذَر به أمام الله تعالى، وتزكيةُ العلم وبذلُه لا يكون حسب الرَّغبة والشهوة؛ بل يجب أنْ يبذله طالبُ العلم ولو لم يجد الرغبة في ذلك، وإذا علم الله صدقه أعانَه وشرحَ صدرَه وبارك في علمِه وعملِه وعمرِه، وعلَّمَه ما لم يكن يعلم.



لطيفة

من أراد أن يمتلك زمام السعادة والراحة ورغد العيش فعليه **بثلاث صفات**:

١ ـ التغافل، وهو تعمُّدُ الغَفْلَة عن زلات وأخطاء الناس، ونقدهم الخاطئ.

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: اللبيب العاقل هو الفطن المتغافل.

وقال الشاعر في هذا المعنى:

ليس الغبيّ بسيد في قومه ... لكنَّ سيّد قومه المتغابي

٢ ـ القناعة، وهي أنْ ترضى من الدنيا بما عندك، ولا تطمع بما ليس عندك مما يصعب أو لا ينفع الحصول عليه.

وهذا هو الغِنَى الحقيقي، قال ﷺ: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**». متفق عليه[(١)].

وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: «ليس حقيقة الغِنَى عن كثرة متاع الدنيا؛ لأن كثيرًا ممن وسَّع الله عليه في المال يكون فقير النفس، لا يقنع بما أُعطي، فهو يجتهد دائبًا في الزيادة، ولا يبالي من أين يأتيه، فكأنه فقيرٌ من المال؛ لشدة شَرَهِه وحرصِه على الجمع، وإنما حقيقة الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، الذي استغنى صاحبُه بالقليل وقَنِع به، ولم يحرص على الزيادة فيه، ولا ألحّ في الطلب، فكأنه غنيٌّ واجد أبدًا، وغِنَى النَّفْسِ هو بابُ الرضا

(١) البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

بقضاء الله تعالى، والتسليم لأمره، عَلِم أنَّ ما عند الله خيرٌ للأبرار، وفي قضائه لأوليائه الأخيار»[(١)].

والله تعالى يُحب العبد إذا كان مُتصفًا بهذه الصفة العظيمة، قال ﷺ: «**إن الله يحب العبدَ التقيَّ الغنيَّ الخفيَّ**» رواه مسلم[(٢)].

والمراد بـ «الغنيَّ» غنيُّ النفسِ، كما سبق في الحديث الصحيح.

وما بينك وبين عيشة وسعادة الملوك والأغنياء إلا القناعة! بل إنك بالقناعةِ تزيد عليهم أنسًا وسعادةً وراحة!

وصدق القائل:

إذا ما كنتَ ذا قلبٍ قَنُوع فأنت ومالِكُ الدنيا سواء

٣ ـ النَّفع، والمؤمن مأمورٌ بأنْ ينفعَ إخوانه بما استطاع، قال ﷺ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ**». رواه مسلم[(٣)].

والكريمُ في جاهه أو ماله أو علمِه يجد عند إنفاقه وبذله سعادةً لا توازيها سعادة، ولذةً لا تساويها لذة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وَمِنْ أَسْبَابِ شَرْحِ الصّدْرِ: الْإِحْسَانُ إلَى الْخَلْقِ، وَنَفْعُهُمْ بِمَا يُمْكِنُهُ مِنْ الْمَالِ وَالْجَاهِ، فَإِنّ الْكَرِيمَ الْمُحْسِنَ أَشْرَحُ النّاسِ صَدْرًا، وَأَطْيَبُهُمْ نَفْسًا، وَأَنْعَمُهُمْ قَلْبًا، وَالْبَخِيلُ الّذِي لَيْسَ فِيهِ إحْسَانٌ، أَضْيَقُ النّاسِ صَدْرًا، وَأَنْكَدُهُمْ عَيْشًا، وَأَعْظَمُهُمْ همًّا وَغَمًّا.

وَقَدْ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الصّحِيحِ، مَثَلًا لِلْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدّقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ؛ أي: دِرعان، كُلّمَا هَمّ الْمُتَصَدّقُ

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ١٦٥).
(٢) (٢٩٦٥).
(٣) (٢١٩٩).

بِصَدَقَةٍ، اتّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ، وَكُلّمَا هَمّ الْبَخِيلُ بِالصّدَقَةِ، لَزِمَتْ كُلّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، وَلَمْ تَتّسِعْ عَلَيْهِ، فَهَذَا مَثَلُ انْشِرَاحِ صَدْرِ الْمُؤْمِنِ الْمُتَصَدّقِ، وَانْفِسَاحِ قَلْبِهِ، وَمَثَلُ ضِيقِ صَدْرِ الْبَخِيلِ وَانْحِصَارِ قَلْبِهِ[1].اهـ.

ومَن أَخْلَصَ لله تعالى في هذه الأمور الثلاثة حاز سعادة الدنيا والآخرة.



(١) زاد المعاد (٢/ ٢٤).

٤٢ ـ [من الناس من يتقيَّد بلباس لا يلبس غيره، أو بالجلوس في مكان لا يجلس في غيره، أو مِشية لا يمشي غيرها، أو بزِيٍّ وهيئة لا يخرج عنهما، أو عبادة معينة لا يتعبد بغيرها، وإن كانت أعلى منها، أو شيخ معين لا يلتفت إلى غيره، وإنْ كان أقربَ إلى الله ورسوله منه، فهؤلاء كلهم محجوبون عن الظَّفر بالمطلوب الأعلى، مصدودون عنه، قد قيدتهم العوائد والرسوم والأوضاع والاصطلاحات عن تجريد المتابعة، فأضحوا عنها بمعزل، ومنزلتهم منها أبعد منزل](١).

هذه الكلمات النيرات لا تكاد تغيب عن بالي، ولا تُفارق قلبي، ونَقَلَتْنِي مِن دائرة التبعيَّةِ الضيقة، والتّعلُّقِ بفنٍّ أو سلوكٍ أو عبادةٍ معيّنةٍ، أكرس فيها جهدي وطاقتي، لا أحيد عنها، إلى التنويعِ في كلّ فنّ وعلم وعمل بقدر الإمكان.

وكم رأينا من أناس يُعرفون بالدعوة، ولكنهم لم يُطوّروا أنفسهم، وربما تخصصوا بنوع معين من الدعوة، لا يخرجون عنه.

وكم رأينا من أناس يُلازمون نوعًا من العبادة لا يكادون يعرفون إلا به، ولا يرغبون الانتقال عنه.

وكم رأينا من طلاب علم صرفوا أعمارهم بنوع مخصص من العلم لا يخرجون عنه، ولو رأوا غيره من العلم أنفع وأصلح لهم ولغيرهم لم تسمح لهم رغبتهم النظر فيه، ولو لجزْءٍ يسير من أوقاتهم.

وأما السلف الصالح «فإنهم لم يتقيَّدوا بعمل واحد يجري عليهم

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٦٧).

اسمه، فيُعرفون به دون غيره من الأعمال، فإن هذا آفة في العبودية، وهي عبودية مقيدة، وأما العبودية المطلقة: فلا يُعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها، فإنه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها، فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم، فلا يتقيد برسم، ولا إشارة، ولا اسم، ولا بزي، ولا طريق وضعي اصطلاحي؛ بل إن سُئل عن شيخه قال: الرسول، وعن طريقه قال: الإتباع، وعن مذهبه قال: تحكيم السُّنَّة، وعن مقصوده ومطلبه قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعَام: ٥٢]»(١).

وقد ذكر الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختلاف الناس في أفضل اللباس ثم قال: «وأما النبي ﷺ فكان يلبس ما وجد، فتارة يلبس لباس الأغنياء من حلل اليمن وثياب الشام ونحوها، وتارة يلبس لباس المساكين»(٢).

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٦٧).
(٢) الجامع المنتخب من رسائل الحافظ ابن رجب (ص٩٥).

لطيفة

من لم يتوسَّعْ في القراءة والاطلاع: ظلَّ عقله وتفكيرُه محبوسًا في سجن عاداته وخبراتِه.

ومن لم يُبحر في التفكير والنظر والنقد: بقي تبعًا وعالةً على من قرأ لهم، لا يكاد يخرج عن آرائهم وأفكارِهم.



٤٣ ـ [اعلم أنّ نفسَك بمنزلة دابّتك، إنْ عرَفتْ منك الجدّ جدّت، وإنْ عرفتْ منك الكسل طمعت فيك، وطلبتْ منك حظوظَها وشهواتها][١].

كانت هذه القاعدة لي بمثابة المفتاح للدخول إلى عالم النفس الغريبة الغامضة، وأزالت إشكالًا كان يُساورني منذ زمن طويل: ما سرّ نشاط بعض العلماء والدعاة وعدم تعبهم فيما يسعون إليه، ونحن نرى أنفسنا وغيرنا نُصاب بالكسل والخمول، ولا ننجز كما أنجز هؤلاء؟

فيا لها من قاعدة قد أثبتها الواقع، وصدقتها التجارب.

ولقد اتخذتُ هذه القاعدة منهجًا لي منذ وقفت عليها ـ حسب القدرة والاستطاعة ـ فرأيت ثمارها، وذقت حلاوتها.

وبهذه القاعدة استطعت التخلص من صفات وأخلاق كنتُ أشكو منها ومن عدم انفكاكي منها، فجهدت وأرغمت نفسي على التغيير نحو الأفضل، فإذا بنفسي تنقاد بيسر وسهولة ولله الحمد والمنّة.

ومن أسرار هذه القاعدة العظيمة: أنّ النفس إذا رأت منك الطمع والميل إلى شيء ألحَّتْ عليك وصرفت ذهنك إليه، وإن رأت منك صدودًا وإعراضًا: أعرضت وتركت الإلحاح.

«كان أبو سليمان الداراني يقول: كنت بالعراق، أمر عَلَى تلك القصور والمراكب والملابس والمطاعم التي للملوك، فلا تلتفت نفسي إِلَى شيء من ذلك، وأمر عَلَى التمر، فتكاد نفسي تقع عليه، فذكر ذلك

(١) الجامع المنتخب من رسائل الحافظ ابن رجب (ص١٩٧).

لبعض العارفين فَقَالَ: تلك الشهوات آيَسَ نفسَه منها فآيَسَتْ، والتمرةُ أطْمَعَها فيه فطمِعَت، كما قيل:

صبرتُ عَلَى اللذات حتى تولت وألزمتُ نفسي هَجْرَهَا فاسْتَمَرَّتِ
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإنْ أُطْمِعت تاقت لها وإلا تَسَلَّتِ
وكانت عَلَى الأيام نفسي عزيزة فلما رأت عزمي عَلَى الذُّلِّ ذَلَّتِ»[(١)]

فمتى رأت منك نفسك الرغبة في شيء رغبت، ومتى رأت منك القناعة قنعت، وصدق القائل:

والنَّفْسُ راغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَها وإِذَا تُرَدُّ إِلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

والرغبة محمودة إلا في الرذائل، والقناعة محمودة إلا في الفضائل.

فيا مَن تشكو مِن شهوة أو معصية صعب عليك تركها: قاطع هذه الشهوة أو المعصية واهجرها ولا تفكر بها، واعزم على ذلك بكل ثبات وصرامة، وستجد نفسك بعد ذلك تنقاد لك، ولا تُفكر فيها أبدًا.

ويا من تشكو ضعف الهمة، وضعف الإرادة: اجمع قواك على العزيمة فيما تصبو إليه، واثبت على هذه القوة والإصرار مدة يسيرة من الزمن، قد لا تتجاوز أيامًا: وسوف ترى العجب العجاب، في تغير همتك وإرادتك نحو الأفضل، وستلاحظ في نفسك نشاطًا لم تعهده.

واعلم أن ملاك ذلك كلّه: الصبر، ولأجل ذلك ذُكر الصبرُ في القرآن في نحو تسعين موضعًا أمرًا أو ثناء على أهلِه، أو جزاءً لهم.

ولِكي نعلم أهمّية الصبر وضرورته لصلاح أمر الدين والدُّنيا: تأمل كيف تكررت كلمة الصبر في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومِه:

---

(١) الجامع المنتخب من رسائل الحافظ ابن رجب (ص١٩٧).

قال قوم موسى لفرعون حين هدّدهم بالقتل: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٦].

ثم قال موسى لِقَوْمِهِ مُثبّتًا لهم: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ثم قال تعالى مادحًا لهم ومُبيّنًا سبب علوّهم وتمكينهم في الأرض: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ففي هذا أوضح دليل على أنّ نجاح الإنسان وفلاحه وبلوغه أعلى المراتب: موقوفٌ على صبره على الأمر النافعِ الذي يطلبُه.

وقد جاء الوعد الصادق أنَّ النصرَ مع الصبر، وثبت بتجارب الأبطال أنّ الظّفر بالنّصر صبرُ ساعة.

وكذلك الرسوخُ في العلم صبرُ ساعة.

والانتصار على النفس والشيطان صبر ساعة.

والثباتُ عند الصدمة الأولى صبر ساعة.

وكسب الصفات الحسنة من الحلم والكرم والإيثارِ صبر ساعة.

وصدق القائل:

إنّي رأيتُ وفي الأيامِ تجربةٌ ... للصَّبرِ عاقبةً محمودةَ الأثرِ
وقلَّ منْ جدَّ في أمرٍ يحاولهُ ... واستصحبَ الصَّبرَ إلَّا فازَ بالظَّفرِ(١)

وإليك هذا الموقف الذي يتكرر مثله كثيرًا لعموم الناس: قال أحد

---

(١) العقد الفريد (١/ ٢٠١).

طلاب العلم: «قمت كعادتي لصلاة الوتر، وسوف أسافر إلى الرياض فجر هذا اليوم، فجاءني الشيطان وقال: أكمل نومك، فوراءك سفر طويل، ووالله كأني أشعر بمخاطبته شعورًا واضحًا، ونفسي متثاقلةٌ عن القيام لأني نمتُ متأخرًا، ولكن حينما سمعت هذا الوسواس الشيطاني: تعوذت بالله من شره، وعزمت بقوة على القيام، فذهب الخمول والكسل، وشعرت بالنشاط وعزة الانتصار على النفس والشيطان، وقمت ليلةً لذيذة مع القرآن، بين يدي الكريم والرحيم تبارك وتعالى».

فالنفس تحتاج إلى صبر ثوان معدودةٍ للانتصار على الشيطان والنفس الأمارة بالسوء.

إنَّ الفاصل بين الانقياد لوسواس الشيطان ـ بفعل محرم أو ترك واجب ـ وبين طاعة الرحمٰن: عزيمةٌ صادقةٌ لا تتجاوز خمس ثوان! فهلا صبرت هذه الثوانيَ المعدودة لأجل الله تعالى؟ هلا صبرت هذه الثوانيَ لتنتصر على الشيطان الرجيم؟ ولِتُدْرِك مطلوبك؟

وإنَّ صبرَك هذه الثوان اليسيرة على ترك حرام أو فعل واجب: أهون من صبرك على حرّ نار جنهم مدة طويلة قد تتجاوز مئات السنين، وقد يكون مدى الحياة!

إنّ العزيمة الصادقة لله وبالله: هي أقوى سلاح تنتصر به على نفسك الأمارة بالسوء، وعلى الشيطان الذي أقسم الأيمان المغلظة ليُغوينّك.

إنّ الصبر في هذه اللحظات اليسيرة يعْقبهُ شعورٌ عجيب عظيم بالفرح في الانتصار على النفس والهوى والشيطان، وشعور بالعزة والقوة والأنفة والقرب من الله تعالى، ومثل هذا يتجلّى في غضّ البصر عمَّا لا تجوز رؤيتُه، والله المستعان.

إنّ الصبر في هذه اللحظات اليسيرة هي التي أنجت العديد من

العظماء والصالحين من الوقوع في الفتن التي حلّت بهم، فما بينهم وبين الوقوع في رذائل المعاصي والشهوات والشبهات إلا صبر هذه اللحظات.

فاصبر بضع ثوانٍ حين يدعوك الشيطان إلى معصية أو ترك فضيلة، وذق طعم هذا الصبر طيلة حياتك، وسوف تجد لهذا الصبر من حسن العاقبة، وطيب العيش، والرفعة والتوفيق والسعادة، ما لا تجده في المعصية التي ستقع بها لولا صبرك.

إنّ الذي صبر في هذه اللحظات اليسيرة: قد عوضه الله اللذة والمتعة والأنس في الجنة خالدًا مُخلّدًا فيها، ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرّعد: ٢٣ ـ ٢٤].

واعلم أنّ من ترك الشهوات المحرمة لم يكن فاقدًا للشهوة، ومن كان كريمًا باذلًا لم يكن كارهًا للمال، ومن أرغم نفسه على الصبر على نيل معالِ الأمور لم يكن كارهًا للراحة وإجمام النفس.

ولكنَّ الفرق بين هؤلاء وبين غيرهم: أنهم تغلّبوا على شهوات النفوس وحظوظها، وخالفوا الهوى إذا كان صادًّا عن الهدى.

«وينبغي للعاقل أنْ يتمرَّن على دفعِ الهوى المأمونِ العواقبِ لِيَتمرَّن بذلك على ترك ما تُؤْذي عواقبُه»(١)، فإذا رأى نفسَه تهوى أمرًا لا مصلحة فيه: فلْيعوّدها على مُخالفة هواها، كمن يهوى كثرةَ الأكل، وحبَّ الاستطلاع، والنومَ بعد الفجر.

«ولْيعلم اللبيب أنَّ مدمني الشهواتِ يصيرون إلى حالةٍ لا يلتذُّون بها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنها قد صارتْ عندهم بمنزلةِ

(١) روضة المحبين (ص٤٦٨).

العيش الذي لا بدّ لهم منه، ولهذا ترى مُدْمن اللذائذِ لا يلتذّ بها عُشْر معشار الْتذاذ مَن يفعلُها نادرًا في الأحيان»[(١)]، لكنّهم مع قلّةِ تمتّعهم بشهواتهم، وتيقُّنِهم بسوءِ فِعالِهم ومآلِهم، وإلْقاءِ نفوسهم في المهالك: لا يستطيعون أنْ يُخالفوا أهواءهم، ويتخلّصوا مِن عوائدهم؛ لأنّ مُخالفة الهوى الْمُسيطر على النفس، والعادَةَ التي مضى عليها الزمن: صعبٌ للغاية، ولا يُستطاع ذلك إلا بقوة العزيمة والإرادة، وإذا كان معها إيمانٌ واستعانةٌ بالله تعالى سهل ذلك.

۞ ۞ ۞

(١) روضة المحبين (ص٤٦٨)، بتصرّف.
وهذا بخلاف لذّة الإيمان والأعمال الصالحة الخالصة لله تعالى؛ كالصلاة وقراءة القرآن والذكر؛ فإنّ الإنسان لا يجد كمال اللذة بها إلا بالإدمان عليها، وكثرة القيام بها على الوجه الصحيح.

لطيفة

لا يخلو أحدٌ مِن أنْ يردّ على غيرِه مِن الناس أو يردّوا عليه، فلذا كان لزامًا على العاقل أن يعرف الأدب حينما يردّ ويُردّ عليه:

أولًا: أدبك إذا ردَدت على أحد:

١ ـ أنْ يخلو من الجدال العقيم.

٢ ـ أنْ يخلو من الكلام البذيء.

٣ ـ ألا يكون هدفُك الإلزام والإقناع؛ بل أبدِ ردّك بدليله، دون أنْ تُطالب الآخر بقبولِه، أو تتهمه بأنه يميل مع هواه.

٤ ـ أن تلتمس العذر لقوله أو فعلِه إذا كان للعذر مجال.

٥ ـ أنْ تُركز على الأدلة والبراهين، ولا تنشغل بأقوال العلماء، فأقوالهم يُحتج لها ولا يُحتجّ بها.

٦ ـ ألا تستعجل بالردّ لكون ما سمعته أو قرأته غير مألوفٍ لديك، وغير معروف عند علماء بلدك، فقد يكون هو الحقّ.

ثانيًا: أدبك إذا ردَّ عليك أحد:

ينبغي لك إذا تحدّثت عن أمرٍ من أمور الدين أو الأخلاق أو التربية في مجلس أو خطبة، أو كتبتَ مقالًا أو غيره أنْ تفرح وتُسرّ بمن ردّ عليك بحقّ؛ لأنّ هذا يدل على وعْي الناس وانتشار العلم، ولو كان الردّ جافًّا فلا تحزن ولا تتضايق؛ لأنّ دافع الراد الغيرة على الدّين غالبًا.

وافرح بالمخالف المحقّ كفرحك بالمؤيد المحقّ؛ لأنَّ الغايةَ هي الوصولُ للحق، فقد يكون انتفاعُك بالمخالف أكثرَ من انتفاعك بالمؤيّد.

واحذر أن تدافع عن قولك إذا تبين لك عدم صوابه، واتّضح لك بالبراهين زيفُه، فتكون ممن اتبع هواه، وانتصر لنفسِه.

بل أعلن بكلّ رحابة صدر تراجعك عن قولك، واشكر من دلّك عليه، ولو كان في أسلوبه جفاءٌ.



٤٤ ـ [إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ... فإن فساد الرأي أن تترددَ][١].

يكمل الإنسان إذا كان فيه **صفتان**:

الصفة الأولى: أن يكون ذا رأي راجح، وحكمة وحسن تدبير.

الصفة الثانية: أن يكون ذا عزيمة على العمل بالرأي الذي رآه.

فإن كان ذا عزيمة بلا رأي: أنتج حمقًا وتهوّرًا، وإن كان ذا رأي بلا عزيمةً أنتج خمولًا وعجزًا وضعفًا.

وكثير من أهل الرأي والعقل إنما يُضعِفُ عزمَه: مراقبةُ الناس والخوف من نقدهم وألسنتهم، وصدق القائل:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا ... وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الْجَسُورُ

والناجح الموفق المسدد: من إذا همّ بأمر استخار الله تعالى أولًا[٢]، ثم شاور أهل الخبرة، ونظر في أمره، ثم إذا لاح له وجه الصواب عزم على المضي في فعله وتوكل على الله.

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَيْ: إِذَا عَزَمْتَ عَقِبَ الْمُشَاوَرَةِ عَلَى شَيْءٍ،

(١) جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري المتوفى نحو (٣٩٥هـ) (٢/ ٥٠).

(٢) قال العلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اختلف العلماء: هل المقدم المشورة أو الاستخارة؟ والصحيح أن المقدم الاستخارة؛ لقول النبي ﷺ: «**إذا همَّ أحدكم بالأمر فليصلِّ ركعتين**» إلى آخره، ثم إذا كررتها ثلاث مرات ولم يتبين لك الأمر فاستشر، ثم ما أشير عليك به فخذ به.اهـ. شرح رياض الصالحين (ص٧٩٠).

وَاطْمَأَنَّتْ بِهِ نَفْسُكَ، فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فِي فِعْلِ ذَلِكَ؛ أَيِ: اعْتَمِدْ عَلَيْهِ وَفَوِّضْ إِلَيْهِ». اهـ.

ولْنأخذ درسًا ومثالًا في المضي على العزم والثبات عليه: روى الإمام أحمد(١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ، وَرَأَيْتُ بَقَرًا مُنَحَّرَةً، فَأَوَّلْتُ أَنَّ الدِّرْعَ الْحَصِينَةَ الْمَدِينَةُ، وَأَنَّ الْبَقَرَ نَفَرٌ**»، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**لَوْ أَنَّا أَقَمْنَا بِالْمَدِينَةِ فَإِنْ دَخَلُوا عَلَيْنَا فِيهَا قَاتَلْنَاهُمْ**»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ مَا دُخِلَ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَيْفَ يُدْخَلُ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ: «**شَأْنَكُمْ إِذًا**»، فَلَبِسَ لَأْمَتَهُ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: رَدَدْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ رَأْيَهُ، فَجَاءُوا، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، شَأْنَكَ إِذًا، فَقَالَ: «**إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ**».

تأمل كيف علم وتحقق أنه إذا خرج من المدينة للقاء العدو سيُقتل كثيرٌ مِن أصحابه، ولكنه بعد المشورة والعزم على الخروج راجعوه في ذلك، وطلبوا منه أن يختار الأصلح، فرفض ذلك، وأمضى الأمر في الخروج، ودخل بيته فلبس درعه ولأمته، وهو يعلم إلى أين هو ماض، وما الذي ينتظره وينتظر الصحابة معه مِن آلام وتضحيات، وحتى حين أُتيحت فرصة أخرى بترددِ المتحمسين، وخوفِهم من أن يكونوا استكرهوه ﷺ على ما لا يريد، وتَرْكِهِم الأمر له ليخرج أو يبقى، حتى حين أتيحت هذه الفرصة لم ينتهزها ليرجع؛ لأنه أراد أن يعلمهم الدرس كله: درس الشورى، ثم العزم والمضي، مع التوكل على الله والاستسلام لقدره، ولا مجال بعد العزم للتردد والتأرجح ومعاودة تقليب الرأي من جديد.

---

(١) (١٤٧٨٧).

فهذا مآلُه الشلل والسلبية والتأرجح الذي لا ينتهي، إنما هو رأي وشورى، وعزم ومضاء، وتوكل على الله يحبه الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩].

واعلم أنّ بينك وبين النجاح والتفوق عقبةً قد تعوقك، وحاجزًا قد يمنعك، فمتى ما تغلبت على العقبة، وكسرت الحاجز دخلت عالم النجاح، وبلغت القمة.

ولم أرَ مثل الإقدامِ بروية، والجسارةِ بحكمة، وعدمِ الالْتفات للعادات التي لا سند لها، والنقدِ الذي لا حجةَ لصاحِبِه سوى مخالفة المألوف.

ومن عزم على شيء وبدأ به: فلْيمض ولا يترك ما بدأ به إلا إذا تبين له خطأ ذاك الشيء.

وكم مِن داعٍ إلى الله بدأ في الدعوة ثم تركها، وكم من شيخ بدأ في دروس نافعةٍ ولم يُكملْها، وكم من طالب علم بدأ في قراءة كتاب فلم يُتمّه، وبدأ في حضور دروسِ علمٍ فانقطع، وذلك بسبب ما يُواجه هؤلاء من الفتور وعدم استمرار النشاط الذي حصل في بادئ الأمر، وهؤلاء شاؤوا أم أبوا: إنما دفعهم على العمل ما وجدوه من الأنس والنشاط في البداية، فإذا انقطع انقطعوا، وليس هذا دأب أهل الصدق والإخلاص مع الله تعالى، والمؤمن لا يُعامل الله تعالى بحسب شهواته ورغباته؛ بل يعمل لله ولو كرهت نفسُه ذلك، إذا كان العمل مما يُرضي الله تعالى.

قال بعض السلف: دعوت نفسي إلى الله فأبت عليَّ واستصعبت، فتركتها ومضيت إلى الله[1].

---

(١) الحلية (تهذيبه) (٣/ ٢٤٨).

أي: دعوتها إلى القيام بالعبادات طواعية ورغبة، بحيث يقوم بها وهو منشرح الصدر، مُتلذِّذًا بها، ويجد نفسَه تنقاد لها، لكنها أبت وعصت، وعجز عن ذلك، فتركها ومضى لله تعالى، وقام بالعبادات على مشقةٍ وتعب وعناء.

وهذا هو الذي ينبغي على كلّ مؤمن صاحب همة وصدق مع الله، ومَن عامل الله على حسب رغبات النفس وشهواتها: لم يصدق مع الله، ولن يبلغ المنازل العالية في الدنيا والآخرة.



لطيفة

قال حكيم: «من أكثر الفكرة في العواقب لم يَشْجَعْ»(١).

لا تُكثر التفكير والنظر في عواقب ومآلات القرارات التي تتخذها، فما من قرار ورأي إلا له آثار سلبية غالبًا، ولكن انظر في الأمر وتأمله، وشاور أهل الخبرة بعد أن تستخير الله تعالى، ثم استعن بالله وأقدم.

ولقد تأمَّلت في حال الكثير مِن العقلاء وذوي النظر أنهم أقل الناس إنتاجًا وعزمًا؛ وذلك لأنهم يُبالغون في النظر إلى العواقب، ويشترطون عدم الخلل في أيٍّ أمرٍ يُقدمون عليه، وهذا لا يكاد يكون على أرض الواقع.



(١) الكامل في اللغة والأدب للمبرد (ص٦٥١).

٤٥ ـ [ذكر أهل العلم أنَّ درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، فدرءُ مفسدةِ قَمْعِ أهلِ الحق، وعدمِ إظهارِ دينهم واجتماعِهِم عليه، والدعوةِ إلى ذلك، وعدمِ تشتيتِهم وتشريدِهم في كلِّ مكان: مقدمٌ على جلب مصلحة الإنكار على ولاة الأمور، مع قوتِهم وتغلبِهم وقهرِهم، وعجزِ أهلِ الحق عن منابذتهم](١).

إنها قاعدةٌ عظيمةٌ يكاد يتفق عليها عامّةُ أهل العلم، ولقد كانت هذه العبارة الجليلة درعًا لي حصنتني عن شبهة الخروج على ولاة الأمر بدايةَ ظهور التطرف وبعض التنظيمات المشبوهة في بلادنا، وسلاحًا لي أشهرته في وجوههم، وقد حاججت بها بعض المنتسبين لبعض هذه الأفكار الضالة، وكانوا يستدلون كثيرًا بكلام أئمة الدعوة.

وكم كنت أذكر اجتماع الكثير من أهل الخير والصلاح، وتلاحمهم وتآلفهم، وكنت أحضر درسًا لأحد المشايخ، ويحضره كثير من طلاب العلم والعامة، وكانوا يسافرون لأجل النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم بدَأَتْ تتوافد هذه الأفكار الضالة، وتشَرَّبَتْها بعضُ قلوب هؤلاء، فأحسست بقسوة في قلوبهم بعد أن كانت رقيقة، وغلظة في تعاملهم بعد أنْ كانت سمحة، وبدؤوا يُعلنون انتقادهم للعلماء وولاةِ الأمر، وقد وقفت على هذه العبارة أثناء هذا التحول، فعصمني الله بها من الانجراف نحو هذا الفكر، الذي سيُؤدي إلى افتراق اجتماعهم، وتشتيتهم وتشريدهم في كل مكان، ومنعِهم من الأمر بالمعروف والنهي عن

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٨/ ٤٩١).

المنكر، وكنت أذكر لبعضهم هذا الكلام فيُقابلونه بالتأويل أو الردّ، وبعضهم سلّم له ولكن لم يكن يتصور أن يؤول الأمر إلى الفرقة والغلو والمحنة.

فما هي إلا سنتان تقريبًا حتى فاح نتن أفكار بعضهم، واجتهد الناصحون من المشايخ وغيرهم في نصحهم وثنيهم عن أفكارهم، ولكن أبوا إلا المضي فيما هم عليه، فطالتهم يد الأمن والدولة ـ حرسها الله ـ، فَشَتَّتَتْ شملهم، وسجنت من يستحق السجن، وقتلت من أشهر السلاح وروّع الآمنين، والمعصوم من عصمه الله.

قال الشيخ سليمان بن سحمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا كان لأهل الدين حوزة، واجتماع على الحق، وليس لهم معارض فيما يظهرون به دينهم، ولا مانع يمنعهم من ذلك، وكون الولاة مرتدين عن الدين، بتوليهم الكفار، وهم مع ذلك لا يُجرون أحكام الكفر في بلادهم، ولا يمنعون من إظهار شعائر الإسلام: فالبلد حينئذ بلد إسلام؛ لعدم إجراء أحكام الكفر، كما ذكر ذلك شيخنا الشيخ عبد اللطيف، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن الحنابلة وغيرهم من العلماء». اهـ(١).

وإذا كان البلد بلدَ إسلام: فإنه لا يجوز الخروج على ولاة أمره إذا كان الحال كما ذكر الشيخ.

ومن الفوائد التي استفدتها من هذه العبارة: أنّ العاقل حينما يرى منكرًا يتعلق بالدولة لا يُصرح ولا يلمح تلميحًا يشبه التصريح، بحيث يُؤخذ عليه ذلك، ويُساء الظن به، ويصدر في حقه المنع من المناشط الدعوية والدروس العلمية، بسبب الصدع بكلام يرى أنه حقّ، وليس العبرة

(١) من كلام الشيخ سليمان بن سحمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما في الدرر السَّنيَّة في الأجوبة النجدية (٨/ ٤٩١).

بقول الحق فحسب؛ بل لا بد ألا يترتب على الحق ضرر وشرٌّ كبيرٌ.

وقد اشتد نكير أهل العلم على من خرج على ولي الأمر المسلم وإن كان ظالِمًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا يَجُوزُ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِ بِمَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا حُرِّمَ الْخُرُوجُ عَلَى وُلَاةِ الْأَمْرِ بِالسَّيْفِ؛ لِأَجْلِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ؛ لِأَنَّ مَا يَحْصُلُ بِذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الْمُحَرَّمَاتِ وَتَرْكِ وَاجِبٍ أَعْظَمَ مِمَّا يَحْصُلُ بِفِعْلِهِمْ الْمُنْكَرَ وَالذُّنُوبَ، وَإِذَا كَانَ قَوْمٌ عَلَى بِدْعَةٍ أَوْ فُجُورٍ وَلَوْ نُهُوا عَنْ ذَلِكَ وَقَعَ بِسَبَبِ ذَلِكَ شَرٌّ أَعْظَمُ مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ وَلَمْ يُمْكِنْ مَنْعُهُمْ مِنْهُ وَلَمْ يَحْصُلْ بِالنَّهْيِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ: لَمْ يُنْهَوْا عَنْهُ. اهـ[(١)].

وقال أيضًا: وَيَقُولُونَ ـ أي: أهل السُّنَّة ـ إنه ـ أي: الإمام ـ يعاون على البر والتقوى، دون الإثم والعدوان، ويطاع إلى طاعة الله دون معصيته، ولا يخرج عليه بالسيف، وأحاديث النبي ﷺ إنما تدل على هذا، كما في الصحيحين قال: «**من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه، فإنه ليس أحد من الناس يخرج عن السلطان شبرًا فمات عليه، إلا مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فقتل، فقتلته جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه**».

فذم الخروج عن الطاعة ومفارقة الجماعة، وجعل ذلك ميتة جاهلية؛ لأن أهل الجاهلية لم يكن لهم رأس يجمعهم.

إلى أن قال: وهو ﷺ قد أخبر أنه بعد ذلك يقوم أئمة، لا يهتدون

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٧٢).

بهديه، ولا يستنُّون بسُنَّته، ويقوم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان الإنس، وأمر مع هذا بالسمع والطاعة للأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك؛ فبين: أن الإمام الذي يطاع هو من كان له سلطان، سواء كان عادلًا أو كان ظالمًا. اهـ(١).

وفيه أيضًا: عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ**»(٢) وهذا كله مما يبين أن ما أمر به النبي ﷺ من الصبر على جور الأئمة، وترك قتالهم والخروج، هو أصلح الأمور للعباد، في المعاش والمعاد، وأن من خالف ذلك متعمدًا أو مخطئًا، لا يحصل بفعله صلاح؛ بل فساد. اهـ(٣).

وهذا إمام أهل السُّنَّة، أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، سَأَله جماعةٌ فِي أَمْرٍ كَانَ حَدَثَ بِبَغْدَادَ، وَهَمَّ قَوْمٌ بِالْخُرُوجِ على وليّ الأمر، فقيل له: «يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، مَا تَقُولُ فِي الْخُرُوجِ مَعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ؟

فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ يَقُولُ: سُبْحَانَ اللهِ، الدِّمَاءَ، الدِّمَاءَ، لَا أَرَى ذَلِكَ، وَلَا آمُرُ بِهِ، الصَّبْرُ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْفِتْنَةِ يُسْفَكُ فِيهَا الدِّمَاءُ، وَيُسْتَبَاحُ فِيهَا الْأَمْوَالُ، وَيُنْتَهَكُ فِيهَا الْمَحَارِمُ، أَمَا عَلِمْتَ مَا كَانَ النَّاسُ فِيهِ؟ ـ يَعْنِي: أَيَّامَ الْفِتْنَةِ ـ فقيل له: وَالنَّاسُ الْيَوْمَ، أَلَيْسَ هُمْ فِي فِتْنَةٍ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ؟

قَالَ: وَإِنْ كَانَ، فَإِنَّمَا هِيَ فِتْنَةٌ خَاصَّةٌ، فَإِذَا وَقَعَ السَّيْفُ عَمَّتِ

---

(١) منهاج السُّنَّة النبوية (١/ ٥٥٦ ـ ٥٦١).
(٢) رواه مسلم (١٨٥٥).
(٣) منهاج السُّنَّة النبوية (٤/ ٥٣١).

الْفِتْنَةُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، الصَّبْرَ عَلَى هَذَا، وَيَسْلَمُ لَكَ دِينُكَ خَيْرٌ لَكَ.

وَكان يُنْكِرُ الْخُرُوجَ عَلَى الْأَئِمَّةِ، وَيقول: الدِّمَاءَ، لَا أَرَى ذَلِكَ، وَلَا آمُرُ بِهِ»[١].

وقَالَ حَنْبَلٌ: اجْتَمَعَ فُقَهَاءُ بَغْدَادَ فِي وِلَايَةِ الْوَاثِقِ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ وَقَالُوا لَهُ: إنَّ الْأَمْرَ قَدْ تَفَاقَمَ وَفَشَا ـ يَعْنُونَ إظْهَار الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ وَغَيْر ذَلِكَ ـ وَلَا نَرْضَى بِإِمْرَتِهِ وَلَا سُلْطَانه، فَنَاظَرَهُمْ فِي ذَلِكَ وَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِالْإِنْكَارِ بِقُلُوبِكُمْ، وَلَا تَخْلَعُوا يَدًا مِنْ طَاعَة، وَلَا تَشُقُّوا عَصَا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَسْفِكُوا دِمَاءَكُمْ وَدِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ مَعَكُمْ، وَانْظُرُوا فِي عَاقِبَةِ أَمْرِكُمْ، وَاصْبِرُوا حَتَّى يَسْتَرِيح بَرٌّ أَوْ يُسْتَرَاح مِنْ فَاجِر، وَقَالَ: لَيْسَ هَذَا صَوَاب، هَذَا خِلَاف الْآثَار.

وَقَالَ الْمَرُّوذِيُّ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ يَأْمُر بِكَفِّ الدِّمَاء وَيُنْكِر الْخُرُوج إِنْكَارًا شَدِيدًا، وَقَالَ فِي رِوَايَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ سَعِيدٍ الْكَفُّ؛ لِأَنَّا نَجِدُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَا صَلَّوْا فَلَا**». اهـ[٢].

وقد قَالَ الْعُقَلَاءُ: «سِتُّونَ سَنَةً مِنْ سُلْطَانٍ ظَالِمٍ خَيْرٌ مِنْ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ بِلَا سُلْطَانٍ»[٣].

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ:

اللَّهُ يَدْفَعُ بِالسُّلْطَانِ مُعْضِلَةً ... عَنْ دِينِنَا رَحْمَةً مِنْهُ وَرِضْوَانَا
لَوْلَا الأَئِمَّةُ لَمْ تَأْمَنْ لَنَا سُبُلٌ ... وَكَانَ أَضْعَفُنَا نَهْبًا لأَقْوَانَا[٤]

(١) السُّنَّة للخلال (١/ ١٣٢) رقم (٨٩).
(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ١٧٥).
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٠/ ١٣٦).
(٤) تاريخ الإسلام: (٤/ ٨٨٢)، وسير أعلام النبلاء (٧/ ٣٨٧) كلاهما للذهبي.

لطيفة

حجج لإقناع من طرأ عليه شكّ في وجود الله ﷻ أو في صدق نبوّة النبي محمد ﷺ:

١ ـ كلُّ عاقلٍ يعلم بداهةً حينما يرى آلةً مصنوعة أنّ لها صانعًا، ولا يخطر في باله أن يعرف أسرار تشغيلها وما بداخلها كي يستدل على وجود صانع لها، ولو فعل ذلك لاتّهمه الناس في عقله.

ولله المثل الأعلى، فهذه المخلوقات البديعة الدقيقة، من الكائنات الحية، والسمٰوات الواسعة العريضة، والأكوان العجيبة، والبحار التي تحوي عجائب الخلق: ألا تدل على أنّ لها صانعًا؟

ولذلك أكْثَر الله تعالى من الأمر بالتفكر في آياته، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الرُّوم: ٢٢ ـ ٢٤].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٩٠].

وهذه الآيات يكاد يتفق عليها الناس، ولا تحتاج إلى مزيد بحث واستقصاء، ونظر وعلم.

ولذلك كان أنبياء الله عليهم السلام يحتجون على أقوامهم بخلق السموات والأرض، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

فإذا كان مِن السفه وقلَّةِ العقل السؤالُ عن تفاصيل الصناعة البشرية لأجلِ التصديقِ بأنَّ لها صانعًا، فالسؤال عن تفاصيل الصناعة الربانية والآيات الكونية أشدّ في السّفه وقلّة العقل.

وإذا كانت الآيات الكونيةُ شاهدةً ودالةً على عظمةِ وجلالةِ وحكمةِ الله تعالى، فكيف بآياته الشرعية؟

فهي والله أعظم دلالة، وأقوى بيانًا على عظمة الخالق وحكمته وإتقانه سبحانه وتعالى.

٢ ـ يُقال لمن نفى وجود الله لأنه لم يره: كيف تستدلّ على عقلك ومخك وأنت لم تره؟

سيقول: أستدل على وجود وكمال عقلي بأفعالي وتصرفاتي.

فنقول له: ونحن نستدل على وجود الله بأفعاله وخلقِه وبديعِ صنعه، وعظمةِ شرعِه، وبلاغة وكَمَال كلامِه في كتابِه «القرآن الكريم» المحتوي على أعلى صنوف البلاغة والبيان، وأتمّ وأحسن الوصايا والشرائع والأحكام، وأنسبها للبشريّة، وأحكمها وأفضلِها.

ألا يدلّ كلّ هذا على وجود الربّ الحكيم اللطيف الخبير؟

٣ ـ عاتب الله تعالى في القرآن النبي صلى الله عليه في عدّة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا

عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾﴾ [عَبَس: ١ ـ ٩].

أي: «كَلا، ما الأمر كما تفعل يا محمد من أن تعبس في وجه من جاءك يسعى وهو يخشى، وتتصدّى لمن استغنى»[(١)].

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨].

وقوله: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فهل يُعقل أنْ يأتي رجلٌ يدّعي النبوّة وأنه نزل عليه كتاب من الله يُؤيّده ويحث الناس على اتباعه، ويقرأ على الناس عتاب الله له؟

هذا لا يكون إلا من رجل صادق، لا يدّعي شيئًا من عنده؛ بل هو مبلّغ عن الله.

٤ ـ ومن يدّعي النبوة وأن الله أنزل عليه القرآن فلن يجعل في القرآن إلا ما يحث على طاعته، ولن يُطيل الكلام في تفاصيل الأحكام الشرعيّة، وقصص الأنبياء، وأحوال الناس بعد الموت.

٥ ـ أنّ من يدّعي النبوة سيكون همّه جمعَ المال وتثبيت دعائم ملكه بتولية أقاربِه، ولكن النبي ﷺ لم يجمع مالًا؛ بل قال بكلّ صراحة: «**لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ**»[(٢)].

وكان يأمر أبا بكر أن يصلي بالناس إذا غاب، ولم يأمر عليًّا ولا العباس وغيرهما من أقاربِه؛ بل قال بكلّ وضوح في مرض موتِه: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُرْسِلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَابْنِهِ فَأَعْهَدَ** ـ أي: بالخلافة ـ، **أَنْ يَقُولَ**

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٢٢٠ ـ ٢٢١). (٢) رواه مسلم (١٧٥٧).

القَائِلُونَ أَوْ يَتَمَنَّى المُتَمَنُّونَ، ثُمَّ قُلْتُ: يَأْبَى اللهُ وَيَدْفَعُ المُؤْمِنُونَ»[١].

واعلم أنّ دين الإسلام دين العقل والفطرة، وكلّ من خالف ما فيه فليس معه إلا شُبَهٌ وظنون وشكوك، وصدق شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال: «المخالفون للكتاب والسُّنَّة والإجماع، والْمُدَّعون حصول القواطع العقلية: إنما معهم شُبَهُ المعقولات لا حقائقها»[٢].



(١) رواه البخاري (٥٦٦٥).

(٢) جامع المسائل (١/ ٦٤).

٤٦ ـ [لا يكفي مجرد كون الفعل محبوبًا له ـ أي: لله تعالى ـ في كونه قربة، وإنما يكون قربة إذا لم يستلزم أمرًا مبغوضًا مكروهًا، أو تفويت أمر هو أحب إليه من ذلك الفعل، وأما إذا استلزم ذلك فلا يكون قربة](١).

هذه العبارة جعلتني أقف عند الأعمال الصالحة والخيّرة، وأنظر فيما تؤول إليه، فإن آلت إلى مفسدة أحجمت، وإلا أقدمت.

وهي قاعدة تنفع من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فإذا كان الأمر يُؤدي إلى مفسدة امتنع عن ذلك.

«وبعض الناس يعتقد أنه إذا تكلم على أحدٍ من الناس: يعتقد أن كلامه وغضبه وشدته بدافع الغيرة على الدين، وأن ذلك سائغ له، ولو أدى ذلك إلى التقاطع والتنافر.

وقد يصل الأمرُ ببعض الناس إلى شكايته إلى المسؤولين، أو مخاطبته بأقسى لهجة، وأعنف صيغة، أو إرسال رسالة له فيها الشدة والقسوة، كلُّ ذلك باعتقاده أن هذا هو الحل الأمثل، وأنه يقدم رضا الله ولو سخط الناس، وأنه لا تأخذه في الله لومة لائم، وإن علم أنه سيترتب على فعله ما هو أعظم وأبغض إلى الله مما أنكره عليه.

وقد أخطأ أشد الخطأ بهذا الظن الخاطئ، فكل من أنكر منكرًا فترتب عليه منكرٌ أعظم منه ـ كالتقاطع والتنافر ـ فلا يجوز ذلك.

هذا إذا لم يكن هذا المنكرُ شنيعًا وكبيرًا، وتعدَّى ضرره على الآخرين»(٢).

(١) الصَّارِمُ المُنْكِي في الرَّدِّ عَلَى السُّبْكِي، لابن عبد الهادي الحنبلي (المتوفى: ٧٤٤هـ).
(٢) إرْشادُ السَّاجِدِ بأسْبابِ الخِلَافِ والتَّقاطُعِ فيْ الْمَسَاجِدِ للمؤلف (ص٢١ ـ ٢٢).

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مستلزمًا من الفساد أكثر مما فيه من الصلاح لم يكن مشروعًا. اهـ[(١)].

وقال أيضًا: وكلُّ ما أوجب فتنة وفرقة فليس من الدين ـ سواء كان قولًا أو فعلًا ـ. اهـ[(٢)].

فالعمل أو القول لا يكون صالحًا مُتقبّلًا إلا **بشرطين**:

الشرط الأول: أنْ يكونَ محبوبًا لله تعالى، بأن يثبت بالدليل كونه قربة.

الشرط الثاني: ألا يستلزم أمرًا مبغوضًا مكروهًا، أو تفويت أمر هو أحب إليه من ذلك الفعل.



(١) الاستقامة (ص٢٤١).

(٢) الاستقامة (ص٥٦).

لطيفة



دين الإسلام مبنيٌّ على اليسر والسماحة والرحمة ورفعِ الحرج، فمتى رأيتَ أحدًا خرج عن ذلك فإنما هو من سوء فهمِه، وقلّةِ خبرتِه بالشريعة ومقاصدِها.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرَّحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة»[١].

❁ ❁ ❁

(١) أعلام الموقعين (٢/ ١٣).

٤٧ ـ [لا أحب من أهل العلم أنْ يجهد كل واحد نفسه في الرد على الآخر في المسائل الاجتهادية التي تتجاذبها الأدلة؛ لأن قول كل واحد ليس حجة على الآخر، وفهمه للنصوص ودلالاتها، وعلمه بمصادرها ومواردها لا يلزم أن يكون مساويًا للثاني...

فلا أحب أن يجهد الإنسان نفسه في الأخذ والرد بين إخوانه من أهل العلم في المسائل الاجتهادية التي تتجاذبها الأدلة لما في ذلك من ضياع الوقت، وفتح باب الجدل والانتصار للرأي، وإنما على المرء أن ينظر في كلام من رد عليه فإن تبين أن الصواب معه وجب عليه أن يحمد الله تعالى حيث هيَّأ له من يبين له الصواب ويفتح له باب الحق، ووجب عليه أن يرجع إلى الصواب، فإنَّ الرجوعَ إلى الحق خيرٌ مِن التمادي في الباطل](١).

كم رأينا الكثير من كتب الردود، وليتها ردود على المبتدعة والكفار ونحوهم من أهل الأهواء، ولكنها ردود أهل الخير والعلم بعضهم على بعض، في مسائل أو آراءٍ اجتهادية، وكان الأولى بهم إن رأوا ضرورة الرد أن يردوا على القول نفسه، ويتركوا القائل.

وقد كان السلف الصالح «إذا صدرت من أحدهم فتوى تُخالف النص: ردُّوا على الفتوى وبيَّنوا خطأها مع الاحتفاظ لصاحبها بالاحترام والإجلال، والْتمسوا له الأعذار، وأحسنوا الظنّ به.

أَخْرَجَ الطَّبَرِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ كما قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢) عَنِ الزُّهْرِيِّ

(١) مجموع فتاوى العلَّامة محمد بن عثيمين (١٥/ ٣٤١).
(٢) فتح الباري (٦/ ٢٠٦).

أَنه سمع سعيد بن مرْجَانَة يَقُول: كنت عِنْد ابن عُمَرَ فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فقَالَ: وَاللهِ لَئِنْ وَاخَذَنَا اللهُ بِهَذَا لَنَهْلِكَنَّ ثُمَّ بَكَى حَتَّى سُمِعَ نَشِيجُهُ، فَقُمْتُ حَتَّى أتيت ابن عَبَّاس فَذكرت لَهُ مَا قَالَ ابن عُمَرَ وَمَا فَعَلَ حِينَ تَلَاهَا، فَقَالَ: يَغْفِرُ اللهُ لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، لَعَمْرِي لَقَدْ وَجَدَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ نَزَلَتْ مِثْلَ مَا وَجَدَ، فَأَنْزَلَ الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: كُنْتُ أَنَا وَابْنُ عُمَرَ مُسْتَنِدَيْنِ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ، وَإِنَّا لَنَسْمَعُ ضَرْبَهَا بِالسِّوَاكِ تَسْتَنُّ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، اعْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي رَجَبٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ لِعَائِشَةَ: أَيْ أُمَّتَاهُ أَلَا تَسْمَعِينَ مَا يَقُولُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَتْ: وَمَا يَقُولُ؟ قُلْتُ يَقُولُ: اعْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي رَجَبٍ، فَقَالَتْ: «يَغْفِرُ اللهُ لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، لَعَمْرِي، مَا اعْتَمَرَ فِي رَجَبٍ، وَمَا اعْتَمَرَ مِنْ عُمْرَةٍ إِلَّا وَإِنَّهُ لَمَعَهُ» قَالَ: وَابْنُ عُمَرَ يَسْمَعُ، فَمَا قَالَ: لَا، وَلَا نَعَمْ، سَكَتَ. رواه مسلم(١)

فلْنتعلم من مدرسة أصحاب النبي ﷺ كيفيَّة التعامل مع من أفتى بخلاف الحقّ، وخالف النص الصريح؛ لعدم علمِهم بهذا النصّ أو نسيانِه أو تأويلِه، والعجيب أنه لم يكن أحدٌ من أقرانهم وأصحابهم يردّ عليهم بالعنف والغلظة، ولم يقدحوا بالشخص نفسِه، إنما كانوا يردُّون على الفتوى نفسها، ويُبيِّنون غلطها، دون الْمَساس بصاحبها.

وهذا بخلاف ما عليه بعض الناس، من القدح بالْمُخالف؛ بل والدخولِ في نيَّاتهم، والقدح في أشخاصهم، في مسألةٍ اجْتهادية، ليس

(١) (١٢٥٥).

عليها نصٌّ صريح، إنما هي محلُّ بحثٍ واجتهاد، ومع ذلك يتعامل بعض الناس مع مَن خالفه وكأنه ارتكب جريمةً بشعة، أو خالف النصوص الصريحة.

ولم يُكلِّف أحدُهم نفسه التواصل معه، ولو عن طريق الهاتف، أو الذهابَ إليه ليتحقق من ذلك، ويُناقشه بأدبٍ وحكمة.

وقد قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٥ ـ ٢١٦] أَمره بخفض الجناح لهم، وهو كنايةٌ عن الرحمة لهم، والشفقة عليهم، فإنْ خالفوه وعصوه في أمرٍ من الأمور، فحينها يتبرأ من فعلهم لا منهم!

هذا وهو النبي الذي تجب طاعته، وتحرم معصيتُه، ومع ذلك كلّه أمره ربّه أنْ يكون سخطُه على أفعالهم وأخطائهم، ويُبقي على مودّتهم وصُحبتهم.

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ فقد أمر الله تعالى نبيّه ﷺ عند مخالفة أصحابه له أن يتبرأ من فعلهم لا منهم.

فهكذا يجب علينا أنْ نَنْقُد أخطاء المسلمين ونبرأ منها، لا أنْ نَنْقُد ذواتهم ونتبرأ منهم.



لطيفة

من أراد الخلاصَ أمراض القلب والشك والريب والوسواس والهمّ فعليه بقراءة القرآن وتدبّره.

كتب معالي الشيخ عبد الله المنيع ـ وفقه الله ـ في جريدة الرياض في عددها الصادر في ٢٨/ ٩/ ١٤٣١هـ هذه القصة المعبرة، يقول معاليه: كنت في جلسة مع أحد إخواننا ذوي الشفافية في التدين ـ علماني ـ وقد جرى الحديث معه حول الحياة الدنيا، وأن الحياة محدودة ومتبوعة بحياة أبدية، الناس فيها فريقان، فريق في الجنة وفريق في السعير، خالدين في الحالين إلا من شاء الله.

قال: فذكر أن ما قلته له محل نظر، وليس لديه ما يؤكد هذا القول، ولكنه يرى أن الإنسان يجب عليه أن يحترم أخاه الإنسان، وأن يعيش معه تعايشًا سلميًّا بغض النظر عن ديانته..

واشتد عليَّ هذا الأخ، ووصفني بالرجعية والتأخر عن إدراك معنى الحياة والوجود.

وقلت له: يا أخي هذا شيك بعشرة آلاف ريال في مقابل أن تقرأ كتاب الله مرة واحدة بتأمل وتدبر، كأنه رسالة مرسلة إليك من عزيز عليك، وأن تعاهدني على ذلك، وأن تحدد لي معك جلسة أخرى بعد انتهائك من القراءة، فأخذ الشيك وأعطاني عهدًا ألا يصرفه إلا بعد القراءة.

قال: وبعد أسبوع اتصل بي وطلب تحديد وقت للجلسة الثانية، حيث أتم قراءة القرآن، وعند الاجتماع به أعاد لي الشيك حيث لم

يصرفه، وأعطاني شيكًا بعشرين ألف ريال، وقال: أما شيكك فقد كان له أثر كبير في إخراجي من الظلمات إلى النور، ومن الحيرة والشك إلى الحقيقة واليقين، وأسأل الله أن يجزيك عني خير ما جازى به داعيًا إلى ربه، فقد قرأت كتاب الله وفاءً بالعهد، فوجدت فيه من العظة والعِبر، وأسباب حياة القلب ما قادني إلى الأمل من الله أن أكون بعد الموت من فريق الجنة، وأما الشيك الآخر المسحوب مني لك فهو جزاء إنقاذك إياي من ظلمات الشك والحيرة إلى أنوار اليقين. فقلت: يا أخي ما رأيك أن نغير الشيكين إلى شيك لصالح جمعية تحفيظ القرآن شكرًا لله على هذه النتيجة المباركة.

ثم قال هذا الرجل: يا أخي والله ثم والله ما كان مني ومن إخواني العلمانيين من الشك والريب إلا نتيجة الجهل والكِبر والتكبُّر على الاتجاه إلى أسباب الهداية والرشاد، فوالله ـ وأنا اليوم أعرف من أحلف به ـ ما جعلنا بهذا المسلك الأثيم من الشك والحيرة والارتياب بل قد يصل الأمر إلى الكفر بالله إلا جهلنا بكتاب الله، وبعدنا عن الأخذ بحبله المتين، وصراطه المستقيم.اهـ.



٤٨ ـ [إِنَ أَحْكَامَ الدِّينِ حَتَّى الْمُعَامَلَاتِ مِنْهَا يَنْبَغِي أَنْ تُسَاقَ إِلَى النَّاسِ مَسَاقَ الْوَعْظِ الْمُحَرِّكِ لِلْقُلُوبِ، لَا أَنْ تُسْرَدَ سَرْدًا جَافًّا كَمَا تَرَى فِي كُتُبِ الْفِقْهِ][(١)].

ما أجمل مزج العلوم الشرعية بالمواعظ المرققة للقلوب، والتوجيهات النافعة.

ولقد فادتني هذه العبارة في دروسي وخطبي، فمزجت الدروس والخطب العلمية بشيء من المواعظ، والرقائق، واللطائف.

وممن كان ينهج هذا النَّهْج الصحيح: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد كان كثيرًا ما يسوقُ الْأحكام والمسائل الشرعية مَسَاقَ الْوَعْظِ الْمُحَرِّكِ لِلْقُلُوبِ، فمن ذلك قوله في قول النبي ﷺ: «**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة**»[(٢)]: إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت، فكيف تلج معرفة الله عَزَّ وَجَلَّ، ومحبته، وحلاوة ذكره، والأنس بقربه، في قلب ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها.

وقولُه: إن طهارة الثوب الطاهر والبدن إذا كانت شرطًا في صحة الصلاة، والاعتداد بها، فإذا أَخَلَّ بها كانت فاسدة، فكيف إذا كان القلب نجسًا ولم يُطَهِّره صاحبه؟ فكيف يُعْتَدُّ له بصلاته، وإن أسقطت القضاء؟ وهل طهارة الظاهر إلا تكميلًا لطهارة الباطن؟.

وقولُه: إن استقبال القبلة في الصلاة شرط لصحتها، وهي بيت الرب، فتوجُّه المصلي إليها ببدنه وقالَبِه: شرط، فكيف تصح صلاة من

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٢/ ٣٥٩ ـ ٣٦٢).
(٢) رواه البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم (٢١٠٤).

لم يتوجه بقلبه إلى رب القبلة والبدن؟ بل وجَّه بدنه إلى البيت ووجَّهُ قلبه إلى غير ربّ البيت[١].

وقد أشار إلى ذلك الزركشي رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «عَلَى فَقِيهِ النَّفْسِ[٢] ذِي الْمَلَكَةِ الصَّحِيحَةِ تَتَبُّعُ أَلْفَاظِ الْوَحْيَيْنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَاسْتِخْرَاجُ الْمَعَانِي مِنْهُمَا.

وَمَنْ جَعَلَ ذَلِكَ دَأْبَهُ وَجدَهَا مَمْلُوءَةً، وَوَرَدَ الْبَحْرَ الَّذِي لَا يَنْزِفُ.

وَكُلَّمَا ظَفِرَ بِأَيَّةٍ طَلَبَ مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهَا، وَاسْتَمَدَّ مِنْ الْوَهَّابِ.

وَمِنْ فِقْهِ الْفِقْهِ قَوْلُهُمْ فِي حَدِيثِ مَيْمُونَةَ: «هَلَّا أَخَذْتُمْ إهَابَهَا فَدَبَغْتُمُوهُ فَانْتَفَعْتُمْ بِهِ» إنَّ فِيهِ احْتِيَاطًا لِلْمَالِ، وَإِنَّهُ مَهْمَا أَمْكَنَ أَنْ لَا يُضَيَّعَ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُضَيَّعَ.

وَالْفَقِيهُ[٣] أَعْلَى، يَأْخُذُ مِنْ هَذَا مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهُ، وَهُوَ أَنَّ الْجَالِسَ عَلَى الْحَاجَةِ، أَوْ الْمُسْتَرِيحَ عَلَى الْقَارِعَةِ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ إذَا بَاحَثَ نَفْسَهُ قَالَ لَهَا: هَلَّا حَصَّلْت ثَوَابًا وَعَمَلًا صَالِحًا؟

فَإِذَا قَالَ لَهُ الْوَسْوَاسُ: أَنْتَ عَلَى الْخَلَاءِ، وَمَا عَسَاك تُحَصِّلُ مِنْ الطَّاعَةِ وَأَنْتَ بِمَكَانٍ تُنَزِّه عَنْهُ ذِكْرَ اللهِ.

يَقُولُ: إنَّمَا مُنِعْنَا ذِكْرَ اللهِ بِالْأَلْسُنِ، فَهَلَّا اسْتَحْضَرْتَ ذِكْرَ الْمُنْعِمِ بِدَفْعِ هَذَا الْأَذَى عَنَّا، وَتَهَيُّؤِ الْقُوَّةِ الدَّافِعَةِ، حَتَّى لَا يَخْلُو تَحْصِيلُ الطَّاعَةِ مِنْ الْمَحَالِّ الْقَذِرَةِ؟. كَمَا أَنَّ الشَّارِعَ لَمْ يَغْفلْ عَنْ فَتْحِ تَحْصِيلِ الْمَالِ مِنْ الْمُقَذَّرَاتِ وَالْمَيْتَاتِ بِمُعَالَجَةِ الدِّبَاغِ». اهـ[٤].

(١) يُنظر: مدراج السالكين (٢/ ٣٩١).
(٢) يعني به: فقيه القلب والإيمان والسلوك.
(٣) أي: فَقِيه النَّفْسِ.
(٤) البحر المحيط (٨/ ٢٧٢).

وكثيرًا ما يختم الله تعالى آيات المعاملات والأحكام الشرعية بالمواعظ والإرشادات الدينية النافعة، **فمن ذلك**:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٣٥].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣].

٤ ـ وقوله تعالى في ختام آية الدين التي هي أطول آية في كتاب الله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢].

فليت الذين يُعَلِّمون الناس ويؤلفون في الأحكام والمعاملات يقتدون بالقرآن الكريم، ويمزجون تلك الأحكام بالإرشادات الدينية، والمواعظ الإيمانية، والنصائح التربوية؛ ليُصبح للكلام والكتاب طعمٌ يحلو مذاقُه، وأنسٌ ولذةٌ يروق للسامع والقارئ سياقُه.

والعناية بالإيمانيات وأعمال القلوب أهم من العناية بالأحكام والمعاملات، والجمع بينهما هو الأتم والأفضل والأكمل.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: فأمَّا علم المعاملة وهو علم أحوال القلب؛ كالخوف، والرجاء، والرضى، والصدق، والإخلاص وغير ذلك، فهذا

العلم ارتفع به كبار العلماء، وبتحقيقه اشتهرت أذكارهم، كسفيان، وأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد.

وإنما انحطت رتبة الْمُسمَّيْن بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات، لتشاغلهم بصورة العلم من غير أخذٍ على النفس أن تبلغ إلى حقائقه وتعمل بخفاياه.

وأنت تجد الفقيه يتكلم في الظِّهار، واللِّعان، والسبع، والرمي، ويفرع التفريعات التي تمضي الدهور فيها ولا يحتاج إلى مسألة منها، ولا يتكلم في الإخلاص، ولا يحذر من الرياء، وهذا عليه فرض عين؛ لأن في إهماله هلاكه، والأول فرض كفاية، ولو أنه سئل عن علة ترك المناقشة للنفس في الإخلاص والرياء لم يكن له جواب، ولو سئل عن علة تشاغله بمسائل اللعان والرمي، لقال: هذا فرض كفاية، ولقد صدق، ولكن خفي عليه أن الحساب فرض كفاية أيضًا، فهلا تشاغل به، وإنما تبهرج عليه النفس؛ لأن مقصودها من الرياء والسمعة يحصل بالمناظرة، لا بالحساب!. اهـ[(١)].

فماذا نقول لحال الكثير من الناس، وقد انطبق عليه كلامه تمامًا، نسأل الله أنْ يرزقنا العلم النافع.

۞ ۞ ۞

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص٨).

لطيفة

يبنغي للعاقل وطالب العلم أن يتخلص من العبارات التي فيها تفخيمٌ لنفسِه.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله عليه الصلاة والسلام في خطبة الكسوف (يا أمة محمد) ولم يقل يا أمتي: «أنه ينبغي له ـ أي: ـ للواعظ ـ حال وعظه ألا يأتي بكلام فيه تفخيم لنفسه؛ بل يبالغ في التواضع؛ لأنه أقرب إلى انتفاع من يسمع».اهـ[1].

ومن أمثلة كلام الواعظ والمتحدث الذي فيه تفخيم لنفسه ـ وقد لا يقصد ذلك، ولكن الأولى تركُه ـ:

١ ـ قوله حينما يتحدث عن نفسِه: نحن، فعلنا، قلنا، رأينا، رجحنا.

٢ ـ الإكثار من ذكر قصصه ومواقفِه.

٣ ـ توجيه النصائح للناس بعبارات لا تشمله؛ كأن يقول: افعلوا كذا، أدوا زكاة أموالكم، ربُّوا أولادكم، ولْيقل: لنفعل كذا، يجب أن نُؤدي زكاة أموالنا.



(١) الفتح (٣/ ٤٩١).

٤٩ ـ [ما وجد أحدٌ في نفسه كبرًا إلا من مهانة يجدها في نفسه][(١)].

إنّ الذي يشعر بالنقص: يسعى إلى تكميله بشتى الطرق، حتى يذهب عنه ألم الشعور بالنقص والدُّون، ولو كلفه ذلك الغالي والنفيس، ولو أدى به ذلك إلى كره الناس له، أو بذل ماله ووقته في سبيل ذلك.

والغالب على هؤلاء المتكبرين الناقصين: أنهم يتسلطون على من يقدرون عليه، ويُطلق علماء النفس على هؤلاء: الشخصية المتسلطة، والشخصية المتملكة.

بل إنَّ الطفل إذا أحس أنَّ والديه أو أحدهما لا يعيرانه اهتمامًا فإنه يسعى إلى لفت أنظارهم بتغيير سلوكه؛ إما بالصراخ، أو الغضب والشتم واللوم، وإما بإفساد شيء في البيت لتقع التهمة على غيره.

وأصل التواضع: «ما كان في القلب لا ما في الظاهر، فليس التواضع بنزولك إلى من هو أقلّ وأدنى منك، ولكن بألا ترى في نفسك ما يُميّزها عن غيرها لتنزل إليهم، فتتعاملُ مع الصغير والفقير مُعاملةَ الأخ مع أخيه والصديق مع صديقِه.

فمجرّد شعورِك بأنّك متواضعٌ عند تعاملك مع من هو أقل منك ـ في الظاهر ـ دليلٌ على أنّك ترى نفسك أرفع منه في الباطن، وهذا نوعٌ من الترفع الخفيّ.

ولكنّ الرفعة الحقيقية بالتقوى، ولا يعلم قدر التقوى في القلوب

---

(١) نُسبت هذه العبارة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ولا تصح عنه، وقد نسبها له: الجاحظ في كتابه: البيان والتبيين (ص٢٩٤).
ولكنها عبارة صحيحة لا غبار عليها، والواقع والتجربة أكبر شاهد عليها.

إلا ربّنا ﷻ، فتبرّأ من هذا الشعور الدقيق، واسأل ربَّك صلاح القلب ولباس التقوى فذلك خير.

واعلم أنَّ التظاهر بالتواضع نوعٌ من الكبر، والمتواضع حقًّا لا يتصنّع، والمبالغة في ذمّ الإنسان نفسه ليس محمودًا، والغالب أنّ صاحبه لا يسلم من الكبر، وعلامة ذلك: أنه لو نقده أحدٌ بمثل ما نقد نفسه لَمَا رضي بذلك، وكرهه واسْتثقله وربما ردّ عليه وخاصمه!

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: وها هنا نكتة دقيقة وهي: أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس يريد بذلك أن يري أنه متواضع عند نفسه، فيرتفع بذلك عندهم، ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد نبه عليه السلف الصالح، قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: كفى بالنفس إطراء أن تذمها على الملأ، كأنك تريد بذمها زينتها، وذلك عند الله شينها. اهـ[(١)].

ولا سبب للعاقل يدعوه إلى الشعور باستعلائه على غيره ـ من المسلمين ـ، فإن كان لغناه أو لصحته وسلامة أعضائه، فذلك ليس بجهدِه ولا صُنْعِه، وإنما منّةً ربّانيّة، ثم إنّ قيمةَ الإنسان بصلاح قلبِه وحسنِ أخلاقه، ولا عبرة بالشكل ولا بالمال الذي قد يذهب بأي لحظة، وصدق القائل:

فلا تغتر بالعز والمال والمنى … فكم قد بُلينا بانقلاب صفاتها»[(٢)]

وما أجمل ما قاله الجاحظ: لم أر ذا كبر قطّ على مَن دونه إلا وهو يذلّ لمن فوقه بمقدارِ ذلك ووزنِه. اهـ[(٣)]

---

(١) شرح حديث: «**ما ذئبان جائعان**» (ص٨٨) مجموع رسائله.
(٢) آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه للمؤلف (ص٥٣).
(٣) الحيوان (٦/ ٣٥٣).

لطيفة

أحقّ الناس في التعامل الحسن واللطيف ـ بعد الوالدين ـ: هم الأهل والزوجة:

قال الصادق المصدوق ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ[(١)].

قال الشوكانيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: فِي ذَلِكَ تَنْبِيهٌ عَلَى أَعْلَى النَّاسِ رُتْبَةً فِي الْخَيْرِ، وَأَحَقُّهُمْ بِالِاتِّصَافِ بِهِ هُوَ مَنْ كَانَ خَيْرَ النَّاسِ لِأَهْلِهِ، فَإِنَّ الْأَهْلَ هُمْ الْأَحِقَّاءُ بِالْبِشْرِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَالْإِحْسَانِ وَجَلْبِ النَّفْعِ وَدَفْعِ الضُّرِّ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ كَذَلِكَ فَهُوَ خَيْرُ النَّاسِ، وَإِنْ كَانَ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ مِن الشَّرِّ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْوَرْطَةِ، فَتَرَى الرَّجُلَ إذَا لَقِيَ أَهْلَهُ كَانَ أَسْوَأَ النَّاسِ أَخْلَاقًا، وَأَقَلَّهُمْ خَيْرًا، وَإِذَا لَقِيَ غَيْرَ الْأَهْلِ مِن الْأَجَانِبِ لَانَتْ عَرِيكَتُهُ، وَانْبَسَطَتْ أَخْلَاقُهُ، وَجَادَتْ نَفْسُهُ، وَكَثُرَ خَيْرُهُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مَحْرُومُ التَّوْفِيقِ، زَائِغٌ عَنْ سَوَاءِ الطَّرِيقِ، نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ. اهـ[(٢)].

ومِن أعظم المواقف والقصص التي أثّرت عليّ، وكانت سببًا في لين جانبي مع الأهل: هذا الموقف الذي حكاه الشيخ محمدُ الموسى رحمه الله تعالى عن سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى، قال: كان الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى يَلزمُ العدلَ ويتحرَّاه في تعامِله

(١) (٣٨٩٥).
(٢) نيل الأوطار (٦/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦).

مع زوجتَيه، وكان برًّا بهما رحيمًا عطوفًا، حريصًا على القيام بحقِّهما.

وكان يتَّصلُ بهنَّ يوميًّا إذا كان في مكةَ أو الطائفِ إن لم يكن معه أحدٌ منهنَّ، وكان يتلطَّفُ في الكلام معهنَّ، وربما أخبرهنَّ بما فعلَ يومَه ذلك، فربَّما قال: اجتمعنا اليوم في الرَّابطةِ، وغدًا ـ إن شاءَ الله ـ سنذهب إلى كذا وكذا، ونحوِ ذلك.

وكان رحمه الله تعالى محبًّا لأسرتَيه، رفيقًا بهما، بعيدًا عن الزَّجر، وكثرةِ العِتابِ.

وأذكرُ في يومٍ من الأيَّام أنه كان يُريد السفرَ في الطائرةِ، وتأخرَّت إحدى أسرتَيه التي ستسافرُ معَه في تلكَ الرِّحلةِ أكثرَ من ساعةٍ، وتأخَّرت بسببِ ذلكَ الطائرةُ التي تُقِلُّه، ومع ذلكَ لم يَبدُ على سَماحتِه أيُّ تضجُّرٍ أو سآمَة؛ بل كنَّا نقرأُ عليهِ المعاملات دونَ انقِطاعٍ، وكلَّما مضى عشرُ دقائقٍ أو رُبع ساعَةٍ سأَل: هل جاؤُوا؟ فإن قِيلَ له: لا، واصَلَ الاستِماعَ.

ولَمَّا وصلوا لم يُبدِ أيَّ تضجُّرٍ، ولم تبدُر منهُ أيُّ كلمَةٍ؛ لأنَّه يلتمسُ لهم المعاذير، ويعلمُ أنَّهم لم يتأخَّروا إلَّا لعارِضٍ.

وكانَ رحمهُ الله تعالَى كثيرَ الوصايَة بالأهلِ، كثيرَ التحذيرِ من الجفاءِ معَهم، والتَّقصير في حقوقِهم.

ومن الطَّرائِف في ذلكَ: أنَّني كنتُ مع سماحَتِه في الطَّائف عام ١٤١٨هـ وكنتُ في مجلسِه المعتادِ عن يَسارِه، أقرأُ عليهِ بعضَ المعاملاتِ، كنتُ ـ على العادَةِ ـ أردُّ على المكالماتِ، وإذا طَلبوا سَماحتَه ناوَلتُه سمَّاعةَ الهاتفِ، وفي يومٍ من الأيام رنَّ الهاتفُ، فأخذَ سماحتُه السَّماعةَ على غيرِ العادةِ وإذا هم أهلي يَطلُبونَني، فناوَلني سماحته السَّماعةَ، وأخذَ ينتَظِرني حتَّى أفرغَ من المكالَمَة، وكنتُ حريصًا

على الاختِصار؛ لأنَّ وقتَ سماحة الشَّيخِ لا يَسمحُ بالإطالَة، والمجلسُ مليءٌ بالحاضِرين، وأهلي يَعلَمونَ ذلك، والَّذي حصلَ أنَّ أهلي سألوني: هل ستتغَدَّى معَنا هذا اليوم؟ فقلتُ: لا.

وبذلكَ انتَهى الغَرَضُ، ووضعتُ سمَّاعةَ الهاتفِ، فقالَ لي سماحةُ الشَّيخ: انتهيتَ من المكالمَة؟! قلتُ: نعم، فقالَ رحمهُ الله تعالى: ما هذا الجَفاءُ؟ أهكَذا تُكلِّمون أهلِيكم؟ أسألُ الله العافيَة! فقلت: يا سماحةَ الشَّيخ، المقصودُ قد انتَهى، ولا أريدُ الإطالَة، فالوقتُ لا يَسمَح، فقال: لا حَولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ»(١).



(١) جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى، رواية الشيخ محمد بن موسى الموسى مدير مكتب بيت سماحة الشيخ، إعداد: محمد بن إبراهيم الحمد، طبعة دار ابن خزيمة (ص٢٢٦).

٥٠ ـ [طُغيانُ المعاصي أسلم عاقِبةً من طُغيان الطاعات][١].

كثيرٌ مِن الناس يظن أنّ البلاء والخطر إنما يأتي من المعاصي والذنوب الظاهرة، كالكذب والنظر المحرم والغيبة والنميمة، ولا يخطر في بالهم أنه قد يأتي البلاء والخطر من الطاعات والقربات والعبادات.

وإذا أردت دليلًا على ذلك: «فانظر إلى ذي الخويصرة التميمي السَّجاد العبَّاد الزاهد، الذي بين عينيه أثر السجود، كيف أورثه طُغيان عملِه أنْ أنكر على النبي ﷺ، فقال له وهو يُعطي الناس ويقسم لهم المال: اعْدِلْ! فَقَالَ: «**وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟**»[٢]، وأورث أصحابَه احتقار المسلمين، حتى سَلُّوا عليهم سيوفهم، واستباحوا دماءهم.

وانظر إلى من ابْتُلي بكبيرة شرب الخمر، الذي كان كثيرًا ما يُؤتى به إلى النبي ﷺ فيَحُدُّه على شرب الخمر، كيف قامت به قوة إيمانه، ويقينه، ومحبته لله ورسوله، وتواضعه، وانكساره لله، حتى نهى رسول الله ﷺ عن لعنه»[٣]، وقال: «**لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إلا إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»[٤].

فالكبائر الباطنة؛ كالكبر، والعجب، والرياء، والحسد، والفخر والخيلاء، ونحوها أشدّ وأخطر من الكبائر الظاهرة؛ كالغيبة والنميمة وشرب الخمر ونحوها.

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢١٣).
(٢) رواه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٣).
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٢١٣).
(٤) رواه البخاري (٦٧٨٠).

فكبائر هؤلاء الظاهرةِ أقربُ إلى التوبة من كبائر أولئك الباطنة، فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قَوالب عبادةٍ وتنسّك، فأهل الكبائر الظاهرة أدنى إلى السلامة منهم، وقلوبُهم خير من قلوبهم.

وقلوبُ أهل الكبائر الظاهرة يغلب عليها الانكسار، بخلاف قلوب أهل الكبائر الباطنة، التي يغلب عليها العُجْب والكبر.

فترى أحدَهم أزهد ما يكون، وأعبد ما يكون، وأشدّه اجتهادًا، وهو أبعد ما يكون عن الله. وأصحاب الكبائر أقرب قلوبًا إلى الله منه، وأدنى منه إلى الإخلاص والخَلاص[(١)].



(١) يُنظر: مدارج السالكين (٣/ ٢١٣).

لطيفة

إنَّ طلاقةَ الوجه وحسن البشاشة والبشر هو السِّحر الحلال الجذَّاب، وهو الذي يَسْتولي على العقول والألباب، وصاحبُ البِشْرِ محمودةٌ أفْعاله، مقبولةٌ هنَّاته، بخلاف العابس الْمُقطِّب، الْمُتجهِّم الشَّاحب، فهو والله مِمَّن يُستعاذُ منه، وتَستولي على القلب كُرَبٌ وضِيقٌ عند لِقَائه.

أخو البِشْرِ محمودٌ على حُسْنِ بِشْرِه ولن يَعْدِمَ البغضاءَ مَن كان عابسًا

قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللهُ: «البشاشةُ إدامُ العلماء، وسجيَّةُ الحكماء؛ لأنَّ البِشْرَ يُطفئُ نار الْمُعانَدة، ويُحْرِقُ هَيَجان الْمُباغَضة، وفيه تَحْصينٌ من الباغي، ومَنْجاةٌ من الساعي، ومَن بَشَّ للنَّاس وجهًا، لم يكن عندهم بِدُون البَاذِلِ لَهُم مَا يَمْلِكُ»[1].

وأعرف رجلًا لا يكاد يبتسم أبدًا، ومهما قابلتُه أنا أو غيري لا يبتسم، وكنت إذا رأيتُه أجد الضيق في نفسي؛ لأنّ قسمات وجهه العابس يُصيب القلب بالهم، والنفس بالنّكد، وكثيرًا ما كنت أتصدد عنه مخافة رؤيةِ وجهه المخيف.

ثم أصيب هذا الرجل بحادث شنيع، وبعد مدة طويلة من العلاج والعمليّات خرج من المستشفى، لا يكاد يمشي من شدة ما أصابه، ولا يكاد يقف من الكسور التي حلّت به.

---

(١) روضة العقلاء (ص٦٥).

ثم صلى بالمسجد فقمت لأسلم عليه فانبهرت من طلاقة مُحياه، وبشاشة وجهه!

ويا لله ما أجمله وأحسنه، وكم كان قبل ذلك قبيحًا مُنفّرًا مُوحشًا!

وعلمتُ أنّ الله تعالى سلبه صحّة بدنه وعوّضه صحّة وجهه، فأصبح بَشُوش الطَّلْعَة، مُتَهَلِّل الْغُرَّة، وَضَّاح الْمُحَيَّا، حَسَن الْبِشْرِ.

فقلت له بعد ذلك: يا فلان، والله لقد كنت أكره لقاءك قبل أنْ تُصاب بالحادث، وأجد نفرة منك!

فقال: وَلِمَ؟

قلت: لعبوس وجهك، ومُفارقة البسمة شفتيك، وتقطيب جبينك، وأما الآن، فوالله إني أستمتع برؤيك، وأسعد بلقائك، وأفرح بقدومك.

فهي رسالة لكلّ عَابِس، كَالِح، مُقَطِّب، مُكْفَهِرّ، مُقَطّب، فإنّهم ـ أحسن الله عزاء من ابْتُلي بلقائهم ـ يُدخلون الهمّ والحزن والضيق في صدور الناس، فليتهم يُريحون الناس من شرّهم بدوام الابتسامة.

ومن فارق البشاشة: فارقه الناس.

«ولقاء الناس بالتبسم وطلاقة الوجه من أخلاق النبوة، وهو مناف للتكبر وجالب للمودة»(١).



(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥/ ١٩٣).

٥١ ـ [مَا سَبَقَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِفَضْلِ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي قَلْبِهِ][١].

هذه العبارة مِن أعظم العبارات التي تدفع المؤمن إلى الاعتناء بإصلاح الباطن كاعتِنَائِه بإصلاح الظاهر أو أكثر.

وإنما وقر في قلب أبي بكر الصديق ﷺ الْيَقِينُ وَالْإِيمَانُ وسلامة الصدر، والنصح للأمة، وكمال الانقياد والتصديق، حتى سُمي بالصديق، فسبق بكمال إيمانه غيرَه ولو كان أكثر عملًا منه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: لَا رَيْبَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَقْوَى إيمَانًا مِن عُمَرَ، وَعُمَرُ أَقْوَى عَمَلًا مِنْهُ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ.

وَقُوَّةُ الْإِيمَانِ أَقْوَى وَأَكْمَلُ مِن قُوَّةِ الْعَمَلِ، وَصَاحِبُ الْإِيمَانِ يُكْتَبُ لَهُ أَجْرُ عَمَلِ غَيْرِهِ.اهـ[٢].

وإنَّ الرجلين ليصليان في صف واحد، مقتديين بإمام واحد، يكون بين صلاتَيْهما كما بين المشرق والمغرب؛ لأنَّ أحدهما قلبُه غافلٌ غيرُ خاشع، مُتعلّق بالدنيا ويُفكر بها، والآخر قلبُه متعلق بالله تعالى والدار الآخرة، منشغل بتدبر الآيات، مُتفكر بمقصود الصلاة.

ولِهذَا قال مَنْ قال مِن الصَّحابةِ رضي الله عنهم عن الْمُصَلِّي كثيرِ العَبثِ: لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هذا لَخَشَعَتْ جَوارِحُهُ.

(١) قاله أبو بكر المزني رحمه الله كما في جامع العلوم والحكم (ص١٠٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٤٢).

ومن أبلغ ما قيل عن أهمية النية وتصحيحها قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ النِّيَّةَ لِلْعَمَلِ كَالرُّوحِ لِلْجَسَدِ».اهـ[(١)].

فكما أنّ الجسد لا يصلح ولا يُنتفع به بلا روح، فكذلك العمل لا يصلح ولا يُنتفع به بلا نيّة.

وصلاح القلب هو الأصل لصلاح الجوارح والأعمال، قال رَسُول اللهِ ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**». متفق عليه[(٢)].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وَفِي هذا الحديث التأكيد عَلَى السَّعْيِ فِي صَلَاحِ الْقَلْبِ وَحِمَايَتِهِ مِنَ الْفَسَادِ».اهـ[(٣)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: الدِّينُ الْقَائِمُ بِالْقَلْبِ مِن الْإِيمَانِ عِلْمًا وَحَالًا هُوَ الْأَصْلُ، وَالْأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ هِيَ الْفُرُوعُ، وَهِيَ كَمَالُ الْإِيمَانِ.

فَالدِّينُ أَوَّلُ مَا يُبْنَى مِنْ أُصُولِهِ وَيَكْمُلُ بِفُرُوعِهِ، كَمَا أَنْزَلَ اللهُ بِمَكَّةَ أُصُولَهُ مِن التَّوْحِيدِ وَالْأَمْثَالِ الَّتِي هِيَ الْمَقَايِيسُ الْعَقْلِيَّةُ وَالْقِصَصُ وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، ثُمَّ أَنْزَلَ بِالْمَدِينَةِ ـ لَمَّا صارَ لَهُ قُوَّةٌ ـ فُرُوعَهُ الظَّاهِرَةَ مِن الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ وَالْجِهَادِ وَالصِّيَامِ وَتَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَالزِّنَا وَالْمَيْسِرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَاجِبَاتِهِ وَمُحَرَّمَاتِهِ.اهـ[(٤)].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: تَوْحِيدُ اللهِ وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ جِدًّا؛ بَلْ هُوَ قَلْبُ الْإِيمَانِ وَأَوَّلُ الْإِسْلَامِ وَآخِرُهُ.. وَهُوَ قَلْبُ

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٩١).
(٢) البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٣) شرح النووي لصحيح مسلم (١١/ ٢٩).
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/ ٣٥٥).

الدِّينِ وَالْإِيمَانِ، وَسَائِرُ الْأَعْمَالِ كَالْجَوَارِحِ لَهُ.اهـ[١].

فأعظم عبادة تتقرب بها إلى الله تعالى: أنْ يَطَّلِعَ اللهُ على قلبك فلا يرى فيه غيره، ولا توجُّهًا إلا له، ولا حبًّا إلا له، ولا توكّلًا إلا عليه، ولا غيرةً إلا عليه وعلى دينِه، ولا انتقامًا للنفس ونصرةً لها.

وأنْ يعلم الله منك أنك لا ترى أنّ لك على أحدٍ حقًّا، وأنك لا تشهد لك على غيرك فضلًا، ولا تُعاتب ولا تُطالب ولا تُضارب إلا في ذات الله تعالى.

وأن تكون متواضعًا تواضعًا حقيقيًّا، بحيث تصل إلى درجة أهل الصلاح والإيمان والتقى، الذي يقول أحدُهم عن قناعة تامّةٍ: مالي شيء، ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء.

وأنْ يسلم قلبُك من الرياء والنفاق، ولو تأمّل المؤمن الموفق لتملَّكه العجب: كيف يستسيغ عاقلٌ أنْ يُرائي مخلوقًا ضعيفًا مثلَه، لا يملك لنفسِه نفعًا ولا ضرًّا، ومِن بابِ أولى لا يملكه لغيرِه؟

وقد ثبت في الأخبار والواقع أنّ رفعة الله تعالى لأحد من الناس ليس لصلاح ظاهره، وإنما لصلاح باطنه، وإخلاص نيَّته، وصدق عزيمته، وحسن توكله، وشدة حبه لربه، وصبره على الأذى في سبيله، فاللَّهُمَّ أصلح فساد قلوبنا.

«وَالْعَامِل بِلَا علم: يظنّ أنَّ الْفَضِيلَة فِي كَثْرَة الْمَشَقَّة، فَهُوَ يتَحَمَّل المشاق، وَإِن كَانَ مَا يعانيه مفضولًا، وَرُبَّ عملٍ فَاضلٍ والمفضول أكثر مشقة مِنْهُ، وَاعْتبر هَذَا بِحَال الصّديق؛ فَإِنَّهُ أفضل الأمة، وَمَعْلُوم أن فيهم من هُوَ أكثر عملًا وحجًّا وصومًا وَصَلَاة وَقِرَاءَة مِنْهُ»[٢].

(١) المصدر السابق (١/ ٧٠).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٨٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: إنَّ الشَّخْصَيْنِ قَدْ يَتَمَاثَلَانِ فِي الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ؛ بَلْ يَتَفَاضَلَانِ، وَيَكُونُ الْمَفْضُولُ فِيهَا أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ مِن الْآخَرِ؛ لِأَنَّهُ أَفْضَلُ فِي الْإِيمَانِ الَّذِي فِي الْقَلْبِ.

وَأَمَّا إذَا تَفَاضَلَا فِي إيمَانِ الْقُلُوبِ فَلَا يَكُونُ الْمَفْضُولُ فِيهَا أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ أَلْبَتَّةَ..

وَلِهَذَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ، وَإِنْ كَانَ الْفَاضِلُ أَقَلَّ عَمَلًا مِن الْمَفْضُولِ؛ كَمَا فَضَّلَ اللهُ نَبِيَّنَا ﷺ ـ وَمُدَّةُ نُبُوَّتِهِ بِضْعٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً ـ عَلَى نُوحٍ وَقَدْ لَبِثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وَفَضَّلَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَقَدْ عَمِلُوا مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إلَى الْمَغْرِبِ عَلَى مَنْ عَمِلَ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إلَى صَلَاةِ الظُّهْرِ، وَعَلَى مَنْ عَمِلَ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ إلَى الْعَصْرِ، فَأَعْطَى اللهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَجْرَيْنِ، وَأَعْطَى كُلًّا مِنْ أُولَئِكَ أَجْرًا أَجْرًا؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ كَانَ أَكْمَلَ وَأَفْضَلَ، وَكَانَ أُولَئِكَ أَكْثَرَ عَمَلًا، وَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ أَجْرًا، وَهُوَ فَضْلُهُ يُؤْتِيه مَنْ يَشَاءُ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي تَفَضَّلَ بِهَا عَلَيْهِمْ وَخَصَّهُمْ بِهَا.

وَهَكَذَا سَائِرُ مَنْ يُفَضِّلُهُ اللهُ تَعَالَى فَإِنَّهُ يُفَضِّلُهُ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ بِهَا التَّفْضِيلَ بِالْجَزَاءِ، كَمَا يَخُصُّ أَحَدَ الشَّخْصَيْنِ بِقُوَّةٍ يَنَالُ بِهَا الْعِلْمَ، وَبِقُوَّة يَنَالُ بِهَا الْيَقِينَ وَالصَّبْرَ وَالتَّوَكُّلَ وَالْإِخْلَاصَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يُفَضِّلُهُ اللهُ بِهِ، وَإِنَّمَا فَضَّلَهُ فِي الْجَزَاءِ بِمَا فَضَّلَ بِهِ مِن الْإِيمَانِ. اهـ[(١)].

فينبغي أن تكون نية الإنسان ـ وخاصة طالب العلم ـ مُنصبّةً على تقوية إيمانه وصدقه وإخلاصه وتوحيده، وتعلقه بخالقه، ولا ينبغي أن

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٤١ ـ ٣٤٣).

يكون اهتمامه بكثرة أعماله ومُحاضراته، والاهتمام بالتأليف والنظر في شؤون الآخرين، ويُهمل جانب الإيمان واليقين والتعلق بالله.

وعلى ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد يكون العالم أو طالب العلم الذي ليس عنده قدرات في الحفظ أو التأليف والدعوة، أفضل عند الله تعالى ممن برعوا في التأليف والأعمال الخيرية والدعوة والمناشط في القنوات وغيرها.

فانظر ـ أخي المؤمن ـ إلى ما وقر في قلبك، قبل أن تنظر إلى كثرة أعمالك وعلمك.

وتأمل قول الله تعالى في حقّ من قاتل نبيَّه وخليلَه ﷺ، وحارب دين الإسلام، وسعى في الأرض فسادًا، وقد وقع في الأسر في غزوة بدر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ [الأنفَال: ٧٠]؛ أي: إنْ علم الله في قلوبكم خيرًا وتوبةً وصلاحًا: أعطاكم خيرًا مما أُخِذ منكم، وغفر لكم جميع ذنوبكم العظيمة، وزلّاتكم الكثيرة.

وقوله: ﴿خَيۡرٗا﴾ في سياق الشرط يفيد العموم، فيعمّ أيَّ خيرٍ وصلاحٍ وصدقٍ في القلب.

وإذا كان هذا في حقّ مَن كفر وحارب الله ورسوله، فكيف بمن آمَن بالله ورسوله، وعلم الله منه صلاح القلب والصدق والعزم على التوبة ونصرِ دينِه؟

وقد ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحُجب التي تحجب القلب عن الله، فعد منها: حجاب الشرك، والبدع، والكبائر الظاهرة والباطنة، وذكر آخرها وأقلّها: حجاب المجتهدين السالكين، الْمُشمِّرين في السير عن المقصود.

وذلك أنّ كثيرًا من أهل الخير والصلاح والعلم والدعوة والعبادة

والصدقة والجهاد تحجبهم هذه الأعمال الصالحة الظاهرة عن المقصود الأعظم والأهم، وهو تجريد التوحيد الخالص لله، وصدق المحبة له سبحانه، وصدق التوكل والخوف والرجاء والإخلاص، وتجردهم من حظوظ النفس وأهوائها المعارضة للشرع.

ومن ذاق طعم الإيمان: تلذذ بإخلاص العمل لله، وعبادته والقرب منه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ الْقَلْبَ إِذَا ذَاقَ طَعْمَ عِبَادَةِ اللهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ: لَمْ يَكُن عِنْدَهُ شَيْءٌ قَطُّ أَحْلَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَلَذَّ وَلَا أَطْيَبَ. اهـ[1].

«وَلِهَذَا قِيلَ: تَخْلِيصُ الْأَعْمَالِ مِمَّا يُفْسِدُهَا أَشَدُّ عَلَى الْعَامِلِينَ مِن طُولِ الِاجْتِهَادِ»[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: الْعِبَادَةُ أَصْلُهَا الْقَصْدُ وَالْإِرَادَةُ. اهـ[3].

أي: أنَّ المقصود الأعظم من العبادة تصحيح القصد والإرادة، فالأعمال الظاهرة من صلاة وزكاة إن لم يقترن بها صحة القصد والإرادة من حب لله تعالى، وخوفه ورجائِه والتوكل عليه: فهي عبادة ناقصةٌ، لا تُؤثر في العابد تأثيرًا كبيرًا في سلوكه وأخلاقه ودينه.

وكان السلف الصالح يتعلمون الإيمان، قَالَ جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللهِ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: تَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا إيمانًا.

«فَهُم كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ الْإِيمَانَ ثُمَّ يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ..

وَلِهَذَا كَانَ الْإِيمَانُ بِدُونِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ وَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ،

---

(١) المصدر السابق (١٠/ ١٨٨).
(٢) المصدر السابق (١١/ ٦٨٨).
(٣) المصدر السابق (١٠/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤).

وَالْقُرْآنُ بِلَا إيمَانٍ لَا يَنْفَعُ فِي الآخِرَةِ؛ بَل صَاحِبُهُ مُنَافِقٌ»[(١)].

وإن مما يُلاحظ على بعضِ أهل الخير والخطباء والوُعَّاظ أنهم يعتنون عند مجيء مواسم الخير والطاعات كشهر رمضان وعشر ذي الحجة بذكر العبادات الظاهرة، كالصدقة وقيام الليل وصلة الأرحام، ولا يكاد يَخطر في بالهم أنّ العبادات القلبية أعظم وأهم وأفضل، ويندر من الخطباء والدعاة من يُذَكِّر الناس بذلك ويعتني به.

والله تعالى قدَّم في كتابه الإيمان وأعمالَ القلوب، على أعمال الجوارح، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البَقَرَة: ٢ ـ ٣].

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [الحَجّ: ٣٤ ـ ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٣].

وقد تكرر في القرآن في عشرات المواضع قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [يُونس: ٤].

ففي هذه المواضع وغيرِها قدَّم الله تعالى أعمال القلوب على أعمال الجوارح، وما ذاك إلا لأهميّتها ووجوبِ العناية بها.

فما بال الكثير منَّا يُقَدِّم ما أخره الله؟ ويُؤخر ما قدمه؟

(١) المصدر السابق (١٥/ ٧١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ الْأَعْمَالَ لَا تَتَفَاضَلُ بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِمَا يَحْصُلُ فِي الْقُلُوبِ حَالَ الْعَمَلِ»[(١)].

فلْتكن همتك أن تبلغ منزلة الصِّدِّيقين، وذلك بصدق العزم والقول والعمل.

وادع الله كثيرًا أن تكون منهم.

والصِّدْق: يبدأ مِن إصلاح القلب قبل إصلاح العمل.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: سلامةُ الصدور مِن الرياء والغل، والحسد والغش والحقد: أفضلُ من التطوع بأعمال الجوارح.اهـ[(٢)].

وقد يقول قائل: نعرف أناسًا يغلب على الظنّ أنهم من أهل الخير والصلاح باطنًا وظاهرًا ليس لهم مكانة عند الناس، ولا رفعة بينهم!

والجواب على ذلك من أوجه:

الوجه الأول: أنّ الرفعة لا يلزم أن تكون معجلة؛ بل قد يدخرها الله له في الآخرة، وهذا أويس القرني لا يكاد يعرفه أحد، وكثير من الأنبياء لا نعرف أسماءهم، فضلًا أن يكون لهم أتباع.

الوجه الثاني: أنه لا يُمكن ـ في الأغلب الأعم ـ لمن استقام باطنه ألا يستقيم ظاهره استقامة عظيمة، تدفعه نحو معالي الأمور، ورأس الفضائل، وتُحفزه لطلب العلم ليرفع الجهل عن نفسه وعن غيره، وتسوقُه للدعوة وتبليغ الدين والنصح.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يتحقق القلب بالإيمان إلا وتنبعث

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٥/ ٢٨٢).

(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٣٥٥).

الجوارح في أعمال الإسلام».اهـ[١].

«فَمَنْ صَلَحَ قَلْبُهُ صَلَحَ جَسَدُهُ قَطْعًا بِخِلَافِ الْعَكْسِ»[٢].

وبقدر صلاح الباطن يكون صلاح الظاهر.

الثالث: أنه قد يَظن كثير من الناس أنّ بعض المظاهرِ دالَّةٌ على صلاح الباطن صلاحًا كبيرًا، ككثرة البكاء، والمبالغة في الورع أو الزهد أو التخفي والكتمان وعدم محبة الشهرة، فهذه ليستْ علامةً قاطعةً لصلاح الباطن؛ بل دليلًا على ذلك فحسب.

ثم لا تغفل ـ رعاك الله وسددك ـ عن قول رسولنا الكريم ﷺ: «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»[٣]، فثناءُ الناس والرفعة عندهم ليست مقياسًا مطّردًا لصلاح الباطن والقبول عند الله تعالى، ومَن ظنّ الناس به خيرًا وأثنوا عليه فلربما يكون ذلك من ضروب الابتلاء والفتنة، والله المستعان.



(١) جامع العلوم الحكم (ص١٠٩).
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧/ ٩).
(٣) رواه مسلم (٢٦٢٢)

لطيفة

الأَوْلى لطالب العلم أنْ تكون العزلةُ النافعة هي الغالبة عليه، ولْيستثمرها في البحث والقراءة والتفكر والعبادة، وفي ذلك فوائد كثيرة، **منها**:

١ ـ صيانة العلم؛ فالعامة يُعظمون من لا يُخالطهم كثيرًا، وإذا عظّم العامة العالم وطالب العلم قبلوا كلامه، ووقع في قلوبهم موقعًا كبيرًا.

٢ ـ حفظ الوقت، فكلَّما أكثر طالب العلم من مُخالطةِ الناس ولو بُغْيَةَ نفعِهم فاته من العلم ما لا يُمكن تعويضُه.

وإليك كلامًا جميلًا من عالِمَين جليلين:

١ ـ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزًّا ولا شرفًا ولا راحةً ولا سلامة أفضل من العزلة، فإنه ينال بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند الله عَزَّ وَجَلَّ وعند الخلق؛ لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم، ولا يعظم عندهم قدر المخالط لهم، ولهذا عظم قدر الخلفاء لاحتجابهم، وإذا رأى العوام أحد العلماء مترخصًا في أمر مباح، هان عندهم.

فالواجب عليه صيانة علمه، وإقامة قدر العلم عندهم.

ولا تسمع من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياء، إنما هي صيانة للعلم.

وبيان هذا: أنه لو خرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس، أو في يده كسرة يأكلها؛ قل عندهم، وإن كان مباحًا، فيصير بمثابة تخليط

الطبيب الآمر بالحمية. اهـ[١].

٢ ـ قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلم أن الأكثر في الناس جدًّا والغالب عليهم الحمق وضعف العقول، والعاقل الفاضل نادر جدًّا وقليل البتة، وهذا يوجد حسًّا[٢].

وقد ورد النص بذلك عن الخالق الأول[٣]، وعن خيرته المبتعث إلينا ﷺ، قال تعالى: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ المِائَةِ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**»[٤]. اهـ[٥].

وبالتجربة: فغالب الناس لا يُريدون من مُجالسةِ طالب العلم أو الداعي إلى الله سوى الأُنسِ بكلامه، وقضاء وقتهم في الحديث معه، وخاصة إذا عُرف بالمزاح والدُّعَابة.

وليس همُّهمُ الاستفادةَ مِن علمه، وزيادةَ الإيمان بمُجالستِه.

واعتزال المؤمن الناس ليستغلّ وقته ويكفّ عن الناس شرّه أفضل الأعمال، وأجلّ الخصال؛ بل قُرن بالجهاد في سبيل الله تعالى!

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «**رَجُلٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَرَجُلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ: يَعْبُدُ رَبَّهُ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ**»[٦].

---

(١) صيد الخاطر (ص٢٤٦).
(٢) أي: في الواقع والأمر المحسوس الملموس.
(٣) وهو الله تبارك وتعالى.
(٤) رواه البخاري (٦٤٩٨)، ومسلم (٢٥٤٧).
(٥) رسائل ابن حزم (٤/٣١٨).
(٦) رواه البخاري (٢٧٨٦)، ومسلم (١٨٨٨).

٥٢ ـ [فتنة السَّرَّاء أشدّ من فتنة الضَّرَّاء][١].

إنّ التصور السائد عند الناس أنّ الفقر والابتلاء بالمرض أعظمُ فتنة وبلاء وخطرًا من الغنى والرخاء والعافية؛ بل لا يكاد يخطر على بال كثير من الناس أنّ الخطر والفتنة أعظمُ في العافيةِ منها في المرض، وفي الغنى منها في الفقر ونحو ذلك.

قال ﷻ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبيَاء: ٣٥]، «فجعل كل ما يصيب الإنسان من شر أو خير فتنة؛ يعني: أنَّه محنة يمتحن بها، فإن أصيب بخير امتُحن به شكرُه، وإن أصيب بشر امتُحن به صبرُه.

وقال عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه: بُلينا بفتنة الضَّرَّاء فصبرنا، وبلينا بفتنة السَّرَّاء فلم نصبر.

وقال بعضهم: فتنة الضَّرَّاء يصبر عليها البرّ والفاجر، ولا يصبر عَلَى فتنة السَّرَّاء إلَّا صِدِّيق.

ولمَّا ابتلي الإمام أحمد بفتنة الضَّرَّاء صبر ولم يجزع، وقال: كانت زيادة في إيماني، فلما ابتلي بفتنة السَّرَّاء جزع وخشي أن يكون نقصًا في دينه»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «اُبْتُلِيَ يُوسُفُ بِحَسَدِ إخْوَتِهِ لَهُ.. ثُمَّ إنَّهُمْ ظَلَمُوهُ بِتَكَلُّمِهِمْ فِي قَتْلِهِ وَإِلْقَائِهِ فِي الْجُبِّ وَبَيْعِهِ رَقِيقًا لِمَنْ ذَهَبَ بِهِ إلَى بِلَادِ الْكُفْرِ، فَصَارَ مَمْلُوكًا لِقَوْمٍ كُفَّارٍ.

(١) المنتخب من رسائل ابن رجب (ص٨٠)، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/ ٣٠٥).
(٢) المنتخب من رسائل ابن رجب (ص٨٠).

ثُمَّ إِنَّ يُوسُفَ اُبْتُلِيَ بَعْدَ أَنْ ظُلِمَ بِمَنْ يَدْعُوهُ إِلَى الْفَاحِشَةِ وَيُرَاوِدُ عَلَيْهَا وَيَسْتَعِينُ عَلَيْهِ بِمَنْ يُعِينُهُ عَلَى ذَلِكَ فَاسْتَعْصَمَ وَاخْتَارَ السجْنَ عَلَى الْفَاحِشَةِ، وَآثَرَ عَذَابَ الدُّنْيَا عَلَى سَخَطِ اللهِ، فَكَانَ مَظْلُومًا مِنْ جِهَةِ مَنْ أَحَبَّهُ لِهَوَاهُ وَغَرَضِهِ الْفَاسِدِ.

فَأُولَئِكَ أَخْرَجُوهُ مِنْ إطْلَاقِ الْحُرِّيَّةِ إلَى رِقِّ الْعُبُودِيَّةِ الْبَاطِلَةِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ، وَهَذِهِ أَلْجَأَتْهُ إلَى أَنْ اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ مَحْبُوسًا مَسْجُونًا بِاخْتِيَارِهِ.

فَكَانَتْ هَذِهِ أَعْظَمَ فِي مِحْنَتِهِ، وَكَانَ صَبْرُهُ هُنَا صَبْرًا اخْتِيَارِيًّا اقْتَرَنَ بِهِ التَّقْوَى، بِخِلَافِ صَبْرِهِ عَلَى ظُلْمِهِمْ. فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ بَابِ الْمَصَائِبِ الَّتِي مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهَا صَبْرَ الْكِرَامِ سَلَا سُلُوَّ الْبَهَائِمِ». اهـ[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «وَالْغِنَى: لَا يَصْلُحُ عَلَيْهِ إلَّا أَقَلُّ مِنْهُمْ، وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْمَسَاكِينُ؛ لِأَنَّ فِتْنَةَ الْفَقْرِ أَهْوَنُ، وَكِلَاهُمَا يَحْتَاجُ إلَى الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ.

لَكِنْ لَمَّا كَانَ فِي السَّرَّاءِ: اللَّذَّةُ، وَفِي الضَّرَّاءِ: الْأَلَمُ: اشْتَهَرَ ذِكْرُ الشُّكْرِ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّبْرِ فِي الضَّرَّاءِ». اهـ[(٢)].



(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/ ١٢٢).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/ ٣٠٥).

لطيفة

خمسُ قواعد كفيلةٌ بأنْ تُغير حياتك، وترفع همّتك بإذن الله تعالى وتوفيقِه:

القاعدة الأولى: استفدْ من كلّ أحدٍ واستغلّ كلّ موقف في مصلحتِك، وتطلَّب الفائدة من الصغير والكبير، والجاهلِ والمتعلم.

فسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبِل خبرًا مِن هدهد، واسْتَمع إلى توجيهات نملةٍ لبني جنسِها، ونبيّنا عليه الصلاة والسلام قَبِل مشورة امرأة في أمر جلل[1].

القاعدة الثانية: لا تتردد في ترك ما يضرك أو لا ينفعك، وفعلِ ما ينفعك ولو قلّ، وامحُ من بالك عبارات اليأس والفشل؛ مثل: هذا صعب عليّ، أنا لم أعتد ذلك، وهذا طبعي ويصعب عليّ تغييرُه.

ومن جاهد نفسه في ذلك: رأى انقياد نفسه للمعالي والفضائل انقيادًا عجيبًا وسهلًا.

القاعدة الثالثة: ما بينك وبين أن تكون مثل فلان في العلم أو الجرأة المحمودة أو العبادة أو النجاح إلا قنطرةٌ صغيرة، استطاع هو أنْ يتجاوزها، وتستطيعُ أنت بإذن الله تجاوزها ما لم تتردّد وتجبُن.

فكلُّ ما يمتلكه غيرك من الناجحين والمتميّزين والمؤثِّرين تمتلكه أنت، والعَقَبةُ التي واجهتك قد واجهوها بلا شك، ولكنهم امتلكوا شجاعةً فاقتحموها.

---

(١) وذلك في قصة الحديبية، حينما طلب من أصحابه أن يحلقوا فتباطؤوا، فأشارت عليه أمُّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأن يحلق هو أوّلًا، وإذا رآه الناس رضخوا للأمر وحلقوا، فأخذ برأيها، وظهر صوابه.

وفي كلّ طريقٍ عقبة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾﴾ [البَلَد: ١١ ـ ١٦].

«وَالِاقْتِحَامُ: الدُّخُولُ فِي الْأَمْرِ الشَّدِيدِ، وَذِكْرُ الْعَقَبَةِ هَاهُنَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِمُجَاهِدَةِ النَّفْسِ وَالْهَوَى وَالشَّيْطَانِ فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ، فَجَعَلَهُ كالذي يتكلف صعود العقبة»(١).

فدون الجنة والفردوس عقباتٌ لا بد من اقتحامها، يشق صعودُها ولكنْ لا يستحيل.

وما بعد العقبة إلا السهل واليسر والخير والكمال والنجاح والفوز، فكن شجاعًا، ولا تتردّد إنْ واجهتك أيُّ عقبة؛ بل اسْتعن بالله واقتحمها، بعد تروٍّ ومشورةٍ.

القاعدة الرابعة: ما من إنسان عاقل إلا أعطاه الله موهبة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها.

والناجحون إنما كان عملهم في **ثلاثةِ أمور**:

الأول: اكتشفوا موهبتهم.

الثاني: بادروا إلى استثمارها واستغلالها.

الثالث: جدُّوا وكافحوا وصبروا.

القاعدة الخامسة: كمال النهايات سببها عزمٌ في البدايات، وكلّ أمرٍ تُريد أنْ تقوم به فإنه يبدوا لك شاقًّا في الغالب، وما بينك وبين القيام به والاستمتاع به إلا العزم في البداية، ثم يكون سهلًا بعد ذلك، **وخذ أمثلةً على ذلك:**

---

(١) تفسير البغوي (٥/٢٥٦).

١ ـ ترك الطعام وأنت تشتهيه يحتاج إلى عزم عند قيامك منه، ثم بعد بضع دقائق تذهب عنك شهوة الطعام.

٢ ـ عند إلقاء كلمة أو خطبة لأول مرة يعتريك خوفٌ طبيعي، وما إن تعزم على البدء في الكلام حتى يزول عنك الخوف، وتنطلق في الكلام.

٣ ـ عندما تريد كتابة بحث أو نحوه فإنك تتردد كثيرًا، وما إن تعزم على البدء في الكتابة حتى يسهل عليك الأمر، وتنهي البحث بسهولة.



٥٣ ـ [الْفِتَنُ إِنَّمَا يُعْرَفُ مَا فِيهَا مِنَ الشَّرِّ إِذَا أَدْبَرَتْ، فَأَمَّا إِذَا أَقْبَلَتْ فَإِنَّهَا تُزَيَّنُ، وَيُظَنُّ أَنَّ فِيهَا خَيْرًا، فَإِذَا ذَاقَ النَّاسُ مَا فِيهَا مِنَ الشَّرِّ وَالْمَرَارَةِ وَالْبَلَاءِ، صَارَ ذَلِكَ مُبَيِّنًا لَهُمْ مَضَرَّتَهَا، وَوَاعِظًا لَهُمْ أَنْ يَعُودُوا فِي مِثْلِهَا](١).

كم لهذه العبارة من فضل عليّ بعد الله تعالى في عِصْمَتِي عن الخوض في الفتن الكثيرة التي مرت بي، وحمدت الله كثيرًا حينما أمسكت لساني وقلمي وقلبي عن الانخداع بزينتها وزخرفها حينما أقبلت.

وقد أعملت عدة قواعد في أي فتنة تحصل:

القاعدة الأُولى: أنّ جمال هذه الفتن قد تحجب عني رؤية مضارها ومفاسدها، فالعاقل يتريث في أمرها حتى يتبين له كل ما لها وما عليها.

القاعدة الثانية: أن الفتن عندما تُقبل يكون لها زينة ولا يتضح شرها إلا لأهل العلم والخبرة والنظر، فالعاقل يرجع إليهم ويأخذ بقولهم ونصحهم.

القاعدة الثالثة: أني لنْ أندم إذا لم أتكلم فيها في أول أمرها، ولو اتضح فيما بعدُ عدم ضررها وشرها، ولكنني سأتجرع مرارة الندم حينما أتكلم فيها مدحًا وثناءً إذا تبين شرها وخطرها.

وهذا ما حدث في كلِّ الفتن التي مرت بنا خلال أعوام ماضية، فقد تكلم بعض الناس من أهل الخير والدعوة وغيرِهم في بعض الفتن التي أقبلت كبعض الجماعات والأفراد والتنظيمات، فأثنوا عليها

(١) منهاج السُّنَّة النبوية لابن تيمية (٤/ ٤٠٩).

ومدحوها، ثم لَمَّا تبين للقاصي والداني عورها وشرها: لام الكثير من الناس هؤلاء الذين مدحوها، وصارت مدخلًا لاتهامهم والتضييق عليهم، وتسليط الأعداء عليهم، وتمنّى كثيرٌ منهم أنه لم يتكلم فيها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمَنِ اسْتَقْرَأَ أَحْوَالَ الْفِتَنِ الَّتِي تَجْرِي بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ مَا دَخَلَ فِيهَا أَحَدٌ فَحَمِدَ عَاقِبَةَ دُخُولِهِ؛ لِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الضَّرَرِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ.

وَلِهَذَا كَانَتْ مِنْ بَابِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَالْإِمْسَاكُ عَنْهَا مِنَ الْمَأْمُورِ بِهِ، الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النُّور: ٦٣]. اهـ[1].

والله تعالى جعل المرجع في أمور الدين والفتن: العلماء، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ [النِّساء: ٨٣].

أي: إذا جاءهم أمرٌ من الأمور المهمة والمصالح العامة، مما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف والمصائب، فعليهم أنْ يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر؛ بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهلِ الرأي والعلم والنصح والعقل، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضِدَّها.

فإن رأوا في إذاعته مصلحةً ونشاطًا للمؤمنين فعلوا ذلك.

وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحةٌ، أو فيه مصلحةٌ ولكنَّ مضرَّتَه تزيد على مصلحته لم يُذْيعُوه، ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ﴾؛ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم، وتجاربِهم وحنكَتِهم.

(١) منهاج السُّنَّة النبوية لابن تيمية (٤/ ٤١٠).

فالواجب علينا التأنِّي والترويّ عند ورُودِ الفتن، والأخبار والإشاعات.

ومن التأنِّي والترويّ: أنْ يتّهم الإنسان رأيَه، قبل أنْ يتّهم آراء العلماءِ والدعاةِ وأهلِ الرأي والحكمة، وقبل أن يقدح بهم، بِحُجَّة الاعتمادِ على قولٍ مُخالفٍ لقولهم من أحدِ العلماء أو طلبة العلم، أو بحجةِ أنّ العالم الفلانيّ تكلّم على أحدِهم، فجعلوا كلامه في أحد الدعاة والمشايخ مُبيحًا لهم في الوقوع في عرضِه، وغيبته وسبّه.



لطيفة

مُسبّبات العداوة بين الأحباب والأصدقاء:

الحكيمُ اللَّبيب: لا يُحوِّل أصدقاءه إلى أعداء، بفعلِ أمرٍ يُغضبهُم، أو بعدمِ تحمُّلهم والصبرِ على ما يصدُرُ منهم.

والمؤمن الموفق المسدد: من يكسب خُصومَه ويجعلهم أصدقاء، بأنْ يُقابل السيّئةَ بالحسنة.

وإنَّ أقْصَرَ طريقٍ لجلب العداوة، وكسرِ رباط الأُخوَّة والصداقة: المبالغةُ في المزاح والجدال والعتاب، فبسببها وقعتِ الفرقةُ بين الأقارب والأصدقاء، وشُتِّتَ شملُ المتحابين والأخلاء، وعن طريقها حلَّ الحزنُ والوحشةُ في القلوب، ووقع الناس في الآثام والذنوب.

وقد جمعتُها في هذين البيتين:

أيا مَن يُريد دوام الإخاء ... عليك بلاءٍ ولاءٍ ولاء
فلا لِلْمَلَامِ ولَا لِلْمِراء ... ولا للمزاحِ فكن ذا دهاء

فإياك وكثرةَ المزاح والجدال والعتاب، مهما حصل ومهما غلب على ظنّك أنه لن تحصل مفسدةٌ من ذلك، ومن سَبَر العداوات والخصومات الحاصلة بين الأقارب والأصدقاء: وجد كثيرًا منها أو أكثرها بدأت بالمزاح أو الجدال أو العتاب، وانتهت إلى نفقِ التنافر والتقاطع.



٥٤ ـ [أَلَيْسَ أَكْبَرُ خُذْلَانٍ لِلدِّينِ وَجِنَايَةٍ عَلَيْهِ أَلَّا يَنْظُرَ الْمُنْتَسِبُونَ إِلَيْهِ فِي آيَاتِهِ الَّتِي يُوَجِّهُهُمْ كِتَابُهُ إِلَى النَّظَرِ فِيهَا، وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْعِبَرِ مِنْهَا؟ أَلَيْسَ مِنْ أَشَدِّ الْمَصَائِبِ عَلَى الْمِلَّةِ أَنْ يَهْجُرَ رُؤَسَاءُ دِينٍ كَهَذَا الدِّينِ الْعُلُومَ الَّتِي تَشْرَحُ حِكَمَ اللهِ وَآيَاتِهِ فِي خَلْقِهِ وَيَعُدُّوهَا مُضْعِفَةً لِلدِّينِ أَوْ مَاحِيَةً لَهُ خِلَافًا لِكِتَابِ اللهِ الَّذِي يَسْتَدِلُّ لَهُمْ بِهَا وَيُعَظِّمُ شَأْنَ النَّظَرِ فِيهَا؟][1].

قرعت هذه العبارة قلبي قبل سمعي، وقلت: كم من الآيات التي فيها الحث على التفكر في خلق النفس والسموات والأرض؟

إنها كثيرةٌ جدًّا، منها: قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [يُونس: ١٠١]، وقولُه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ﴾ [العَنكبوت: ٢٠]، وقولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحَجّ: ٤٦]، وقولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾ [الغَاشِيَة: ١٧].

إلى غَيْرِ ذلكَ مِن الْآياتِ الْكثيرةِ جدًّا، وإكْثارُ القُرآنِ منْ شيْءٍ دليلٌ على تَعْظيمِ شأْنهِ ووُجوبِ الاهْتِمامِ بهِ.

فالْقُرْآنُ الكريمُ «يُلِحُّ أَشَدَّ الْإِلْحَاحِ بِالنَّظَرِ الْعَقْلِيِّ، وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ وَالتَّذَكُّرِ، فَلَا تَقْرَأُ مِنْهُ قَلِيلًا إِلَّا وَتَرَاهُ يَعْرِضُ عَلَيْكَ الْأَكْوَانَ، وَيَأْمُرُكَ بِالنَّظَرِ فِيهَا وَاسْتِخْرَاجِ أَسْرَارِهَا، وَاسْتِجْلَاءِ حُكْمِ اتِّفَاقِهَا وَاخْتِلَافِهَا»[2].

(١) تفسير المنار (٢/٥٦ ـ ٥٧).
(٢) تفسير المنار (١/٢٠٨).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٦ ـ ٨] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَالْآيَاتُ الْمَخْلُوقَةُ وَالْمَتْلُوَّةُ: فِيهَا تَبْصِرَةٌ وَفِيهَا تَذْكِرَةٌ، تَبْصِرَةٌ مِن الْعَمَى، وَتَذْكِرَةٌ مِن الْغَفْلَةِ، فَيُبْصِرُ مَنْ لَمْ يَكُنْ عَرَفَ حَتَّى يَعْرِفَ، وَيَذْكُرُ مَنْ عَرَفَ وَنَسِيَ». اهـ(١).

ولْنتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عِمرَان: ١٩٠ ـ ١٩١].

أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَار آيَاتٌ ودلائل على عظمة الله وكماله وجلاله.

ولا يطلع على هذه الآيات إلَّا أُولو الْأَلْبَابِ.

ومن هم أصحاب العقول الذين لا يكون خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَاف اللَّيْلِ وَالنَّهار آيات إلا لهم؟

هم الذين جمعوا بين أمرين: الذكر والتفكر: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

فيقولون بيقين تام، وقناعة وإيمان راسخ، وطمأنينة كاملة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾.

وكل المؤمنين يُؤمنون بأن الله لم يخلق الكون باطلًا، ولكن ليس

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٣٦).

كلهم بلغ به ذلك مبلغ الطمأنينة واليقين الراسخ، الذي من شدته أثر على إيمانه فزاده، وعلى يقينه فقواه، وأصبح يجول في خاطره وفكره فازداد لله تعظيمًا، وله محبة، وعليه توكلًا.

عَلِمَ أنّ هذا الكون لا مدبر له سواه، فأحدث له عظيم التوكل عليه.

وعَلِمَ كمال لطفه وعنايته بخلقه فأحبه حبًّا تهون نفسه في سبيله وسبيل مرضاته.

وعَلِمَ عظمة وسعة وكبر هذا الكون، فأحدث له ذلك خوفًا من معصيته ومُخالفة أوامرِه، وهو من أحقر وأصغر مخلوقاته.

إنّ هذا لا يكون إلا بعد تفكر عميق في آيات الله الكونية والشرعية، ولذلك كان إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مؤمنًا بالله، فأحب أن يبلغ درجة الطمأنينة، فسأل الله تعالى أن يُريه كيف يحي الموتى ليصل إلى مرحلة الطمأنينة فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠].

«فَلَا بُدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ، فَقَدْ يَذْكُرُ الْمُؤْمِنُ بِاللهِ رَبَّهُ، وَلَا يَتَفَكَّرُ فِي بَدِيعِ صُنْعِهِ، وَأَسْرَارِ خَلِيقَتِهِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عِمرَان: ١٩١].

فقَدْ يَتَفَكَّرُ الْمَرْءُ فِي عَجَائِبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَسْرَارِ مَا فِيهِمَا مِنَ الْإِتْقَانِ، وَالْإِبْدَاعِ، وَالْمَنَافِعِ الدَّالَّةِ عَلَى الْعِلْمِ الْمُحِيطِ، وَالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَالنِّعَمِ السَّابِغَةِ، وَالْقُدْرَةِ التَّامَّةِ، وَهُوَ غَافِلٌ عَنِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الْقَادِرِ الرَّحِيمِ الَّذِي خَلَقَ ذَلِكَ فِي أَبْدَعِ نِظَامٍ، وَكَمْ مِنْ نَاظِرٍ إِلَى صَنْعَةٍ بَدِيعَةٍ لَا يَخْطُرُ فِي بَالِهِ صَانِعُهَا اشْتِغَالًا بِهَا عَنْهُ، فَالَّذِينَ يَشْتَغِلُونَ بِعِلْمِ مَا

فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ هُمْ غَافِلُونَ عَنْ خَالِقِهِمَا، ذَاهِلُونَ عَنْ ذِكْرِهِ، يُمَتِّعُونَ عُقُولَهُمْ بِلَذَّةِ الْعِلْمِ، وَلَكِنَّ أَرْوَاحَهُمْ تَبْقَى مَحْرُومَةً مِنْ لَذَّةِ الذِّكْرِ وَمَعْرِفَةِ اللهِ ﷻ»(١).

ومن يُوَفّق للذكر والتفكر في خلق الله تعالى في الكون وفي بدن الإنسان وفي الأرض: سيجد عبرًا عظيمة، وآيات جليلة، تزيدُه إيمانًا، وتعظيمًا لله جلَّ في علاه، وستتجلى له عظمته وقوته وسطوته من خلال آياتِه.



(١) تفسير المنار (٤/ ٢٤٥).

لطيفة

اصطفى الله ﷻ من آلاف المجرات بما تحويه من ملايين النجوم والكواكب الكبيرة والصغيرة مجرتنا، واصطفى من مجرتنا ـ وهي درب التبانة ـ التي فيها أكثر من ثلاثمائة مليار نجم: كوكب أرضنا، واصطفى من بين الكائنات التي تعيش في الأرض: بني آدم فجعل لهم عقولًا، واصطفاك من بين مليارات البشر فجعلك مسلمًا مؤمنًا بالله ورسوله، واصطفاك ـ أخي القارئ ـ من بين ملايين المسلمين للهداية وسلوك طريق العلم والنور.

فقل قائمًا وقاعدًا: الحمد لله ربِّ العالمين.

فقد أفاض علينا ذو الفضل الواسع، والرحمة السابغة، من عطائه ورحمته بلا سببٍ ولا علة، سوى أنّ الفيض والعطاء بعض صفاته الذاتية الكريمة.

فقد أكرمنا الله ـ سبحانه ـ كرامةً لا نكاد نتصورها، ولا نستطيع أنْ نوفّيها حقّها وشكرها.

فما أعظم منّة الله تعالى على الإنسان حينما ذَكَره ربُّه، فاختار مِن جنسه رسولًا يوحي إليه بكلماته، وجعل الأرض مسكنه، ومَهْبطًا لكلماتِه وآياتِه، التي تتجاوب بها جنبات الوجود في خشوع وابتهال.

وهذه وحدها كرامةٌ وفضيلةٌ لا يقدر الإنسانُ أنْ يُوفّيها حقّها وشكرها ولو قضى عمره راكعًا ساجدًا.

٥٥ ـ [ينبغي اغتنام التصنيف في وسط العمر؛ لأنَّ أوائل العمر زمن الطلب، وآخره كَلَالِ[(١)] الحواس، وربما خان الفهمُ والعقلُ مِن قدر عمره؛ وإنما يكون التقديرُ على العادات الغالبة؛ لأنه لا يعلم الغيب][(٢)].

كان لهذه العبارة ـ بعد توفيق الله ـ الأثرُ البالغ في حرصي على استغلال نشاطِ حواسي وهمّتي، وتدفق مشاعري وخواطري، فبادرتُ في التأليف والتصنيف في العلم الذي أُحسِنُه.

والتصنيف ليس له عمرٌ مُحددٌ، وإنما هي العقول متى ما وُفِّقتْ ونضجت أخرجت ما يستفيد منه الناس.

وقد استفدت من التأليف فوائد لا تُحصى، ومنها:

أولًا: أنه من أعظم أسباب رسوخ المعلومات وثباتها وزيادة اسْتيعابِها.

ثانيًا: أنه يزيد في الهمة والنشاط.

ثالثًا: أنه يُساعد على تنمية موهبة الكتابة والتعبير والتحرير.

رابعًا: أنه يُعين على جلب الخواطر واستغلالِ المواقف، حتى لا يكاد يمر بي موقفٌ إلا استثمرته وكتبت عنه، واستلهمت منه العبر والدروس.

خامسًا: دعاءُ الناس لي، وانتفاعُهم بما كتبتُ.

---

(١) أي: تعب وضعف.

(٢) صيد الخاطر (ص٢٦٢).

سادسًا: أنه سببٌ في كسب صداقاتٍ وعلاقاتٍ نافعةٍ مع بعض العلماء وطلاب والدعاة وغيرهم.

وطالب العلم لا يعلم متى يفجأه الموت، أو تخونه أركانه وذاكرته وعقله، فلذا لا ينبغي أنْ يُؤخر التأليف إلى حين تقدم عمره إذا كان أهلًا لذلك، فكم من تصنيف في أول العمر أنفع وأجلّ من تصانيف كثيرة جاءت بعد تقدُّم العمر، وكثرة العلم، ورجاحة العقل، وطول الخبرة، فلا تدري أين تحل البركة.

فقد تكون ـ يا طالب العلم ـ في أيام شبابك أعظمَ إخلاصًا، وأشدّ إقبالًا، وأعلى همةً مِن أيام شيخوختك، ومن اليقين أنّ أيام الشباب والكهولة أكثرُ فراغًا وأقلُّ شغلًا وارتباطًا، فاستغل فراغك وقلة انشغالك، فقد يأتيك زمن تتمنى الفراغ لتؤلف وتصنف، وإن وجدت فراغًا فقد تُشغلك ظُروفُ عمَلِك وهموم أُمَّتك عن التصنيف.



لطيفة

إذا كان النبي ﷺ ترك أمورًا شرعيَّةً لأجل تأليف القلوب؛ كترك بناء الكعبة على قواعد إبراهيم، وقتلِ المنافقين، فتركك ـ أخي الموفق ـ الردّ على أمورٍ تضيق صدرك، قد تبدر من بعض الناس تجاهك ومُؤاخذة ومُعاتبةِ أصحابها: أولى؛ وذلك لأجل مصلحة تآلف القلوب، وجمع الكلمة.

ومن كان غايتُه رضا الله والجنة: هان عليه الانتقام لنفسِه إذا كان ذلك في رضا ربه الشكورِ الكريمِ، والجزاءُ مِن جنسِ العمل.



٥٦ ـ [العنايةُ بالمشي، والاهتمامُ بجودةِ الطعام والتقليلُ منه مِن أهم وأعظمِ أسبابِ حفظِ الصحة والسلامةِ من الأمراض].

أُصبت قبل بضعة أعوام بمرض القولون، الذي لا يكاد يسلم منه أحد إلا ما شاء الله، فعالجت في المستشفيات الكبيرة والصغيرة، ولم أُشف منه، فجعلت أبحث وأسأل أهل الخبرة والتجربة فاتفقوا على أنّ علاجه وعلاج العديد من الأمراض، والوقاية منها: في المشي المنظم، والأكل الصحي.

فقمت من حينها بما يلي:

١ ـ المشي سريعًا كلّ يومٍ ما يُقارب نصف ساعة، بحذاء مخصص للمشي.

٢ ـ تجنب بعض الطعام الذي يُثير القولون؛ كالأطعمة الحارة ونحوها.

٣ ـ تنظيم الأكل وتحديدُ موعدِه.

وقد كان العقلاء في الجاهلية والإسلام يتمدَّحون قلةَ الأكل ويذمون كثرتَه، قال حاتم الطائي(١):

وإنَّك إنْ أَعطيتَ بطنك سُؤْلَهُ   وَفَرْجَكَ نالا مُنْتَهَى الذَّمِّ أَجْمَعَا

٤ ـ التقليل منه بقدر الإمكان.

٥ ـ شربُ اليانسون مع الشَّمَر، بعد تخميرهِما في ماء حار مدة ربع ساعة.

---

(١) يُنظر: أمالي القالي (ص٢٨٢).

٦ ـ عدم النوم بعد الأكل مباشرة، والمشي ولو عشر دقائق بعد الأكل بساعة، وهذا المشيُ يُسبّبُ خروج الغازات عن طريق الجشاء، وعدم خروجه من أهم أسباب إثارة القولون واضطراب المعدة ونبضات القلب.

فشُفيت من هذا المرض والحمد لله، وأكسبني ذلك المزيد من الصحة والنشاط والسعادة، والحمد لله ربّ العالمين.

ووجدت في البداية مشقة؛ لأن القاعدة المطردة تقول: مُخالفة العادة شاقة، وتركُ المألوف صعب، ولكنّ لا بد من القاعدة الأخرى المتفق عليها: التدرب يُعين على تقبل غير المألوف، والشاق يكون سهلًا ولذيذًا بعد تكراره وطولِ مُمارستِه.

ولقد أصْبَحَتْ رياضةُ المشي جزءًا من حياتي، ولا أكاد أفارقها، لا رغبةً في الصحة فحسب، ولكن رغبةً في المتعة المصاحبة للمشي.



لطيفة

قال أحد طلاب العلم الذين لهم كتابات وتصانيف في التربية وبر الوالدين وغيرِها: زرت مرةً رجلًا عاميًّا في العلوم الشرعيّة، لكنه عالمٌ في الكرم والبشاشة وبرّ الوالدين، وكان يفتح بابه مغرب كلّ يوم منذ سنين، فجرى الحديث عن برّ الوالدين، فتحدث عن مواقف مع والِده الذي تُوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذكر أنّه لم يُسافر منذ بضع سنوات حينما مرض والده، ولازمه حتى وفاتِه، وأنه كان يزيل ما يخرج من السبيلين بيديه دون أن يلبس قفازًا، قال: وقال أبي مرة لوالدتي: فلانٌ أبرّ أولادي، فقد كان في مرضي يزيل الأذى عني بلا قفاز، بخلاف غيره.

قال: وكنت أكبر أولاده، ولم أسمع منه كلمة فيها شكر أو ثناء، وكان أيام صحته قاسيًا عليّ على وجه الخصوص.

قال: وكنت أبحث عن كلّ ما يُرضيه إلى أنْ وافاه الأجل، فقمت على أمي كذلك، وجعلت أخدمها بانشراح صدر وحبّ وفرح إلى أنْ قبض الله روحها.

ولقد وجدت ببر والِدَيّ من التوفيق وتسهيل الصعاب ما الله به عليم.

ووالله لا منّة لي في ذلك، ولا فضل ولا معروف، وأحمد الله تعالى الذي سخرني لبرّهم.

قال طالب العلم: فبكيت من سماع ذلك، وتأثرت تأثّرًا بليغًا، وذلك لأنّ عندي أبوين، ولم أجد لذةً في البر ورغبةً في ذلك، فكنت أُجاهد نفسي على ذلك تعبّدًا لله، وأشعر أني مقصّرٌ، حتى إني لا أقبل

رأسهما في اليوم إلا مرةً واحدة، ولا أُجيد فنّ الحفاوة والبشاشة مع والدي خاصّة؛ لِمَا فيه من الحدّة والسكوت الملازم له.

قال: وبعد أن سمعت مواقف هذا الرجل مع والديه: تبت إلى الله على يديه، وندمت على ما مضى، وأكثرت من الاستغفار، وخرجت من عنده إلى والدي وقبَّلت رأسه بفرح وبشاشة على غير العادة، وأصبحت أقبل رأسه كلما قابلتُه، ووضعتُ معي طِيبًا، أُطيِّبُه كلَّ صلاة.

وأصبحتُ أبشّ في وجهه وأُسمعه الثناء وأدعو له بصوت مرتفع، فيُؤمن على دعائي.

ثم إنه قال: ووجدت انشراحًا لم أجده طول حياتي، وحبًّا للبر ورغبةً في إرضائه وإسعاده.

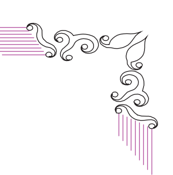
وأصبحت أنتظر لقاءه لأُقَبِّلَ رأسَه وأخاطبه بأجمل وأحلى العبارات.

وزدت في برّي لوالدتي، وكنت قليل الجلوس معها؛ لانشغالي بالقراءة والعلم، فأكثرت المجيء إليها، والحديث معها.

ومن جرب طعم البر: ذاق السعادة طول العُمْر.

فاللَّهُمَّ وفقنا وأعنَّا على برّ والدينا أحياءً وأمواتًا.





الخاتمة

هذا ما أسْعَفَت الذاكرة باستحضارِه، وجادتِ القريحةُ بتدوينِه، والفضل لله تعالى الذي حفظ هذه العبارات من الضياع، وأعان على الاسْتذكار، ووهب لي رغبةً في الكتابة، وإرادةً في المطالعة، فلا فضل لي قيد أنملة، ولا منّةَ لي وزن شعرة؛ بل الفضل للكريم الوهاب، فلولا فضله ما حُبّب للقارئ القراءة، ولا زُيّن للطالب الدارسة، ولا أُعين المؤلف على الكتابة، ولا يُسّر للخطيب الخطابة، ولا زالت العقبات عن الناجحين، ولا مُهدّت الطُّرُقُ للسالكين، ولا ذاق لذة العبادة العبّاد، ولا خرج حبُّ الدنيا من قلوبِ الزهاد.

فاللَّهُمَّ لك الحمد على أن وفقتني لأحمدك، ولك الحمد أنْ مننت علي لأشكرك، ولك الحمد أنْ أعنتني لأعبدك، ولك الحمد أنْ ألزمتنا بالعبادة فحببتها لنا، ولو جعلتها تكليفًا بلا لذةٍ لكان ذلك شاقًّا علينا، ولكن رحمتك أوسع لنا.

لا حول ولا قوة إلا بك، ولا استعانة إلا بك، ولا توكل إلا عليك، ولا إنابة إلا إليك، ولا توجه إلا لك، ولا مُطاع ولا محبوب غاية الحبّ سواك، ولا توفيق ولا هدايةَ إلا بهداك، ولا سعادة لنا إلا يوم لقاك، فاللَّهُمَّ ثبّتنا على دينك حتى نلقاك وأنت راضٍ عنا، وتوفنا والفتنة بعيدةٌ عنا.

وصلّى الله وسلّم وبارك على نبيّنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

فرغت منه ظهر يوم الثلاثاء، الموافق للعاشر من شهر شعبان، عام ثمانٍ وثلاثين وأربعمائة وألف.

والحمد لله ربِّ العالمين.



الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة